2020
3.1.2020

جاكلين راوول دوفال

كافكا
الخاطب الأبدي

ترجمة: محمد أيت حنا

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

جاكلين راوول-دوفال

كافكا
الخاطبُ الأبديّ

رواية

ترجمة
محمّد آيت حنّا

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

كافكا
الخاطبُ الأبديّ

الكاتب: جاكلين راوول-دوفال

عنوان الكتاب: كافكا، الخاطبُ الأبديّ

ترجمة: محمّد آيت حنّا

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-43-4

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019

1000 نسخة

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com

takweenkw

www.takweenkw.com

@takweenKw

إلى أماوري دا كونيا

مع خالص امتناني

I
فيليس

-من ١٣ غشت/ آب ١٩١٢ إلى ٢٧ دسمبر/ كانون الأوّل ٢٠١٧.

«لا أستطيع أن أحبَّ، إلا متى رفعتُ موضوعَ حبّي عالياً جداً، بحيث يصير متعذّراً عليّ بلوغه».

«إنّها متعذّرةٌ عليّ، ينبغي أن أتقبّل الأمر، وإنّ قوايَ قد بلغت حالاً صارت معها تتقبّل الأمرَ مُطلقةً صيحات فرح».

من الرّسائل إلى ماكس برود

من أوّل نظرة

في ذلك اليوم، يوم ١٣ غشت/ آب ١٩١٢، وفي السّاعة المتأخّرة التي شهدت بداية هذه القصّة، قصّة الغراميات المتفرّدة، كانت ريحُ جنوبٍ قد كنست فُرشَ الضّباب وعواصفَ المطر التي انهالت على براغ طيلة النّهار. السّماءُ الآن مرصّعةٌ بالنّجوم، وإنّها لَيلةٌ صيفيّةٌ حقٌّ.

في قلب المدينة العتيقة، وفي شارع أوبستغاس شبه القفرِ، شابٌّ في بذلة فاتحة، لا يرتدي صدريّة، يعتمرُ قبّعةَ قشّ، ويمشي حثيث الخطى. أمامه، بين بلاطات الشّارع المتنافرة، تمتدّ برك ماءٍ تومض تحت أضواء أعمدةِ الإنارة. ومثل عدّاءٍ في سباقِ حواجزَ يقفزُ، بقدمين مضمومتين، ما بين بِركة ماءٍ وأخرى، ما بين وميضٍ وآخرَ. هنا جملون مزخرفٌ، وهناك قوسُ نافذةٍ قوطيّةٌ، أسكفيةُ كنيسةٍ، ذراعُ حَواريٍّ ممدودة، تحليقُ حمامةٍ. يرى عند قديمه أجزاء من مدينته تمرُّ مسرعةً.

ونَسمعه يصفّرُ بلحنِ أغنية Collection de boutons au louvre

التي تغنّيها، منذ أيّام، ليونيه فريبون بكباريه مدينة فينا[1]. إنّ هذا الشّابّ، المتأبّط ظرفاً أحمرَ كبيراً، ذاهبٌ، على دأبه أماسيَ كثيرةً، إلى منزل صديقه ماكس.

ماكس برود وهوَ كانا قد التقيا صدفةً في الجامعة، يوم ٢٣ من نوفمبر/ تشرين الأوّل ١٩٠٣[2]. وكلاهما كان يحضّرّ رسالةَ دكتوراه في الحقوق، بنفس القدرِ من اللامبالاة.

كان ماكس زعيماً طلابياً، ينشّطُ حلقةً طلابية وينظّمُ ندواتٍ في الأدب والفلسفة، مجالَي شغفه.

وذاتَ مساءٍ كان يقدّمُ عرضاً في فلسفة شوبنهاور، فوصفَ نيتشه بالدّجال. تلا ذلك نقاشٌ، وصفّقَ له الحضور. وحين خلت القاعةُ تقدّمَ إليه شابٌ وبادرهُ بالقولِ: لا يمكننا أن ننعت نيتشه بالدّجال. ثمّ في بضع جملٍ، استطاعَ الغريبُ أن يبسطَ دعواهُ. صوتٌ حازمٌ، وهيئةٌ خجولٌ. أخذ ماكس يتفحّصُ مقوّمَ الأخطاءِ هذا الذي يتجاوزه طولاً بمقدارِ هامَة. أثارتهُ أناقةُ لباسه، ربطةُ عنقٍ وياقةٌ مطويةٌ؛ وحِدّةُ نظرته، عينانِ سوداوان تلتهبُ فيهما شعلةٌ؛ بدا له كأحدّ أبطال دوستويفسكي. لقد أزعجَه نحولُ وأناقة هذا الشّابِ بعظامِ وجنتيه العاليتين، فلامَ نفسَه على الإفراط في شربِ البيرة، والأطعمة الدّسمة، وبُغضِ الرّياضة. وقبل أن يتمكّن من

---

(١) اسم الكاباريه «مدينة فينا»، لكنّه يقع ببراغ. (الحواشي من وضع المترجم ما لم تتمّ الإشارة إلى خلاف ذلك).

(٢) نظراً لكثرة التواريخ في الكتاب وأهميّتها، آثرت المؤلّفة أن تكتبها بالأرقام لا الحروف، وآثرنا السّير على نهجها، لأنّ الأرقام أيسرُ أن يستدلّ عليها بصرياً في النّص.

إجابَته، كانَ الشّابُ قد اختفى. من أين خرج هذا الشّبح؟ لم يسبق لي أن رأيتُه قطّ، إنّه لا يخالط أيّ مجموعة، ولم يسبق له أن بادر إلى الكلام. لكن، هل يقرأ الفلاسفةَ بعنايةٍ أكثر ممّا يفعلُ أيّ منّا؟

صباح اليومِ التالي، توصّل ماكس برسالةٍ من الشّابِ المجهول: يعتذر إليه، لكن في الآن نفسه يبلورُ نقودَه. حججٌ مرّت من غربالٍ دقيق، أسلوبٌ يقصد الهدفَ مباشرةً. احتفظ ماكس بهذه الرّسالة. كما احتفظ بعشرات الرّسائل الأخرى التي تلتها. العديد منها كانت تزيّنُه رسوماتٌ، دمى مريونيت سوداء معلّقةٌ بخيوط لا مرئيّة.

صار الطّالبان لا يفترقان. يتحمّسان للكتب نفسها، للأفلام نفسها، ويفتنُهما السينيماتوغراف. ونهايةَ الظّهيرة كانا يُشاهدانِ معاً وهما يخرجان من المدينة كي يقوما بنزهاتٍ طويلة في الرّيف. مساءً، يحضران العروض نفسَها، ويتحمّسان للمسرح البيديشيّ، ويقصدان المقاهي نفسَها. عرّفَ ماكس رفيقَه على ممثّلين، وروائيّين شباب، وشعراء، إذ كان يعرف النوادي الأدبيّة، والفرَقَ، والملاهي ومقاهي الموسيقى الأكثر إثارة للاهتمام في المدينة.

أسرّ له ماكس بأنّه يكتبُ. لكنّه يتهيّبُ إطلاعه على قصصه. فهي ليست في مستوى متطلّبات صديقه الأدبيّة. تلك المتطلّبات التي تزعجه فيه أكثر حتّى من زُهده. فصديقه لا يشرب خمراً، ولا شاياً أو قهوةً، ولا يدخّنُ، وينامُ بغرفة مفتوحةٍ في عزّ الشّتاء، ويسبح في أنهار متجمّدة، وبالكاد يأكلُ الطّعامَ، وما زال يقصد المواخير، لكن حين يتعلّقُ الأمرُ بنصٍّ، فإنّه ينتف ريشَه، يزيلُ شحمَه ولحمَه

دونما شفقة: فهذه الاستعارةُ تيئّسُه من الأدب، وتلك الجملةُ تشْخُر، وتلك الأخرى وقعُها نشازٌ، وتانك الجملتان تتحاكّان كما يحتكُ اللّسانُ بضرسٍ أجوف! كان يردّد بنبرةٍ تشبه صلاةً:

- ينبغي سحبُ الكلمات من العدم!

يسأله ماكس:

- عن أيّ عدم تتحدّث؟

فيجيبُه الصّديقُ معدّداً ملذّات التّفاهة، مادحاً التّفاصيل. يقولُ متلمّظاً حلاوة كلّ كلمة «رائحةُ الحجرِ الرّطب في دهليز»، ذلك هو النّحوُ الذي ينبغي الكتابةُ وفقَه.

في ذلك اليوم، يوم ١٣ غشت/ آب ١٩١٢، وفي السّاعة المتأخّرة التي شهدت بداية هذه القصّة، قصّة الغراميات المتفرّدة، رنَّ الشّابُ ذو البذلة الفاتحة، المُلاحقُ انعكاسات مدينته العتيقة، بابَ صديقه.

وما كاد ماكس يفتح الباب في وجهه حتّى واجهه غاضباً:

- أرأيت كم الساعة؟

أجاب صوتٌ من الغرفة المجاورة: إنّه دائمُ التأخّر. طالما لم يقدّم ساعته بساعةٍ ونصف، فإنّه سيظلُّ متأخّراً عن الجميع. ما أعجبها من فكرةٍ: تقديم السّاعةِ ساعةً ونصف!

أخذ الشابُّ يضحك. وضع قبّعته في البهو ودلف إلى غرفة الطّعام التي تمتدّ إلى مكتبةٍ وصالون موسيقى. أوطّو، أخو ماكس، جالسٌ إلى البيانو، يعزفُ **السوناتا سي مينور** لفرانتس ليست. أمّهما

تتحدّث في الهاتف، والسيّد برود يبحث عن كتابٍ في أحد أرفف المكتبة. بأيديهم حيّوا زائرهم المسائيّ.

في غرفة الطّعام، شابّةٌ ترتدي بلوزة بيضاء، تتعشّى بمفردها. لمرآها توقّفَ الشّابُ لحظةَ تردّد. ثمّ قصدها مباشرةً، ومدّ إليها يده وقدّم نفسَه:

- فرانتس كافكا.

جلس مقابلَها، وأخذ يتمعّن فيها بتدقيق لدرجة أنّ الشّابة أخفضت عينيها وتردّدت قبل أن تجيبه:

- فيليس باور.

- أنت لست من براغ. من أين أتيت؟ هل تسافرين وحدك؟ كم يوماً ستظلّين هنا؟ أيّ علاقةٍ تجمعك بآل برود؟ هل تعملين؟

استرخت فيليس باور ثمّ قالت بالنّبرة المتقطّعة نفسها:

- أقطنُ ببرلين. أنا عازبةٌ. تجمعني بآل برود صلةُ قرابة. نعم، أنا أعمل. أدير خدمة الإملاء الآليّ[1] بشركة كارل لِندستورم. وسوف أغادرُ غداً صباحاً. هل يكفيك هذا؟

- اعذريني، دائماً ما أُفرِطُ في طرح الأسئلة. هل بإمكاني أن أبقى في صحبتك؟

---

(١) آلة كانت تمكّن من تسجيل النّص شفاهياً لإعادة كتابته بعد ذلك.

ومن دون أن ينتظر جواباً، -جواباً لن يأتيَ-، أخرج فرانتس كافكا من ظرفه الأحمر حافظةَ صورٍ صغيرةً، وأفرغ محتواها على الطّاولة.

آنستي، هل تسمحين لي بأن أريك هذه الصور؟ لقد التقطتُها وماكس، بفايمار حيث قضينا معاً أيّاماً. لمَ تتعشّين بمفردك على هذه الطّاولة الكبيرة؟

- لقد عدتُ متأخّرةً. كنت في المسرح. لم ينتظرني أحد.

ألقت ابتسامةً محرجةً إلى ماكس الذي أتى يجلس بجانبها. عرض عليها فرانتس إحدى الصور:

- هذا بدءاً منزلُ غوته، بنوافذه الأربع عشرةَ المطلّة على الشّارع و...

قال ماكس دهشاً:

- هل أحصيتَها؟

- أغبطُ كلّ ما يمسّ غوته، كلّ ما يمسّه بإطلاق: صالونه؛ مكتبه حيث كان يشتغل؛ الدّرج الذي صنعه أحدُ المحكومين، في قلب سنديانةٍ عظيمة، من دون استعمالِ أيّ مسمارٍ؛ أوانيه الخزفِ الصيّنية؛ تمثالُه النّصفي، صنعَةُ المَثّالِ دافيد آنجرز[1]؛ مسرحه في الهواء الطّلق، بصفّين من المقاعد. بل أغبط حتّى

(١) صانع تماثيل وميداليات فرنسّي شهير (١٧٨٨-١٨٥٦).

إكليل الغار الذهبيّ، فوق تابوته، إكليل الغار الذي أهدته إيّاهُ نساء براغ الألمانيات.

اختار صوراً أخرى:

- راشيَّين الحارسَ، تمكّنا من أن نصوّرَ كلّ شيء، حتى غرفة نومه مع سريره ذي السّتائر. هل تريدين رؤيتها؟

نظرت فيليس متفحّصةً كلّ صورةٍ. نَحَّت طبقَها وهو ما يزال ممتلئاً.

قال ماكس:

- قطعةُ اللّحم ستبرد.

- لا أبغضَ عندي من النّاس الذين لا يكفّون عن الأكل.

أتت خادمةٌ تعلمُ السيّد برود، المنهمك في القراءة بالمكتبة، أنّ ثمّة من يطلبه في الهاتف. قام وغادر الحجرة.

قال ماكس شاكياً:

- أمّا أنا، فلا أبغض عندي من رنين الهاتف هذا.

حكت فيليس المشهد الأوّل من أوبريت الحبيبة في السيّارة، التي كانت قد شاهدتها في مسرح لاريزيدانس:

- يتردّد رنين الهاتف خمس عشرةَ مرّةً. وأحدهم، مستعملاً الصّيغة نفسها، يستدعي واحداً بعدَ آخر الشخوص الخمسة عشر المتواجدين على الخشبة.

أجابها ماكس:

- لحسن الحظّ لسنا هنا بتلك الكثرة.

واصلت فيليس النّظر في الصور التي كان يعلّقُ عليها فرانتس.

- ها منزلُ الموسيقار فرانتس ليست، الظّاهرُ أنّه لم يكن يشتغل إلا ما بين السّاعتين الخامسة والثامنة صباحاً. وبعد ذلك يقصد الكنيسة، ثمّ يعود إلى النّوم، وانطلاقاً من السّاعة الحادية عشرة يستقبل زوّاره. وعلى هذه الصّورة تستطيعين أن تَرَي منزل شيلر. قاعة الانتظار، الصالون، مكتب الاشتغال، المضاجع. يا له من حسن انتظامٍ قياساً إلى بيت كاتب.

أمسك ماكس صورةً كان فرانتس يريد أن يخفيها.

- انظُري بالأحرى إلى فرانتس وهو يسبح. إنّ السّفر معه جحيمٌ. في كلّ محطّة من محطّات السفر ينبغي أن نجد، حتّى وإن كلّفنا الأمرُ أن نهيمَ ساعاتٍ، فندقاً ليس فيه أيّ زبونٍ، وليس في محيطه أيّ كلبٍ، ولا أدنى صوتٍ، وفوق هذا كلّه ينبغي أن يكون على مقربةٍ من مطعمٍ نباتيّ ومسبحٍ في الهواء الطّلق. إن لم يسبح، إن لم يجدّف، إن لم يتمشّى كلّ يومٍ يصير التّعايش معه مستحيلاً.

- تسافران معاً كثيراً؟

- نعم. لقد ذهبنا معاً إلى إيطاليا: إلى بريتشيا، كي نشاهد عروض الطّيران، وإلى ميلانو، وريفا، ولوغانو، وزيوريخ.

ومرّتين ذهبنا إلى باريس. رافقنا أوطّو، وقد أعانني على تحمّل غرابة أطوار صاحبنا ذي النّزعة الطّبيعيّة.

صاحت فيليس متعجّبة:

- أنت من دعاة الطّبيعيّة؟

- ليس كذلك حقاً... أنا الرّجلُ المرتدي سراويلَ السّباحة. صحيح أنّي، هذا الصّيف، قد أصبت بغثيانٍ خفيف بمخيّم يونغبورن، وأنا أرى النّاس يتمشّون عراةً بالكامل، من دون أيّ حشمة. وإن ركضوا، فتلك مصيبةٌ أكبر. كما لا أحبّ الرّجال المسنّين الذين يقفزون من فوق أكوام القشّ.

ضحكوا ثلاثتهم.

- لماذا إذن تذهب؟

- إنّهم أناسٌ مسالمون يعيشون بجوار الطّبيعة. يلتحفون السّماء، ويمشون حفاةً على العشب في الفجر، حياتهم ممتعة.

أرى ماكس فيليسَ صورةً أخرى:

- أُنظري إلى فرانتس رفقة غريت أمام حديقة فيرتر؛ يأكلان الكرز.

- من هي غريت.

- ابنة الحارس الجميلة. لقد لاحقها فرانتس ليلاً ونهاراً. اعترِفْ، لقد كنتَ مغرماً بها. أهديتَها شوكولاتة، وأزهارَ

قرنفل، وقلباً صغيراً، وسلسلة، وماذا أيضاً؟ كنت لتطلب يدها لو أنّها وافقتك في هواك.

نظر ماكس إلى السّاعة:

- لقد دقّت الحادية عشرة، ونحن لم نحسم بعد في ترتيب قصصك؛ ينبغي أن ترسلها ضرورةً غداً صباحاً، في أوّل ساعة. هيّا لنجلس جانباً، ريثما تنهي فيليس عشاءَها.

ثمّ قام من مجلسه، وأخذ المظروف الأحمر الموضوع أمام فرانتس، واستلّ منه مخطوطاً.

نظرت فيليس إلى فرانتس نظرةَ دهشة:

- أنت أيضاً تكتب؟

وكان ماكس هو من أجابها: - هو تحديداً من يكتب. إنّ الكتابة غايةُ حياته: رأسه يشكّل قصصاً مبهرةً. فيُجنُّ إن لم يكتبها. إنّه ليس إلا أدباً. ألم تقرئي له شيئاً؟

أخذت فيليس تتصفّح مجلّد أعمال غوته الذي تركه السيّد برود على مقعده:

- كلاّ، لكنّي قرأت كلَّ كتبك أنت يا ماكس. باستثناء روايتك الأولى قلعة نورنبيجه، التي لم أستطع أن أكملها. مرّاتٍ كثيرة حاولت.

أخذ فرانتس يتفرّس فيها بنظرةٍ مركّزة. خيّم في المكان صمتٌ قطعته فيليس بصوت هادئ:

- أنا أوّل المندهشين من ذلك. وأقترح على نفسي أن أعيد قراءته عند أوّل فرصةٍ تلوح.

سحب ماكس فرانتسَ باتّجاه طاولة صغيرة ذات أرجلٍ ثلاث دقيقة وصلبة:

- لنشرع في الاشتغال. لن نحتاج سوى دقائق. عندي لك مقترحٌ، وقد دوّنتُه في ورقة. أين وضعت الورقة؟

فتّش في جيوبه، أجال عينيه حواليه، فلمح الورقة على رخامِ المدفأة.

- ها هي ذي! حسناً، سأضع في البداية **قصّة أطفال على الطّريق-الكبرى، تليها الرّحلة الجبلية، وبعدهما لو بالإمكان أن يكون المرء هندياً أحمَرَ**، وفي الأخير ذاتَ يومٍ إذ كنتُ حزيناً. أمّا بالنّسبة إلى باقي القصص، فأتّفق مع الترتيب الذي وضعتَه أنت.

دنت منهما فيليس:

- أحبُّ كثيراً نسخ المخطوطات. يعرض لي أن أفعل ذلك ببرلين. سأكون شاكرةً لك يا ماكس، إن أرسلتها إليّ.

أخذ فرانتس ينظر إليها:

- يرسل إليك النّصوص لكي تقرئيها، أم لكي تنسخيها فقط؟

- أنسخها فقط.

ضرب فرانتس بقوّةٍ على الطّاولة، فانتفض الجميع.

- هل توافق على التّرتيب الذي اقترحه عليك يا فرانتس؟ هل بوسعي أن أعيد ترتيب قصصك؟

- لن أرسل شيئاً غداً.

- تعيد سيرتكَ المعتادة مجدّداً! إنّه لأمرٌ مثير للسّخط! عليّ أن أصارعك كلّما هممت بنشر عملٍ ما. لمَ هذا الرّفضُ في آخر لحظة؟

- لأنّ لا داعيَ لنشر نصّ لم يبلغ درجة الكمال. لست مستعجلاً. لقد طردُ الإنسان من الجنّة بسبب عجلته، وإنّ عجلته هي ما يمنعه من العودة إليها. ثمّ إنّي لا أريد أن أخيّب أملَ ناشرك مرّةً أخرى.

- لكنّ ناشري هو من يطالبني بنصّك، أمس فقط هاتفني يطالبُ به! وقد وعدته وعداً قاطعاً أنّي سأرسله إليه صباح الغد. لا يحقّ لك إذن أن تفعل بي ما تفعله.

- لقد سألتُه كم نسخةً باعَ من مجموعتي الأولى. قال لي إنّه قد باع منها إحدى عشرة نسخةً. وبما أنّني قد اشتريت منها عشراً، ودّي لو أعرف من ذا الذي يملك **التأمّلَ** الحادي عشر؟ ولماذا ينشرُ ناشرك نصوصاً لا تُباع؟

- لأنّه يعلم أنّه يوماً ما سيبيع المئات منها. أتريد أن أذكّرك بما يقوله فيك ريلكه، وفِرفيل، وهاين، وموتزيل؟ لن أتركك ترحل من هنا حتّى أتيقّن من أنّك سترسل هذا النصّ غداً.

أضاف أوطّو:

- بالبريد المركزي، توجّه إلى الآنسة بالشّباك رقم ١٤، إنّها الأجمل هناك.

قال ماكس:

- أرسِله بالبريد المضمون.

- لم يسبق لي أن أرسلت رسالةً، ولا حتّى بطاقة بريدية، إلا بالبريد المضمون.

أقفل أوطّو البيانو. جثا على ركبتيه أمام المدفأة. أخذ فرانتس ينظر إليه، وانخرط في الضّحك، وأشهد عليه فيليس:

- كلّما زرتهم، يعمد أوطّو، الحريص على النّوم في موعده، إلى مواجهة الموقد بهذه الطّريقة؛ تلك وسيلته لتنبيهي إلى أنّ وقت الانصراف قد حان. لقد سمّاني اضطرابَ النّوم الوظيفي. أحياناً تضطرُّ عائلة برود بأكملها إلى أن تجتمع وتوحّد قواها كي تطردني خارج الشقّة. وأخشى، هذا المساء، أن أكون قد أخّرتُك أنت أيضاً. في أيّ ساعةٍ تنطلقين غداً؟

- السّادسة والنّصف صباحاً. لم أرتّب حقيبتي بعد. وأودّ أن أنهي قراءة كتابي قبل النّوم.

إبتسم فرانتس.

- تحبّين القراءة ليلاً إلى وقت متأخّر؟

- أحياناً أقرأ حتّى الفجر.

- أنت عائدةٌ إلى برلين؟

- كلاّ، أنا ذاهبةٌ إلى بودابست، لأحضر زفاف أختي. أتريد حقاً أن تعرف كلّ شيء؟

انخرطت السيّدة برود في الحديث:

- في غرفتها بالفندق، أطلعتني فيليس على فستان الباتست[1] الذي ستلبسه في حفل الزّفاف. إنّها رائعة!

قامت فيليس. فرانتس الذي لم يفارقها نظرُه، علّقَ:

- تنتعلين شبشب السيّدة برود؟

- أجل، لقد كان الجوّ فظيعاً النّهارَ كلّه، واضطررت إلى ترك حذائي يجفّ. لكنّي معتادة على لبس الخفّ بكعبٍ.

- خفٌّ بكعبٍ؟ أيّ بدعة هي!

انصرفت عبر ردهةٍ تفضي إلى الحمّام. صفق بابٌ. صاحت السيّدة برود:

- فيليس تشبه الغزالة في كلّ شيء!

تجهّم فرانتس. اقترب ماكس من صديقه وقال بصوتٍ خفيض:

- كيف وجدت برلينيّتنا؟

- تفتقر إلى السّحر، إلى الجاذبية. حين وصلتُ كانت تتعشّى على المائدة، لكنّي مع ذلك حسبتُها الخادمةَ. وجهها بارز

(١) قماشٌ من كتّانٍ أو قطنٍ شفيف، ينسب إلى صاحبه.

العظام، شبه خالٍ من التّعبير. أنفٌ يكاد يكون مكسوراً، شعرٌ أشقر جافٌّ بعض الشّيء. تلبس مثل ربّة منزلٍ، مع أنّها ليست كذلك، لكنّي لاحظتُ ذلك على الفور. إنّها حازمة، مفعمةٌ بالثّقة، وصلبة. مثل...

تناهى وقع خطواتٍ آتية من الرّدهة. كفّ عن الكلام. ركض يستقبل فيليس، وأراها المجلّة التي أخرجها من مظروفه:

- آنسة فيليس، لقد حملت معي، محض صدفة، عدداً من مجلّة فلسطين *Palästina*.

مدّت فيليس يداً، فأمسك بها فرانتس وضمّها إليه.

- هل تعرفين هذه المجلّة؟ أنا وماكس ننوي العام المقبل زيارة فلسطين. هل تودّين الانضمام إلينا؟

- ما أعجبها من فكرة... هل تمزح؟

سحبت يدها.

- كلاّ، لم يسبق لي قطّ أن كنت أكثر جديّةً.

- ليس هذا بالسّفر الذي نقرّره هكذا، محضَ نزوةٍ! هل تتحدّثُ العبرية؟

- كلاّ، لا أتحدّثها حقاً. مع أنّ جدّي الأكبر من جهة والدي، والذي أحمل اسمه، أمشيل، كان تلمودياً لامعاً؛ لكنّي أتلقى دروساً في العبرية الحديثة. هل سترافقيننا؟ أريد منك وعداً. وعداً صورياً.

- لا أدري. دعني أفكّر، وأستأذن مضيفيّ.

تحت بصر فرانتس، الذي يلاحقها، اعتمرت فيليس قبّعة عريضة الحواشي بيضاء وبيج، وسمّرت فيها ثلاثة دبابيس طويلة. اقترح عليها السيّد برود مرافقتها إلى الفندق.

سارع فرانتس إلى القول:

- هل أستطيع أن أنضمّ إليكما؟

في الشّارع الضيّق، ذي البلاطات المتنافرة، تسير فيليس جنباً إلى جنبٍ والسيّد برود. في الخلف يتبعهما فرانتس، غائصاً في خَرسٍ غريب. عندما بلغوا نصف الطّريق، تساءلَ عمّا إذا كان بإمكانه أن يحمل إلى هذه الشّابة وروداً إلى المحطّة. لكن أين عساه يجد وروداً في الفجر؟ بلا أيّ سببٍ، تعثّر غير ما مرّةٍ، مدفوعاً بالقلق والرّغبة والتّيه، تعثّر مراتٍ عديدة، تاركاً الرّصيف ليسير وسط الطّريق.

وإذ بلغوا شارع بِرلغراس، استدارت فيليس شطره:

- أين تسكن؟

- تريدين عنواني؟

غمرته نفحة سعادةٍ، إنّها تريد أن تكاتبني كي تؤكّد سفرها [معنا] إلى فلسطين.

- عنوانك؟ كلاّ، إنّما أردت فقط أن أتيقّن ممّا إذا كان عنوانك في طريقي إلى الفندق، فلا أؤخّرك.

- لا أستعجلُ أبداً العودة إلى البيت. لا أنام إلا قليلاً. لياليّ تتألّف من قسمين: قسمٌ أسهره، وقسم أتأرّق فيه.

استأنفت فيليس حديثها مع السيّد برود. بينما فرانتس يتنصّت عليهما يهدران الوقت، بشكلٍ مخزٍ، في مقارنات بين حركة السّير في براغ ونظيرتها في برلين. ها السيّد برود يسدي لها الآن نصائح من أجل السّفر، ويعدّد لها المحطّات التي تستطيع أن تشتري فيها ما تأكله. أفصحت له فيليس بأنّها تنوي الفطور في المطعم-المقصورة. وترجو أن تجد مظلّتها التي كانت قد نسيتها في القطار أيّاماً من قبل. دلفوا إلى بهو فندق فخم، **النّجم الأزرق**. بدا فرانتس من الاضطراب، لدرجة أنّهم حين بلغوا الباب الدّائريّ انزلق في نفس المقصورة وفيليس فدَاس قدَمها. تمتم معتذراً. أمام باب المصعد المفتوح، تبادلا التّحايا.

ذكّرها فرانتس بمشروع الرّحلة. لمحت فيليس إذّاك البوّاب فأخذت تناقشه في إمكان أن تأتيها سيارةٌ تقلّها صباحاً إلى المحطّة.

مرّةً أخرى تبادلا تحيّة الوداع. صاحت به فيليس:

- هل ستذكّرني مرّة أخرى بـ...

قاطعها فرانتس:

- كلا، كلاّ، عندي سؤال أخير: كم من الوقت نستطيع الاحتفاظ بالشّوكولاتة قبل أن تفسد؟

شغفٌ بلا حبّ

في يوم ٢٠ سبتمبر/ أيلول ١٩١٢، كتب أولى رسائله إلى فيليس باور. رسالةً تحمل شعار شركة التأمينات العماليّة التي يشغل فيها منصباً مهمّا. رسالة من صفحتين، طبعها على الآلة الكاتبة التي لم يألف الكتابة عليها، وبدأها بعد السّاعة السّادسة من دوامه بالمكتب. ذكّرها في الرّسالة باسمه، فرانتس كافكا، وبلقائهما عند آل برود، ومشروع الذّهاب إلى فلسطين. وفي حال ما إذا لم يكن لها من داعٍ لاتّخاذه رفيقَ سفرٍ، أو حتّى دليلاً مرشداً، أو ثِقلاً، أو متسلّطاً، أو أيّ شيءٍ بوسعه أن يكونه، فإنّه يقترح عليها، في انتظار ذلك، أن تتّخذه مراسلاً على سبيل التّجربة. أضاف أنّه غير منضبط المواعيد، وبالتّالي لا ينتظر أن يُكتب إليه بانتظام.

وقع رسالته بـ: «مُخلِصك الصّادق، د. فرانتس كافكا» (وكان قد حصل على الدكتوراه في القانون).

رسالته الأولى ظلّت بلا ردّ.

كتب فرانتس رسالةً ثانية، بخطّ اليد. كان لديه الكثير ليقوله:

الجو صحوٌ وحارٌ، النّافذة مفتوحة، وهو يدندن أغنية. أخبر فيليس باور بأنّه قضى خمسة أسابيع يتسوّل عنوان عملها ببرلين، وبأنّه لم يكن متأكّدا منه، وبأنّ مطراً عاصفاً من العصبيّة يهطل عليه هطولاً متواصلاً، وبأنّه كتب رسالته الأولى عشر ليالٍ متتالية، لفرط ما كان يشقّ عليه نسخ ما في رأسه قبل أن ينام. وقّع رسالته: «فارنتسُـكِ كافكا».

جواباً على صفحاته الخمس، لم تردّ فيليس أيّ ردٍّ. لكنّها احتفظت بخطابَيه.

مصمّماً على كسر الصمت الذي تفرضه عليه هذه الشّابّة، التمس فرانتس مساعدة محيطه. ماكس وأخته، وصوفي فرايدمان، التي تزوّجت من أحد أبناء عمومة باور؛ جميعهم كتبوا إلى فيليس، يتباهون بقيمة صديقهم الرّفيعة، والتّقدير الذي يحظى به. بعد ثلاثة أسابيع، وبعد رسالةٍ ثانية من صوفي، لانت فيليس. تهلّل فرانتس، رسالتُها، كما سيخبرها، سببت له فرحاً مثيراً للسّخرية، وقد وضع يده عليها كي يستشعر ما إذا كانت فعلاً من خطّ يدها.

إنخرط على الفور في تراسلٍ مسعور: ما بين ٢٣ أكتوبر/ تشرين الأوّل، التاريخ الذي وصله فيها جوابها الأوّل، و٣١ ديسمبر/ كانون الأوّل، أرسل إليها مائة رسالة، بمعدّل ثلاث رسائل في اليوم.

الرّسائل الأولى كانت عذبة:

«حين تصلني رسائلك أرتعد كمجنونٍ، وجيفٌ يهزُّ جسدي بأكمله، وقلبي لا يعرف سواك».

«عزيزتي الآنسة فيليس، السّاعة الآن الواحدة والنّصف صباحاً. لم تمرّ عليّ برهةٌ في حياتي الصّاحية، من دون أن أفكّر فيك. وثمّة برهاتٌ كثيرةٌ لا أفعل فيها شيئاً آخر. منذ المساء الذي رأيتُك فيه، شعرتُ أنّ ثمّة ثقباً في صدري منه يدخلُ ويخرجُ كلّ شيءٍ، كأنّما يُسحبُ خارجاً عنّي. إنّك مرتبطةٌ حميمياً بأدبي».

«اليوم، وصلتني رسائلك الثلاث الأخيرة، وصلتني تقريباً في اللّحظة نفسها. طيبتُك لا حدّ لها. سأكتب لك بلا شكّ مرّاتٍ عديدة هذا النّهار. وداعاً إذن، لساعاتٍ فقط».

وصارت النّبرةُ أقلّ فأقلّ رسميةً؛ وبعد آنسةِ البداياتِ، صير إلى: عزيزتي الآنسة فيليس؛ ثمّ: آنستي الأعزّ فيليس. ثمّ فجأةً كتب، يوم ١٤ نوفمبر/ تشرين الأوّل: حبيبتي، حبيبتي، وجرُؤ على رفع الكلفة ومخاطبتها بضمير المفرد. بضعة أيّامٍ لاحقاً كتب: «حبيبتي، معشوقتي، أنت يا أحبَّ غواياتي؛ محبوبتي، أجيبك عن سؤالك: نعم، لقد أحببتك فوراً، ذاك المساء عند ماكس، من اللّحظة الأولى، من النّظرة الأولى؛ أحبّك حدّ الأنين».

«حبيبتي، معشوقتي، لقد حلمت بك مرّةً أخرى: ساعي بريد حمل إليّ رسالتيك، كلّ رسالةٍ في يدٍ، ومدّها إلي بحركةٍ رائعة الدقّة، دقّة تجعل يديه يرتفعان كأذرعِ آلةٍ بُخارية. كان بوسعي أن أستلّ من المظروفين ما شئتُ من أوراقٍ مكتوبة، فأبداً لن يفرغا. كان حلماً سحرياً». وقّع الرّسالة بـ: «فرانتسكِ».

منذ الأيام الأولى، وعلى امتداد الشّهور، ظلّ يرسم لهذه الصبيّة

بورتريهاً شخصياً له: وفيٌّ، قاسٍ، كاريكاتوريّ، هزليّ، و، بحسب قوله، خدّاعٌ.

«ستحسبينني أصغر بكثير ممّا أنا عليه في الواقع؛ كدت أن أخفي عنك سنّي. سأكمل الثلاثين من عمري، في الثالث من يوليو/ تمّوز المقبل. أبدو كالمراهق، فعلاً».

في مذكّراته، ينخرط في فحصٍ أدقّ، بعدما تأمّل نفسه بعناية في المرآة: «وجدت أن لي في الواقع وجهاً أجمل من ذاك الذي في ذهني - صحيح أنّي تملّيتُ وجهي على ضوء المساء، وكان مصدر الضوء خلف ظهري، بحيث أنّ وحدها الخصلاتُ التي تغطّي حواف أذنَي كانت فعلاً مُضاءَةً. إنّه وجهٌ صافٍ، مشكّلٌ تشكّلاً متناغماً، ملامحه تكاد تكون جميلةً. سوادُ الشّعر والحاجبين والمحجرين يتلألأ كشيءٍ حيٍّ في كتلة الوجه الواعدة. النّظرة ليست بالمرّة تالفةً، لا أثر فيها لأيّ خراب، لكنّها أيضاً ليست طفولية؛ إنّها بالأحرى حيويةٌ على نحوٍ مذهلٍ، هذا إن لم تكن مجرّدَ نظرةٍ مُلاحِظَة، ما دمت قد كنت منهمكاً في ملاحظة نفسي، وأردت أن أخيفَني».

أسرّ إلى فيليس بأنّه الرّجل الأشدّ نحولاً في العالم، غير أنّه، مُذ صار يتردّد على المسابح، ما عاد يخجل بجسده.

وصار يجيبُ عن جميع أسئلتها:

«تريدين أن تعرفي برنامجي اليومي؟ برنامجٌ روتينيٌّ جداً. من الثامنة صباحاً إلى الثانية ظُهراً بالمكتب، والغذاءُ حتّى الثالثة أو الثالثة والنّصف، وبعد ذلك قيلولةٌ في السّرير حتّى السّابعة والنّصف،

فعشرُ دقائق من الحركات الرّياضية، عارياً أمام نافذة مشرعة، وبعد ذلك جولةٌ مدّة ساعة، وحيداً أو مع صديق، ثمّ العشاء مع العائلة. وحوالي السّاعة العاشرة والنّصف (أحياناً بعدها بقليل)، أكتب. وأواصل الكتابة بحسب قوايَ، ورغبتي، وحظّي، حتّى السّاعة الواحدة أو الثانية أو الثالثة صباحاً».

وضمّن رسالتَه (على سبيل التّنبيه؟) قصيدةً ليان -تسِن-تساي:

مأخوذاً بكتابي في اللّيل البارد،
أغفلتُ ساعةَ الذّهابِ إلى النّوم
عطورُ غطائيَ المطرّز بالذّهبِ
قد تبدّدت، والنّارُ خمدت.
وها صاحبتي الجميلة، التي كتمت حتّى السّاعةِ،
غضبها، تنزع من يدي القنديلَ
وتسألني: «أتدري كم السّاعةُ الآن؟»

لا يخفي عنها أيّ شيءٍ من فراداته: «طريقتي في العيش؟ قد تبدو لك مجنونةً ولا تُطاقُ. أرتدي ملابسي كيفما اتّفق. عندي بذلةٌ واحدةٌ، ألبسُها في المكتب، والشّارع، لا بل ألبسها صيفاً وشتاءً. ضدّ البرد، أنا أصلَبُ من جذع شجرة، فحتّى اللّحظة لم أرتدِ، ونحنُ في عزّ نوفمبر/ تشرين الأوّل، أيّ لباسٍ فوقيّ، ثقيلاً كان أم خفيفاً؛ بين السّابلة المغلّفين في ملابسهم، أبدو كأحمق يرتدي قبّعة قشّ وبذلةً صيفية من دون صدريةً (لقد صرتُ صاحب براءة اختراع البذلة من غير صدرية)».

«بالطّبع لا أدخّن، ولا أشرب لا خمراً ولا قهوةً ولا شاياً». لكنّه يضيف، ربّما رغبةً في طمأنة فيليس، أنّه يشعر بالسّعادة حين يكون محاطاً بعشرة أشخاصٍ يشربون القهوة السّوداء أو البيرة؛ لا شيءَ يبهجه أكثر من رؤية الآخرين يأكلون طعاماً لن يضعه أبداً في فمه.

ولعنايته بالتّفاصيل يدقّق:

«أتناول ثلاث وجباتٍ في اليوم، وبينهما لا أتناول شيئاً، أقصد فعلا ما أقوله: لا أتناول شيئاً بالمرّة. صباحاً فاكهية[1]، وبسكويت وحليب. وفي الثانية والنّصف، بدافع الطّاعة الأبوية، آكلُ نفس ما يأكله الآخرون، لكن بقدرٍ أقلّ ممّا يأكلون. مساءً، في التّاسعة والنّصف شتاءً، لبنٌ رائبٌ، وخبزٌ كاملٌ، وزبدةٌ، وجوزٌ وبندق، وكستناء، وتمر، وتين، وزبيب، ولوز، وبذور يقطين، وموز، وتفّاحٌ، وإجّاص، وبرتقال. ولا أكتفي أبداً من شراب الليمون. لكن يا عزيزتي فيليس، رجاءً لا ترفضيني لهذا السّبب، اقبليني بلُطفك».

وفي يومياته، يطلق العنان لنفسه، يعترف بنوازعه الفعلية والخيالية:

«تلك الرّغبة التي تتملّكني دوما، ما إن أحسّ معدتي فارغةً، في أن أراكم في نفسي صورَ مجازفاتٍ غذائية رهيبة. محلاّت المنتجات اللّحمية تحديداً هي ما أُشبع أمامه هذه الرّغبة. إن رأيتُ نقانق عليها ملصقٌ يشير بأنّها سجقٌّ منزليّ عتيق، فإنّي أعضّها عضاً في مخيّلتي،

---

(١) الفاكهية أو الكامبوت، نوع من الحَلْي الذي انتشر في القرن السابع عشر بأوروبا، وقوامه قطع الفواكه والسّكر.

وأبلعها سريعاً، بانتظام ومن غير تردّد، كأنّني آلةٌ. وتتعاظمُ لهفتي بفعل الندم الذي يلي فوراً هذا الفعل، حتّى وإن كان مجرّد تخيّلٍ. أحشر في فمي قطعَ ضلوعٍ طويلةً، من دون أن أمضغها، ثمّ أخرجها من الطّرف الآخر ساحباً إيّاها باتّجاه المعدة والمصران. أفرغ إفراغاً تاماً محلاّتِ الأطعمة. أملأ نفسي بأسماك الرّنجة، والمخلّلات، وكلّ الأطعمة المضرّة، والمتفسّخة، والحرّيفة. من برطماناتها الحديدية تتساقط الحلويات في فمي كحبّاتِ البرَد».

يصف بالتّفصيل نهاراته، خرجاته، عطالَته، يديه، مواطن ضعفه:

يقول لفيليس: «الحمّام يمنحني متعةً عظيمةً، كنت أشعر بالملل أمس لدرجة أنّي ذهبت ثلاث مرّاتٍ أغسل يدي. يعرض لي أن أنفق ظهيراتٍ بأكملها في صحبة شعري. ورفقة مشطي، مشط ماركة إنجليزية، G.B Kent & Sons، الذي لا أستطيع أن أفارقه»[1].

يعاتب نفسه على شدّة تعلّقه بأسباب الرّفاه، فالخادمة التي قد تنسى حمل الماء الساخن إليه صباحاً، قد تقلبُ عالَمه رأساً على عقب. دائماً ما كان شعور الرّفاه يضطهده، إنّه يحصّله بالتّسول، بالبكاء، يحصّله بالتّخلي عن أشياء أخرى أهمّ.

لبرلينيَّته، ولماكس، ولأصدقائه، ولوالديه، يشكو فرانتس الضّجيج المتواصلَ سنواتٍ. «غرفتي هي المقرّ الرّئيس للشقّة بأكملها. أسمع الأبواب تصفق، وأختي، فالي، تسأل، صائحةً عبر

(١) هذا المشط، وهو الشيء الوحيد الذي بقي من متاع كافكا، محفوظٌ في إسرائيل في مستوطنة عين شرود، وكانت دورا، خطيبته الرّابعة، هي من أهداه إليهم. (المؤلّفة)

الرّدهة، كأنّما في شارعٍ باريسيّ، عمّا إذا كانت قبّعةُ أبي قد نُظّفت جيّداً؛ في الغرفتين المتجاورتين يرتفعُ الحديث عالياً، أصواتُ النّساء من الشّمال، وأصواتُ الرّجالِ من اليمين. ينتابني الانطباع بأنّ هؤلاء النّاس مخلوقاتٌ وحشيّة، زنوجٌ لا شيءَ يستطيع أن يبقيهم هادئين، ولا يعرفون ماذا يقولون، فليسوا يتكلّمون إلا ليجعلوا الهواء يتحرّك ويتابعونَ بأعينهم الكلمات التي ينطقونها. الغرفة الكبرى ضاجّةٌ بالأصوات، ضجيج لعبة الورق، ثمّ، لاحقاً، المحادثة العادية التي يديرها أبي، بصخبٍ وإن لم يكن بشكلٍ متّصل».

في الشّارع، تطلق السيّاراتُ ضجيجاً فظيعاً. ضوضاء وحشيّة. فرانتس مضطرٌ إلى أن يسدّ أذنيه بكريّات شمع. «ما أقسى أن يسدّ المرء أذنيه قيدَ حياتِه»!.

يقدّم لها عائلته بإيجازٍ. بدءاً بأخواته: لديه ثلاث، إحداهما، إيلي، متزوّجة؛ الثانية، فالي، خُطبت لتوّها؛ وأوتلا، أصغرهنّ، هي الأحبُّ إلى قلبه. إنّها نقيّةٌ، صادقة، أمينة، مزيجٌ من التّواضع والفخر، من الإخلاص والاستقلال، من الخجل والشّجاعة، وكلّ ذلك، بحسب قوله، وفق توازنٍ مثاليّ.

أمّهُ تقضي وقتها في المتجر حيث تساعد زوجها؛ فرانتس لا يراها إلا قليلاً، في وقت متأخّر من المساء، حين تعود منهكةً بعد يومٍ من العمل المضني. يقول لفيليس: «أمّي، هي الأَمَةُ العاشقةُ لأبي، المارد، وأبي هو الطّاغية العاشق لأمّي، إنّ التّوافق بينهما مثاليّ».

وإذ يتحدّث عن أمّه، يكتشف أنّه لم يمنحها أبداً من الحبّ، ما

تستحقّه، وما هو قادرٌ عليه، وذلك فقط بسبب اللّغة الألمانية. كتبَ: «إنّ الأمّ اليهوديّة ليست *Mutter*، هذه الطّريقة في مناداتها تجعلها غريبةً، وشيئاً ما مضحكة؛ إنّ الكلمة *Mutter* هي كلمةٌ ألمانية على وجه التّخصيص، إنّ فيها من البرود قدْرَ ما فيها من البهاء المسيحيَّين».

ذاتَ مساءٍ، أعلم فيليس بأنّ أخته قد رُزقت طفلها الأوّلَ: عادت أمّه في الواحدة صباحاً تعلمُهم بميلاد طفلٍ ولد، أخذ والده يتجوّل في الشقّة بقميص النّوم، فتح كلّ الأبواب، أيقظ ولدَه، بناته، أيقظ الخادمة، وأعلن عليهم الميلادَ بطريقةٍ كانت لتدفعهم إلى الاعتقاد في أنّ الطّفل لم يأتِ إلى العالم من فوره، وإنّما قد أكمل حياةً مليئةً بالإنجازات وحان وقتُ تشييعه.

قال: «لم أشعر بأدنى عاطفةٍ تجاه هذا القادم الجديد، وإنّما شعرت فقط بالحسد، حسدٌ ضَارٍ، لأنّي لن أنجبَ أبداً أطفالاً».

هل انزعجت فيليس من هذا التنبيه؟

في رسائله جميعها ظلَّ فرانتس يُخضعُها لاستنطاقٍ لحوحٍ: في أيّ ساعةٍ تصلين إلى العمل؟ ماذا تتناولين في الفطور؟ على أيّ منظرٍ تطلُّ نافذتُك؟ ماذا تلبسين؟ أخبريني بأسماء أصدقائك وصديقاتك. كيف الطّقس؟ أيّ عرضٍ شاهدتيه؟ وفي أيّ مقعدٍ جلستِ؟ كيف تقضين أيّام آحادك؟ أيّ كتب تقرئين؟ ما هو هذا التّانغو الذي ترقصينه، أهو رقصةٌ مكسيكية؟ كيف تستطيعين إملاء نصٍّ على فتاتين في وقتٍ واحدٍ؟ مع أيّ زميلة رجعتِ ركضاً يوم الثلاثين من الشّهر؟ لمَ لمْ تتنزّهي طيلة النّهار؟

قال لها: في رأسي من الأسئلة قَدْرَ ما في مَرجٍ من ذُبابٍ.

نهماً، كأنّما يتغذّى عليها، ابتزَّ منها وعداً بأن تكتب إليه كلّ يوم: «اكتبي إليّ على الفور رسالةً جديدة. أجيبي بدقّة عن أسئلتي كلّها، أحتاج أجوبةً تُضاهي الثّعابينَ دهاءً وسرعةً. إلى اللّقاء، وفكّري في أن تتّخذي كتاب يومياتٍ صغيراً. أنا، ينبغي أن أكتب إليك، وإلاّ قتلني الحزنُ».

وصدىً لذلك في يومياته، كتبَ: «أن يجد المرءُ بجانبه من يفهمه، امرأةً على سبيل المثال، معناهُ أن يكون مسنوداً من كلّ جانبٍ، أن يكون الرّبُ معه».

ما إن حلّت أوّل أيامِ نوفمبر/ تشرين الأوّل، أي لم يمضِ على بداية تراسلهما أكثر من شهرين، حتّى بدأ صوتُ الشّكوى يرتفع ويتعاظمُ: ماذا فعلتُ لكي تعذّبيني على هذا النّحو؟ مرّةً أخرى لم تصلني اليومَ رسالةٌ، لا في ساعة التّوزيع الأولى ولا في الثانية. لشدّ ما تعذّبينني! والحالُ أنّ كلمة واحدةً بخطّ يديك بوسعها أن تجعلني سعيداً. لا [أطلب] أكثر من سطرين: صباح الخير، مظروفٌ، بطاقةٌ، أرجوكِ. أرسلت إليك منذ يوم الجمعة أربع عشرةَ أو خمس عشرةَ رسالةً. جنونٌ.

وحين مزّقه الألم، أرسل إليها برقيةً مستعجلةً، فردّت عليها بثلاث كلماتٍ هدّأت من روعه بضع ساعاتٍ. نادراً ما يلجأ إلى الهاتف، ذاك أنّ الانتظارَ خافقَ القلب أن يتّصل الخطُّ، والكلامَ في حضرة أشخاصٍ آخرين، كلّ ذلك يجعله يضطرب، يتمتم، ولا

يسمع شيئاً. رماه أحد زملائه مقهقهاً بهذه العبارة: «بدلاً من وضع عينيك على سماعة الهاتف، أَوْلى لك أن تضع أذنك!».

قطع فرانتس الاتّصال وفرّ كأنّما ضُبط متلبّساً بجُرمٍ.

وما لبث أن ناشد فيليس أن تضع حداً لتراسلهما، إذ لم يعد يتحمّل ما يقاسيه من عذاباتٍ: «إذا ما أردت مواصلةَ حياتي، فينبغي أن أقطع مع انتظارِ أخبارك عبثاً. لا تكتبي إليّ مرّةً أخرى».

هل وصلتُه رسالةٌ في اليوم التالي؟ أخذه النّدمُ والحسرة؛ توسّل إلى فيليس أن تغفر له مضايقتَها. «أمسموحٌ لي أن أقبّلك؟ أقبّلك على هذه الورقة البائسة؟ سواء أن أفتح النّافذة وأقبّل هواء اللّيل. ستكتبين إليّ مرّةً أخرى، أليس كذلك؟».

أرسل إليها وروداً بريئةً، كي يمحوَ كلماته المذنبة.

ثمّ طلب إليها أن تكاتبه مرّة فقط في الأسبوع، يوم السّبت، لم يعد يتحمّل رسائلها اليوميّة، ليس بمقدوره تحمّلها. ثلاثة أيّامٍ بعد ذلك، توسّل إليها أن تكاتبه كلّ يومٍ، أكثر فأكثر.

صارا يتبادلان صورهما. أوّل الصّور التي توصّلت بها فيليس قتلتها ضحكاً: فرانتس في سنّ الخامسة. في لباس بناتٍ، ينظرُ إليها نظرةً شرّيرةً. ثمّ أياماً بعد ذلك أرسل إليها صورة طفلتين رضيعتين عاريتين: أُختيه. عبثاً كان يرجو أن ترسل إليه فيليس صورتها في نفس السنّ. وانتهى إلى أن أرسل إليها صورتَه، صورةً التقطها أمام باب بيته: شابٌّ متأنّق، يضع ربطة عنقٍ، ويرتدي معطفاً غامق اللّون فوق بذلة رمادية، ويعتمر لبدة تظلّلُ حواشيها جوانِبَهُ. ولا تُرى في

الصورة عيونُه. ومع ذلك لا تستطيع فيليس أن تحيد ببصرها عن تلك النّظرة المحدّقة بها. سروالٌ ضيّقٌ، طيّاتُه لا تشوبها شائبة، يشفُّ عن نحول القدمين؛ حذاءٌ برّاقٌ، مستدير الرأسِ، متينٌ وجديد. يداه مشبوكتان أمام بطنه. أطّرت فيليس هذا البورتريه، ثمّ وضعته على منضدة سريرها. فصارت تلكم هي الصّورة التي تنامُ على مرآها كلّ ليلةٍ.

أمّا هو، الهائم في تأمّل صور برلينيّته، فقد صار إلى مطالبتها بالمزيد فالمزيد. قال لها: «إنّ وجهاً لا يمكنُ أن يُدركَ إلا عبر ألف صورة». يريد أيضاً صوراً لأخواتِها، وخالتها، وابنة أختِها، وصديقاتها. وما إن استلم الصور حتّى فتح رشاش الأسئلة: أين التُقطت الصوَر، من الذي التقطها، في أيّ ساعةٍ، ما الذي يوجد حولَ المنظر، وفيما وراءه؟ ما يقع خارج إطار الصورة يهمّه أكثر ممّا يهمّه ما يراه فيها. «إنّ الصور جميلة، لا أستغني عنها، لكنّها في الآن نفسه مصدرُ عذابٍ، لأنّك لا تعطين أبداً ما يكفي من التّفاصيل».

بعد لقاءاتهما الأولى، سيكفّ عن مطالبتها بالصور؛ لقد رآها بشخصها بما يكفي لكي تصير الصور بلا فائدةٍ تُذكر. لم يعد يريد أن يرى الصورَ: فيليس من دون هالةٍ؛ إنّها تسقط في الابتذال. يوضّح: «أنا، غصتُ بنظري في وجهك الحقيقيّ، وجهك الإنسانيّ، بما ينطوي عليه من عيوبٍ ضروريّة، وضِعتُ فيه. فكيف أقدرُ أن أخرج منه، لألفي نفسي إزاء هذه الصور البسيطة؟».

يشتكي من المكتب، هوّةِ البؤس، موضع الرّوتين الكئيب

الذي ينتزع قطعةً من لحمه. يشتكي من مصنع الأميانت (الحرير الصّخري) الذي اشتراه والده بشراكة مع صهره، ويشترط أن يكون ابنه هو من يتولّى إدارته بدلاً من أن ينفق وقته في تسجيل تفاهاتٍ. يشتكي من كلّ شيءٍ يحول دونَه والكتابةَ. «قوامُ حياتي كان دوماً، وما يزالُ، هو الكتابة، وفي الغالب الأعمّ مجرّد محاولاتٍ فاشلة. لكنّي حين لا أكتب، أتهاوى أرضاً، أصيرُ غير صالحٍ إلا للكنس». يضيفُ هذه الملاحظة التي ستدشّن سلسلةً طويلةً بعدها: «لأنّ قوايَ محدودةٌ جداً، فقد عقدتُ العزم على أن أتقشّف في كلّ المجالات، حتّى أحفظ من قوايَ ما يكفي لما أراه هدفي الأساس. إنّ ليالٍ لن تكفي قطُّ لهذا النّشاط (الشغل) المثيرِ أقصى درجات الإثارة».

لكنّه، حين التقى فيليس في شهر غشت/ آب، كان قد أنفق شهوراً من دون أيّ تقدّمٍ، شهوراً لم يفعل فيها إلا الاستلقاء متكاسلاً على أريكته. حتّى أنّه انصرف عن كتابة **يومياته**. بالكاد كان يدوّن جملةً، هنا أو هناك: «يدي اليسرى تعانقُ أصابعَ يدي اليمنى شفقةً. علاقتي بنفسي شهدت بروداً، لأنّي ظللت مدّة كبيرة لا أكتب».

ثمّ ها قد حلّت ليلةُ الثاني والعشرين إلى الثالث والعشرين من سبتمبر/ أيلول، أي يومين بعد أن أرسل رسالته الأولى إلى برلين، وها قد عادت الموجةُ تجرفُه من جديد. كتبَ قصّة **الحكم** دفعةً واحدةً، من العاشرة مساءً إلى السّادسة صباحاً. وحين وضع اليراع، بزغ النّهار؛ ولفرط فرحته، سيأخذ ما يكفي من الوقت لكي يدوّن في **يومياته** بالتّفصيل انطباعاته، وبيان الانتصار التالي: «كنت

أتقدّم مخترقاً المياه. ليس بوسعنا أن نكتب إلا على هذا النّحو، بهذه الاستمرارية، بانفتاحٍ كليّ للرّوح والجسد. كلّ شيء يمكن أن يُقالَ، كلّ الأفكار مهما بلغت درجة غرابتها».

وبينما يتمطّى، عبرت الرّدهةَ الخادمةُ روزينكا، عيناها منتفختان من أثر النّوم. فأشهدها على إنجازه:

- لقد واصلت الاشتغال حتّى اللّحظة!

ثمّ، على طريقة عدّاءٍ يلفُّ المضمارَ ليبتهج بتصفيق الجماهير، أطفأ مصباحه ومضى يقرع باب غرفة شقيقاته.

هذه القصّة، قصّة الحكم، ستُفيض الدّمعَ من عينيه، في اليوم التالي، وهو يقرؤها على أصدقائه عند أوسكار باوم. هذه القصّة التي ظلّ «راضياً» عنها حتّى لحظة وفاته، في حين حكم بالحرق على ما تبقى من كتابته، هذه القصّة يدين بها إلى فيليس.

وإلى الآنسة فيليس ب، أهدى النّصَ. إلى الشّابة التي لم يقابلها إلا مساءً واحداً، وبالكاد ساعةً من الزّمن[1].

(١) أوسكار باوم، على الرّغم من أنّه فقد البصر بسبب شجارٍ بين تلاميذَ، إلا أنّه كان عازف بيانو ممتازاً، وشاعراً وكاتباً. توفي في براغ، سنة ١٩٤٠، أثناء الاحتلال. (المؤلّفة)

برلين، سبعة أشهر بعد ذلك

من سبتمبر/ أيلول إلى مارس/ آذار، واصل فرانتس وفيليس التراسل من غير توقّف أو كبيرِ تغيير. اللهم إلاّ حقيقةً أساسيةً: استمرّ فرانتس في الكتابة، بنفس الوتيرة المحمومة. تمخّض قلمُه عن التحوّل في مدّة عشرين يوماً (من ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني إلى ٧ ديسمبر/ كانون الأوّل) «مثل خلاصٍ فعليّ معفّرٍ بالقذارة والمخاط». تلك الرّواية[١]، التي عدّها إليا كانيتي أهّم عملٍ أدبّي في القرن العشرين، إلى فيليس أرجعَ فرانتس... أبوَّتها.

يكتب حين يحلّ اللّيل. حين يكون والداه، اللذان يسكن عندهما، قد فرغا من حفلات لعب الورق الصّاخبة، ويكون جميع من في الشقّة قد خلد إلى النّوم. يغلق على نفسه في غرفته، التي وصفها في يومياته بالتّفصيل، كأنّما يصوّرها بكاميرا. غرفةٌ ضيّقة، مؤثّثة بأريكة، وسرير مغطّى بلحافٍ أحمر. على مكتبه تكدّس ألفُ شيءٍ، مرآةُ حلاقة ذقنٍ، فرشاةُ ملابس، حافظة نقودٍ مفتوحة،

(١) التصنيفات والتجنيس الأدبي لأعمال كافكا من عند المؤلّفة.

مفتاحٌ يتدلى من سلسلة مفاتيحَ، ربطةُ عنقٍ نصفُ معقودَةٍ حول ياقةٍ مصطَنَعة، أقلام رصاص، علبة أعواد ثقابٍ فارغة، ضاغطة أوراق، مسطرة، الكثير من أزرار الياقة المصطنعة، شفراتُ موسى حلاقة، مشابك ربطات عنق. ومن الدّرج المفتوح تطلُّ قصاصات أوراق، جرائدُ قديمة، رسائل شبه ممزّقةٍ.

على حوائط غرفته، علّق لوحتين يتأمّلهما ما إن يرفع رأسَه: لوحةٌ تقليدٌ لعمل **الفلاّح** للرّسام هانس توما، ولوحةٌ قالبٌ لميناده[1] من غير رأس؛ مرتديةً فستاناً بطيّاتٍ، وتبرزُ فخذاً كفخذ ثور.

حين تتصلّبُ قدما فرانتس، يقوم من مقعده ويقف أمام نافذته المطلّة على الشّارع. رأسه مائلٌ إلى الخلف، وخدّه مستندٌ إلى القفل الإسباني، يتأمّل النّهر الذي يجري أمامه، الضّفاف التي بدأ عشبُها يصفرُّ، أو يخضرُّ، السماء التي تغيّر لونها، وموكب السيّارات الذي يعيدُه إلى مجتمع النّاس.

إنّ قارئنا النّهم يعيش محاطاً بالكتب. ونعرف مدى تعلّقه بمكتبته: ذات مساءٍ دخلت أمّه غرفته، في غيابه، وأخذت منها رواية لأوسكار باوم، رواية كان هو نفسه يريد أن يعيرها لأخته إيلي، فتملّكته سورةُ غضبٍ حين علم بالأمر. بلغ به الغضب تقريباً حدَّ أن يشتم أمّه:

- اتركي لي كتبي! فأنا لا أملك غيرها.

---

(١) رفيقات الإله ديونيزوس المخلصات في الميتولوجيا اليونانية.

يقرأ سيراً ذاتية، ومذكّراتٍ، وروياتٍ، ودراسات، ودواوين شعرية؛ وتلك النّصوص التي تثير حماسَته يعيد قراءتها، مرّةً، ومرّتين، وثلاثاً، وأحياناً أكثر. يسألُ فيليس عن قراءاتها، وإذ تُحبطه اختياراتها، يوصيها بقراءة فلوبير (يحلمُ بأن يقرأ على الملأ رواية التربية العاطفية[1]، دفعةً واحدة، آخذاً في قراءتها ما يكفي من أيامٍ ولياٍل، وبالفرنسية طبعاً)، دوستويفسكي، وستريندبرغ، وغريلبارتسر، وكروبوتكين، وغوغول، وكلايست، وديكنز، وفارنسيس جام، وسيرة برليوز الذاتية... إنّ اللائحة تكاد لا تنتهي. «لا ينبغي أن نقرأ إلا الكتب التي تلدغنا وتلسعنا؛ على الكتب أن تكون بمثابة الفأس الذي يكسر بحر الجليد فينا».

يسجّلُ طرفة لا يجرؤ على البوح بها لفيليس: محرّمٌ التّفكيرُ بالتوراة في المرحاض، لذا بوسع المرء أن يقرأ فيه كتباً دنيويّة. شخصٌ يدعى ك. كان يملك من المعارف الدنيويّة الكثيرَ، وقد تعلّمها كلّها في المراحيض. يضيفُ: ما من تفصيلٍ تافهٍ، ما دامَ صحيحاً.

يوم ١١ ديسمبر/ كانون الأوّل، أرسل إلى فيليس مجموعته، تأمّل، وقد صدرت لتوها. وفي الأيام التالية ظلّ ينتظرُ محموماً تعليقها؛ على عجلٍ يمسح ببصره على الرّسائل التي تصله تقريباً كلّ صباحٍ. لا شيء، ولا سطراً عن كتابه. تمرُّ الأيامُ. ولا شيء. ويوم ١٨ ديسمبر/ كانون الأوّل ضمّن رسالته هذه الكلمات على سبيل التذكير: «أنا سعيدٌ لمعرفتي أنّ كتابي بين يديك». ودائماً لا شيء.

---

(١) لم يحدث لكافكا أن سافر من دون أن يحمل رواية فلوبير هذه في حقيبته. (المؤلّفة)

فيليس تحدّثه في كلّ شيءٍ إلا كتابه. فكان يقول في نفسه إنّها لا تهتمّ بأفضل ما فيَّ. هذه اللامبالاة من جانبها، أهانته، عذّبته. ويوم ٢٣ ديسمبر/ كانون الأوّل، سيكتب بأسلوبٍ لا أكثرَ مباشرةً منه:

«لم تقولي بعد شيئاً عن كتابي».

لاذت فيليس بالصّمت، لم يثرها الفضول لفتح كتابه، هي التي تقرأ كثيراً، وتبدي حماسةً لعشرات الكتب. في رسائلها يشهد فرانتس حشداً من الكتّاب الذين يودُّ لو يعاركهم جميعاً، جميعاً. يومَ انهالت بالمديح على شنتسلر، أصابَه السّعارُ. كتب يردّ عليها في قلب اللّيل. نبرتُه كانت قاتلة:

«لا أحبّه البتّة، ولا أقدّره بالمرّة. ليس بالإمكان أن نُنزلَه قدْراً أحطَّ ممّا هو فيه».

الأحد ٢٩ ديسمبر/ كانون الأوّل، انفجر:

«لمَ لا تقولين في كلمتين إنّ كتابي لم يُعجبك؟ سأتفهّم كونك لا تعرفين ماذا تصنعين به، إذ سيبقى قائماً أملُ أن يجذب اهتمامك يوماً ما، حكمٌ متردّدٌ من جانبك كان ليبدوَ لي طبيعياً، لكنّك لم تقولي أيّ شيء، مرّتين ألمحت إلى الموضوع، لكنّك لم تقولي إلى الآن أيّ شيء؛ كتابي لا يعجبك لذاته، لكنّك لابد أن تحبّيه من حيثُ هو كتابي أنا، وفي هذه الحال سينتهي بك المطاف قطعاً إلى قراءته!».

ما أسوأه يومَ أحدٍ قضاهُ، وما أحزَنه!

مُنذ تلك المكاشفة المهينة، كفَّ عن الحديث معها في شأن كتابته، أو ما عاد يثير الأمر إلا قليلاً. فيما سبق، كان يرفع إليها تقريراً يومياً مفصّلاً، وأميناً، ومفعماً بالحماسة والفكاهة. كان يرجو شيئاً من المديح، قليلاً من الإعجاب. ولم يلقَ إلا صمتاً حارقاً.

كان يكتب إليها كلّ يومٍ، لكن لم يستشفّ في الأفق أيّ لقاءٍ. ضاع بين أمواج الحسرة:

«لقد طِرتِ مسرعةً في المصعد، ذاك المساء الذي شهد لقاءنا، بدلاً من أن تهمسي في أذني، غير حافلةٍ بالسيّد برود: تعالَ معي إلى برلين، اترك خلفك كلّ شيء وتعالَ». وأحيانا يتّهم نفسه بالتّقاعس: «لأيّ سبب، وأنا المجنون، أمكث هنا في مكتبي أو ببيتي، بدلاً من أن أرتميَ في أوّل قطارٍ، بعينين مغمضتين، فلا أفتحهما إلا حين أصير بقربك؟».

بطلبٍ من فيليس نفسها بلا شكّ، أفصح منذ أيام ديسمبر/ كانون الأوّل الأولى، أنّه قد يقصد برلين أثناء احتفالات رأس السّنة. لكنّ لا شيءَ أقّل يقيناً من ذلك. لقد صار سفره أشدّ مدعاةً إلى الشكّ، لكنّه يحتجُّ لنفسه: أنتِ أيضاً يا فيليس ستكون لديك على الأرجح زياراتٌ تحول بيني وبين برلين.

إبّان شهر يناير/ كانون الثاني، لم تعد مسألة اللّقاء مطروحةً. وفي الخامس من فبراير/ شباط صار يتكلّم بالتباس: «هل ستكون لديك أثناء عيد الفصح، الأحد أو الاثنين، ساعةٌ تخصّصينها لي، وإن كانت لديك، هل توافقين على أن آتي؟ لن أفعل في برلين أيّ شيء،

ما عدا انتظار تلك السّاعة، وحتّى إن كانت فقط ثلاثة أرباع ساعةٍ، فسيكون أيضاً أمراً جيّداً بالنّسبة إليّ. الأساسيّ إذن أن أعرفَ، هل توافقين على قدومي؟».

يومين بعد ذلك:

«عزيزتي، لا أريد أن أقابل أفراد عائلتك، لا أجرؤ على ذلك. فكّري إذن ملياً يا فيليس، لأنّ أقاربك، أباك، أخاك وأختك القاطنة بدريسدن سيكونون بالتّأكيد في المنزل، باختصار، سأتفهّم الأمر حقاً إن لم يكن لديك وقتٌ».

أنحن هنا أمام خطابِ عاشقٍ؟ أم أنّها ليست إلا طريقةً مقنّعةً في أن يتفادى لقاءً ما عاد يرغب فيه؟ يعترف:

«أنت محقّةٌ يا فيليس، مؤخّراً يعرض لي كثيراً أن أجبرَ نفسي على الكتابة إليك».

سببُ هذا التغيير؟

«روايتي الأمريكية[1]. القصّة التي أكتبها تجري أحداثها حصراً في أمريكا. إنّها أوّل عملٍ طويلٍ نسبياً أكتبه، بعد خمس عشرة سنةً شكّلت لي عذاباً فظيعاً. ينبغي أن أنهيه؛ وبمباركةٍ منك، فإنّ تلك اللّحظات القليلة التي كنت لأنفقها في كتابة رسائل خرقاء، فظيعة، ناقصة، وقحة، وخطيرة، سوف أصرفها إلى

(١) استمدّ كافكا تفاصيل الحياة اليومية للأمريكيين، من السيرة الذاتية لبنجمان فرانكلان، التي قرأها بمتعةٍ بالغةٍ، وأوصى بقراءتها والدَه. (المؤلّفة)

الاشتغال على هذا العمل الذي بلغ كلّ شيءٍ فيه حالة النّضج واتّخذ سبيلَه. لكن، لا تتركيني، يا فيليس، لوحدتي».

بين برلين ونيويورك، بين سعادة أن يرى المرأة التي يحبّها، وسعادة أن يُخرج إلى العالم بطلاً، اسمه كارل روسمان، ويجعله يعيش في مدينة هائجة، مدينة تقع في الطّرف الآخر من الكوكب (هناك حيث يعلم علم اليقين أنّه لن يذهبَ أبداً)، لم يتردّد لحظةً. لقد مدّتهُ فيليس بالقوّة، بالحماس اللاّزم. لقد أشعلت الشّرارة، عاد المحرّك المعطّلُ إلى الاشتغال. لقد أبدعت في أداء المهمّة التي حدّدها لها مساء لقائهما. لذلك يحبّها؛ أو بالأحرى، هو يحتاج الشّغف الذي يحسّه تجاهها.

شغف بلا حبّ.

في غمرة نشوته بالكتابة، يكتب إليها ممازحاً:

«عزيزتي، أتوسّل إليك بذراعين مرفوعتين إلى السّماء، لا تغاري؛ إن لاحظ شخوص روايتي غيرتك، فسوف يغادرونني فجأةً بلا استئذان. وفكّري قليلاً، إن غادروني، فسأكون مضطراً إلى أن ألحق بهم حتّى الجحيم، هناك حيث أرضُهم. كلاّ، لن أترك روايتي حتّى في حضورك. مؤكّد أنّني لن أفعل ذلك».

أياماً بعد ذلك، كتب متهلّلاً:

«عزيزتي، ابكِ، فقد حانت لحظة البكاء! بطلُ قصّتي الصّغيرة مات، منذ لحظة. وإن كان سيريحك الأمرُ، فلتعلمي أنّه قد ماتَ مطمئناً بما يكفي، ومتصالحاً مع الجميع».

فجأةً، في شهر مارس/ آذار، انهار فرانتس. يشتغل فوق طاقته: المكتب، مصنع الأميانت، قراءاته، مراسلاته مع فيليس، وماكس، وأوسكار باوم، فيليكس فيلتش، وإرنست فايس، ومع أخواته؛ كلّ ذلك لم يكن يترك له برهةً يلتقط فيها أنفاسَه. أرقه يتضاعفُ، صحته تتهالك. وروايته لا تراوح مكانها.

إلى ماكس باحَ بالشّكوك التي تهاجمه بضراوة. إلا أنّ من كان دوماً صديقَه، قد تزوّج إلزه؛ وحين يتزوّجُ الصّديقُ لا يظلُّ صديقاً. فرانتس يعاني من أنّه لم يعد يرى ماكس كلّ مساءٍ، ولم يعد يسافر معه.

أخته الثانية، فالي، قد تزوّجت هي أيضاً، يوم ١٢ يناير. صار يحسّ نفسه وحيداً أكثر فأكثر. تلاحقُه الأناثيما[1] التلمودية: إنّ رجلاً بلا زوجةٍ، ليس مخلوقاً بشرياً.

وحدها فيليس مربطُ سفينته. فإن أراد أن يظلّ مربوطاً إليها، فلا يسعه أن يكتفيَ بالرّسائل، لا يسعه أن يتهرّبَ. في مارس أصبح السفر إلى برلين ضرورةً.

زيارة فرانتس الأولى تلك إلى برلين، بعد أكثر من سبعة أشهر على لقائهما الأوّل، تكفي أسطرٌ معدودةٌ لسرد وقائعها. زيارة خاطفة أعلن عنها بدايةً بوصفها إشكاليةً، وألغاها، فعاد يرجّحها: «لم يحسم الأمر بعد». ثمّ أكّدها الجمعةَ مساءً برسالةٍ مستعجلة.

---

(١) لغوياً تفيد اللعنة، وهي نوعٌ من الحكم الكنسّي المتمثّل في الإخراج من الملّة.

السّبت ٢٢ مارس/ آذار ١٩١٣، ارتمى في القطارِ بعينين مغمضتين. وحين فتحهما ببرلين، كانت السّاعة العاشرة والنّصف، وفيليس لا تنتظره على الرّصيف. سكرانَ من التّعب والسّفر، على عادته، في الدّرجة الثالثة، قصدَ فندق أسكانيشر هوف. لا كلمة ترحيب في انتظاره. قلقاً من خاطرة أن يرى في الواقع المرأة التي يراسلها منذ سبعةِ أشهرٍ، جفاهُ النّومُ.

ما إن دقّت السّاعة الثامنة من اليوم التالي حتّى أرسل إليها رسالةً: «ما الذي حدث يا فيليس؟ ها أنا ذا في برلين، وعليّ أن أسافر مساء اليوم في الرّابعة أو الخامسة، السّاعاتُ تمرُّ، ولا خبر منك. أرجوك أرسلي رسالةً مع هذا الولَد». عاد إليه الدرّاجُ حاملاً هذه الكلمات: «سأهاتفك في ربع ساعةٍ».

كانت السّاعة تقارب الحادية عشرة حين التقيا متأثّرين ومتضايقين. ضمّها إليه، وقبّلها على خدّها قبلةً مسترقة. ذهبا يتنزّهان في حديقة تيرغارتن. الجوّ لطيفٌ، والأشجار بالكاد بدأت تبرعم. فيليس يجب أن تحضر منتصف اليوم مراسيمَ دفنٍ. لا تريد أن تتأخّر، لذا ركضا كمجنونين، وكانت تلك أجمل لحظةٍ في لقائهما، ضحكا، كانت حركاتهما أشدّ حريّةً، وكانا يمسكان بعضهما بيد بعض. لمّا وصلا إلى المقبرة، افترقا. رأى فرانتس الشّابة تختفي بين رجلين لا يعرفهما وسط الموكب الضاجّ. في تلك اللّحظة لم يخطر بباله أن يلحق بها، أن يظلّ بقربها. بالكاد أسعفهما الوقتُ في أن يتّفقا على موعدٍ هاتفي في الثالثة مساءً، وأن تقطع له فيليس وعداً: سوف ترافقه إلى المحطّة. تغدّى، وزار صديقاً حميماً له، الكاتب والجرّاح

إرنست فايس؛ وعاد إلى الفندق بمدّة قبل السّاعة الثالثة. بدأ الانتظار. جالساً ببهو الفندق، كان يتابع المطر يتساقطُ؛ مطرٌ رقيقٌ، باردٌ، سيتواصلُ هطوله حتّى المساء. خطر بباله أن يخرج، أن يشتري جريدةً، جريدةَ *Berliner Tageblatt*. لكنّه خشي أن يجد فيها خبر حادثٍ يصدمه. لم تُشفَ نفسُه بعد من قراءته تقرير محاكمةٍ: امرأةٌ تدعى ماري أبراهام، في الثالثة والعشرين من عمرها، دفعها الجوعُ والبؤس إلى أن تخنق ابنتها باربارا، البالغة من العمر تسعة أشهرٍ، بواسطة ربطة العنق الرّجالية التي كانت تتّخذها حزاماً لجواربها. صورة المرأة تلك، ظلّت تلاحقه، وهو الذي لا يبكي البتّة قد أعوَل أمام تلك الأسطر الأربعة.

بمقدوره أن يذهب إلى مقهى، يقرأ، يكتب. لكن كلاّ، ظلّ مسمّراً على مقعده بجانب الهاتف، مثل حارسٍ في مخفرٍ. برلين مدينةٌ يعرفها؛ يودّ لو يعيش فيها، إن واتته القوّة للإفلات من مخالب براغ وعائلته. سنةَ ١٩١٠ كان قد حضر عرضاً لمسرحية هاملت قدّمَه باسرمان. استعاد صورتَه وحيداً على الخشبة. يتذّكر صوته شبه المتجمّد الذي كانت تهتزُّ له القاعة. يتصوّرُ الأسباب التي جعلت فناناً، على ذاك القدر العظيم من الموهبة، يقبل بأن يؤدّي دوراً في فيلم **الآخر**، فيلم متواضع فنياً، كان قد شاهده مع ماكس.

لربّما غفا لحظاتٍ، ولربّما أتى كارل روسمان[1] يجلس بقربه، أو لربّما كان يحوم حولَه على شاكلة طائرٍ طُرد من عشّه.

---

(١) بطل رواية أمريكا.

في الرّابعة ركض إلى المحطّة، جاس بعينيه الرّصيف في منحنيَيْه. انطلق القطار، وفيليس لم تأتِ. قال في نفسه: لعلّ المطّر الذي لم يكفّ عن الهطول قد منعها من المجيء؛ لكن ما كان لأحدٍ أن يمنعها من مهاتفتي.

سافر ستّ عشرة ساعةً كي يقابلها خاطفاً، وما جرُؤ على أن يقول لها ما يتعيّن عليه قوله. مرّاتٍ عديدة ألمح لها به في رسائله. لكنّ فيليس لم تشأ أن تفهم، لم تشأ أن تخمّنَ. وحين صار أمامها ظلّ أخرسَ.

بعد عودته إلى براغ ظلّ، أيّاماً، متردّداً، غير قادر على أن يفصح عن «اعترافه العظيم». يوم ٣ أبريل/ نيسان، وجد القوّة ليكتبَ. من دون أن يستعمل أيّ صيغة نداء، ومن غير لفٍ أو دوران، كأنّما يخاطبُ نفسَه وليس فيليس، وكأنّما يحتاج أن يخلّص نفسه من الكلمات التي تخنقه:

«إنّ ما يخيفني حقاً -ولا يمكن أن نقول أو نسمع أسوأ- هو أنّي لن أستطيع أبداً امتلاكك. في أفضل الأحوال ينبغي أن أقنع، ككلبٍ وفيّ، بتقبيل يدك التي تتركينها لي شاردةً، ولن يكون ذاك فعل حبٍّ، وإنّما فقط علامةً على يأسِ الحيوان المحكوم بالخرس والبُعد الأبديّ. سوف أحسّ بقربي نفَسَ جسدك الحيَّ، مع بقائي بعيداً عنك أكثر ممّا أنا بعيدٌ هذه اللّحظة في هذه الغرفة. سأظلُّ منفياً عنك إلى الأبد».

وقّع، ثمّ أعاد قراءة ما حسبَه حُكمَ إعدامه.

وكان يتهيّأ لأن يدخل في فراشه، فشرع في نزع ملابسه، وإذا بأمّه تطرق البابَ طرقتين خفيفتين:

- هل أستطيع الدّخول؟

ابتسم لها:

- أنت لا تزعجينني.

زيارتها المتأخّرة، وغير المعتادة، بدت مثلَ منعطفٍ في سيرِ الأحداث.

- هل كتبت إلى خالك ألفريد؟

طمأن أمَّه:

- لقد أرسلت الرّسالة أمس.

متشجّعةً باللّطف الذي أبداهُ، اقتربت أمّه منه، وطبعت على جبينه قبلةً، الفعلُ الذي لم يحدث منذ سنواتٍ.

قال فرانتس: «هذا جيّد»، ثمّ مسّ يد أمّه.

أجابته:

- لم أجرؤ قطّ على فعل ذلك، كنت أحسبك لا تحبّه، لكن إن كنت تحبّه، أنا أيضاً أحبُّ كثيراً أن أفعله.

متأثّرةً، انسحبت. وحين أُغلق البابُ، عاد فرانتس إلى الجلوس إلى مكتبه، وأخرج الرّسالة من مظروفها، ثمّ أضاف إليها حاشية. حكى لفيليس دخول أمّه غير المتوقّع، والحوار الذي دار بينهما،

وقُبلتها. أن يتأمّل في قطعةٍ من حياته، في لقطةٍ، كافٍ لأن يغيّر مزاجه، ويعيد إليه حريّته ككاتب.

غداة ذلك، فخوراً بجرأته، كتب إلى ماكس معلنا:

- أمس بعثت إلى برلين باعترافٍ عظيمٍ!

كان الأمرُ حقاً استشهاداً!

ردُّ فعل فيليس؟

«-تبتعد عنّي، في الوقت الذي لم أعد أستطيع فيه الاستغناء عنك.

- أنا، لا تستطيعين الاستغناء عنّي؟».

تهلّل فرانتس، لا سبب يدفعه إلى الاضطراب، فرسالته لم تلقَ الجواب الخليق بها.

تنفّس الصّعداء:

«أنا، يا حبيبتي، أبتعدُ عنك؟ أنا الذي لا أتنفّسُ إلا هواك؟ إنّي أبحث عنك في كلّ مكان؛ وفي الشّارع، أدنى حركات النّاس على اختلافهم، تعيد إليّ صورتك. أنا، أبتعد عنك، أنا الذي أذوي رغبةً فيك؟».

جرؤ على الاعتراف لها بأنّه بينما يغسل يديه، هذا الصّباح، في البهو المظلم، انتابته رغبة عنيفةٌ فيها، لدرجة أنّه اضطرّ إلى أن يقصد النّافذة... ناشداً السّلوى في السّماء الرّمادية.

لا بدّ أنّ هذه الصّورة قد صدمت فيليس: فرانتس مستمنياً أمام الغيوم، ثمّ لا بدّ أن تكون قد تساءلت: هل ينْعَظُ وهو يفكّر فيّ، لمَ يردّد عليّ بإصرار مهينٍ أنّه لن يستطيع أبداً امتلاكي؟

لم تجرؤ أن تسأله. عاجزةٌ هي عن الحديث في، أو حتّى سماع ما يتعلّق، بمسألة الجنس. تربيتها، ومحيطها يحرّمان عليها ذلك. حين ذكر فرانتس، ببيت آل برود، عطلته في يونغبورن، وسط الطّبيعيّين، أحسّت جلدها يقشعرّ: أناسٌ عراةٌ بالكامل، على ما قال، يتجوّلون بين الأشجار، يتمطّون، يركضون، يحكّون أجسادهم، ويفركونها، عراةً جميعهم. وما زالت هذه الصّورة إلى الآن تشعرها بالغثيان. حمداً للرّب أن فرانتس، كما بيّنَ، لم يسبق له أن نزع سراويل السّباحة.

في الأسابيع التالية، كان كلّما زاد تقريعاً لنفسه، زادت فيليس إصراراً على عدم الفهم. ترجّاها:

«لا تغلقي عينيك، لا تستسلمي للأوهام، أنا لن أتغيّر أبداً. حاجتي إلى تراسلٍ متواصلٍ معك لا ينبع من الحبّ، وإنّما من مزاجي التعيس».

أقسمت له أن ليست الشّفقةُ، كما يعتقد، دافعَها إلى مواصلة الكتابة إليه. إنّها مربوطةٌ إليه.

بعدما أعياهما الوضعُ، تحوّلا إلى الحديث في مواضيع أخرى. تحدّثا في توافه الحياة، في الأصدقاء، في الكتب، في الزّمن. وعدته فيليس أن تتلقّى دروساً في السّباحة، فرانتس مستاءٌ من أنها لا تحرز أيّ تقدّمٍ. يسألها:

«تتعلّمين بواسطة قصبة، أم على جهاز؟».

يصف لها جاره الجديد، تشيكيٌّ يؤلّف روايات إيروتيكية، رجلٌ رائعٌ وجديرٌ بأن يُغبَط، له لحيةٌ قصيرةٌ فرنسيّةٌ جداً، طاقية مونتمارترية[1]، وعلى ذراعه عباءةٌ. وفي يومٍ آخر، أخبرها بأنّه قد كسر مرآته الجميلة، مرآة حلاقة الذّقن. استشاط غيظاً. فيليس تؤلمها أسنانها، وفرانتس يشعر بالقلق. في اليوم الذي نزع لها الطّبيب فيه ضرساً، تنغّص فرانتس، ولم ينم ليلته: حالةُ ذهول.

(١) نسبة إلى مونتمارتر بفرنسا.

انتصار الزمنِ وخيبةِ الأمل[1]

«كلّ شيء ما زال حقاً كما كان من قبل، أرجوكَ لا داعي للقلق مجّاناً» كتبت إليه فيليس، وقد أزعجها إلحاحه. إنّ لعبارة «كلّ شيء ما زال كما كان من قبل» رنيناً رائعاً. لكنّ فرانتس مقتنع بالعكس، حتّى حين تنجح فيليس في زعزعة قناعاته الأشدّ رسوخاً. حاول أن يبعدها آملاً في أن يجنّبها آلاماً أكبَر. لكنّه أخفق. إخفاقه أراحه غاية الارتياح – كان ليغرق لو أنّها طلّقته (طلّق هو الفعل الذي يستعمله)[2]، وإنّه يتعذّبُ لأنها لم تفعل. يقاوم ضدّ نوباتِ قلقه ويأسه. يقول ساخراً: «إنّ القوة التي يلزمه أن يبذلها ليبقى حياً، وليحافظ على صوابه، كافية لبناء الأهرام».

لكي يشفى من وهنه العصبيّ (النوراستينيا)، قرّر أخذَ دروسٍ في البَسْتَنَة. هو يعلم أنّ العملَ اليدويَّ يريحه. منذ سنةٍ، أو سنتين، كان قد جرّب النّجارة. ومنها خرج بفائدة عظيمة. أحبَّ كلّ شيءٍ

(١) أوراتوريو من تأليف جورج فريدريك هاندل. (المؤلفة)

(٢) في الأصل تستعمل المؤلّفة لفظ congédié، الذي يعني أقال وأبعد.

في تلك المهنة، رائحة الخشب، لا بل حتّى صوت المنشار. الورشةُ كان يغمرها النّور، والحرفيّون، أناسٌ هادئون، صِلادٌ، منكبّون بتركيزٍ على مهامّهم، قليلو الكلام، طيّبو الصحبة. وللأسف اضطرّ إلى ترك الحرفةِ لضيق وقته.

عصر ذلك اليوم قصَد، للمرّة الأولى، نوسلِه، ضاحية معروفة من ضواحي براغ. وحين نزل من الترامواي، وقف على منازلَ بسيطة تحوطها حدائقُ نباتاتٍ ولا يسوّرها أيّ سياجٍ. كان الفضاء حولَه ضاجّاً بالحركة. أطفالٌ يلعبون بالخارج، يتنازعون الأراجيح الأمريكيّة، والصبايا يغنّين ويرقصن حولَ دوّاراتٍ، يتناهى إلى الأسماع نفيرُ بوقٍ، عمّالٌ يعودون زرافاتٍ من العمل، يثرثرون ويشربون بيرة، قبل أن ينصرفوا إلى تنقية حدائقهم من الأعشاب الضّارة.

كان مزارع الخضراوات ينتظره أمام بستانه، في المكان الذي اتّفقا على اللقاء به. ناوله جاروفاً وبيّن له كيف يستخدمه: أوّلاً وضعية القدمين، منفرجتين قليلاً ومنحنيتين، ثمّ انحناءة الظّهر، أشدّ مرونةً، والرّقبة متصلّبةً جداً.

- اجعل الجاروف رافعةً.

جعل الرّجلُ ينظر إلى كفَي زبونه البيضاوين النّاعمتين؛ إنّه بلا شكٍّ رجلٌ كسول، ولن يتحمّل.

- ينبغي أن تكون الحركات أقصر، وأبطأ، لا تُهلك كليتيك. استعن بقدميك في غرز الجاروف.

لم يكن على ظهر فرانتس إلا قميصُه. الجوُّ باردٌ، ومطرٌ رقيقٌ

بدأ يهطلُ، مطرٌ أبريليٌّ/ نيسانيٌّ متقطّع. لكنّ ذلك لم يثنِه عن مواصلة الانقضاض على تلك الأرض السّميكة وتقليبها. سرعان ما صار ينضح عرقاً، وملأت يديه القروحُ، لكنّه لم يكن يحسُّ إلا تعباً مبهجاً. وقد كتب إلى فيليس في المساء نفسه: «إنّ هذا العمل البليد، الشّريف، النّافع، الصموت، المتوحّد، الطّاهر، ليس خلواً من المعنى بالنّسبة إلى شخصٍ ترك نفسه على الدّوام عرضةً للهجوم والاهتزاز، طيلة حياةٍ قضاها منحنياً على مكتبِ عمل». وحتّى اليوم ما يزال يتردّد في أذنه صدى فرقعة الأرض.

صار عوده أصلبَ قليلاً، وأكثر استقامةً، ممّا عزّز عنده شعورَ الفخر بنفسه.

قال لماكس: «أحسّ نفسي مثل نَمِرةٍ دُجّنَت».

ارتاحت نفسَه أكثرَ لأنّ فيليس لم تبدّله. لقد خشي ذلك كلّ الخشية! ففي زيارةٍ لها إلى عرضٍ محترف بفرنكفورت، التقت بأشخاص كثر، ولم تردّ على أيّ رسالةٍ من رسائله. فتخيّل فرانتس أنّ شاباً قوياً، أنيقاً، سليمَ النّفس ومرحاً قد أخذ مكانَه. عاش جحيم الهجر. فقد صوابَه، وهرع إلى صديقه الطيّب ماكس:

- أرجوك، أُكتُب إلى فيليس، يجب أن أعرف...

كان الخوف من فقدانها يخنقه. وفي اليوم التالي وصلته بضعة أسطُر. عادت مياه الحياة إلى التدفّق.

«أحبّيني قليلاً يا فيليس. هل تشعرين كم أحبّك؟ هل تشعرين؟» قال لها، ناسياً التحذيرات التي ما انفكّ يمطرها بها.

منذ ذلك اليوم صار يطلب، يطالبُ بلقاءٍ ثانٍ في برلين، بمناسبة عيد العنصرة.

«يجب، يجب أن أراك يا فيليس».

قبِل بكلّ شيء. أن أقابل والديك؟ ببيتهما؟ أثناء الحفل الذي يقيمانه بمناسبة خطبة أخيك، فيري؟ موافق. موافق على كلّ شيء.

بل قد صار أصلاً منشغلاً بمعرفة ما ينبغي أن يلبسه أثناء هذه الزّيارة: بذلة سوداء؟ أفضل له لو أتى في بذلة صيفيّة عادية.

«أعليَّ أن أحمل إلى أمّك زهوراً؟ وأيّ نوعٍ من الزّهور؟».

دفقٌ من الأسئلة. كثيراً ما يعود إلى طرق الموضوع الذي تريد فيليس أن تقفل سيرتَه إلى الأبد، يرجوها بإلحاحٍ شديدٍ أن تفكّر ملياً، لدرجة أنّها تقلّلُ من الكتابة إليه. وفي رسائلها القصيرة الموجزة، لا يرى إلا هذه الكلمات: «على عجلٍ»، «مرّةً أخرى على عجلٍ».

«حسبي أن أقرأها، لتؤلمني عيناي».

تجيبُه: إنّك أنت الذي تؤلمني، أنا حزينةٌ والكيلُ طفح.

حزينةٌ والكيلُ طفح. وكيف لا تكون كذلك؟ لقد استنفدَ صبرَها تردّدُ فرانتس، وتناقضه، وتسلّطه، ومتطلّباته، وشكواه.

إذ تعرّفه الشّابةُ على عائلتَها، فإنّها تدفع به في طريق الخطوبة؛ هو يعلم ذلك. لكن حالياً، لا يشغله إلا شاغلٌ واحدٌ: فيليس لم تفكّر بما يكفي، أو لم تفكّر مطلقاً، في الاعتراف الذي كتبه إليها. إنّ تعاملها باستخفافٍ مع اعترافه يستحوذ عليه، ينسفُ مستقبلهما.

ما الذي تنتظره؟ إمّا أن تطرده من حياتِها، وإمّا أن تقبل بحياةٍ مشتركةٍ لا جِماعَ فيها، أن تحرّره من ضرورةٍ يحسُّ بنفسه عاجزاً عنها. حتّى أنّه يقترح ألاّ يعيشا في مدينةٍ واحدة. ومناقشة مقترحه ذاكَ هو الغرضُ الفعليّ من لقائهما الثاني.

وصل إلى برلين يوم الأحد ١١ مايو/ أيار ١٩١٣، في الصّباح الباكر. ورحل منها يوم الاثنين ١٢ من نفس الشّهر مساءً. المناسبة عيدُ العنصرة، والطقس ربيعيّ لطيفٌ. وقد وصل إلى بيت كارل وأنّا باور منتصف الظّهيرة. بركبتين واهنتين عبَر الصالون كي يقابل فيليس. وأثناء عبوره ذاك سرت في جسمه رعشة رعبٍ. رأى في فمِ محبوبته، حين فتحته تحيِّيه، بريقَ ذهبٍ: «بريق ذاك الذّهبِ، في ذاكَ الموضع غير الملائم له تماماً، بريق جهنميٌّ خالص، وذاك البورسلين الرماديّ المصفرّ»، كلّ ذلك أرعبه، فأخفض عينيه، ولم يعد يفكّر في شيءٍ سوى الهرب. وفي تلك اللّحظة بالضّبط عبرَ جسدَهُ يقينٌ قاطعٌ: أبداً لن يستطيعَ تملّك هذه الفتاة.

الصالون غاصٌّ بالنّاس. وإنّ فرانتس في حالٍ من الاضطرابِ بحيث يرى المحيطينَ به عمالقةً، ينظرون إليه متآلفين مع ضآلته. فيليس، شديدة الحبور، تطير كالفراشة بين الضيوف. لكن ما إن تلفي نفسها بجانب فرانتس، حتّى تفقد حماسَها، تشيح عنه بعينيها، تحتملُ على مضض صمته أو ما يطلقه من سخيفِ الكلامِ. بدا لها في حالٍ سيّئة.

قالت: تبدو مرهقاً.

لم يسمعها. النّظرة المرتابة التي ما كفّت السيدة باور ترميه بها، أرعبته لدرجةٍ أفقدته صوابَه. متّشحةً بالسّواد، كئيبةً، مترصّدةً، ساكنةً، غريبةً بين ذويها، كانت السيّدة باور تحدج بنظرةٍ نفورٍ، بل ومحتقرة، الأحمقَ الذي وقعت ابنتُها في حبائله. رجلٌ كان يبدو لها حيناً عليلاً، وطوراً ساهماً، وغالباً أبلهَ.

ثمّ ها فرانتس، أمام البوفيه المنصوب بقاعة الطّعام، وأمام دهشة المدعوّين، يخرجُ من توحّده. وبنبرةٍ متحمّسةٍ يفخر بأنّه نباتيّ؛ وإظهاراً لذلك لم يتناول إلا بعض الخضر، وماءً. وحدها إيرنا، أخت فيليس، أبدت له جانبَ المودّة. أمّا الآخرون، فقد أشاحوا بوجوههم عنه.

إزاء الفراغ المحيط به، أدرك حجمَ الكارثة. لم ينجح في اختلاس قبلةٍ من فيليس. وحتّى هي لم تمنحه فرصةً بالمرّة. وحين عزم على الانصراف، مهزوماً وشاحبَ الهيئة، رافقته فيليس حتّى الرّدهة. أمسك فرانتس بيدها، ونزع قفّازها، ثمّ لثم راحتها. خيّل إليه أنّه قد رأى على وجه الصبيّة إيماءةً عدائية. فرّ، رأسُه دائخٌ، شيءٌ ما يتمزّق في صدره.

صباح اليوم التالي، تقابلا وحدهما للحظاتٍ بالشّارع. فيليس شاردةً، كئيبةً، لا تدري من أمرها شيئاً. والداها، أخوها، أقاربها، أصدقاؤها، كانوا جميعاً يتحرّقون للتّعرف على هذا الشّابِ «ذي المائتي رسالةٍ» والذي براهُ الحبُّ. لكنّهم لم يروا إلا شبحاً. لم يحسنوا إخفاء خيبتهم، أو لم يخفوها أصلاً. على الرّصيف أبدت فيليس،

بصلابة وملامحَ صارمة وعينين زائغتين، انزعاجها. ذاهلاً، لم يجد فرانتس أيّ كلمة من الكلمات التي قدِم كي يقولَها.

«من دونها لا أستطيع العيش، ولا معها أستطيعُ»، ذاك ما كان يجول بخاطره وهو يلقي بثيابه في حقيبته. وكان قد عاد إلى غرفته بفندق أسكانيشر هوف، متأهّباً لتركها والعودة إلى براغ. لن يستطيع أن يتملّك هذه المرأة، لكنّه يحلمُ بأن يأوي إليها أو أن تأوي إليه. وهذا الانفصال إلى كائنين متمايزين كان في نظره شيئاً لا يغتفر.

غبَّ عودته إلى بيته كتب إليها صباحاً، ثمّ واظب على الكتابة إليها تقريباً كلّ يوم من أيام مايو/ أيار (أيامَ ١٢، ١٣، ١٦، ١٨، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨)، وكذلك كلّ أيام يونيو/ حزيران تقريباً (١، ٢، ٦، ٧، ١٠، ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩). وفي يوليو/ تموز كتب ستّ رسائل أُخر. وكان في تلك الرّسائل جميعها يناشدها مزيداً من التفكير، مزيداً من الوضوح، مزيداً من النّضج. وبالكاد أشارَ في السّطر الأخير من إحدى الصفحات إلى تفصيل خلوٍ من أدنى أهميّة: «أنا الآن أعمل على تصحيح البروفة الثانية من القسم الأوّل من روايتي الأمريكيّة، **الوقّاد**، نتفةٌ، والتي ستنشر في سلسلة رخيصة السّعر، ٨٠ بفينينغ»[1].

يضيف: «لكن، ما إن أبدأ في الحديث في موضوعٍ آخر غيرك، حتّى أضيع».

---

(١) جزء من المارك الألماني، عملةِ ألمانيا الاتحّادية قبل تبنّي العملة الأوروبية الموحّدة.

فيليس ليس فقط لم تقل له شيئاً بخصوص نصوصه، وإنّما لم تشر حتّى إلى المقالات التي ظهرت في الصّحف الألمانية تنهالُ على نصوصه بالمديح؛ هو من اضطرّ إلى أن يتنازل ويطلب منها الاطّلاع عليها، آملاً في أن يدفعها إلى قراءتها والاقتناع بموهبته ككاتب.

ليس فقط لم تكن تريد أن تفتح موضوع اعترافه الفظيع، وإنّما لم تكن تصدّق شيئاً ممّا يقوله. كانت ترفض، دون عناءِ فحصٍ، الحجج التي كان يواجهها بها بدقّةٍ وعنادٍ غاضبين. لم تكن تقرأ رسائله؟

يوم ١٦ يونيو/ حزيران، وانقلابٌ في مجرى الأحداث: بعد مرافعةٍ لا نهاية لها، طلب منها للمرّة الأولى:

«هل تريدين أن تكوني زوجةً لي؟ هل تريدين؟».

علامتا الاستفهام تانك، بدتا كأنّما تسمّران يدَه. صار عاجزاً عن كتابة كلمةٍ أخرى يومئذٍ، ولا في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي يليه، ولا في اليوم الذي تلاهما. طلبُه ذاك بدا كأنّما قوّضَ كيانَه. وكان عليه انتظار اليوم الرّابع ليستطيع مواصلة الاعتراف إلى تلك التي صارت خطيبَته من اللحظة الأولى التي رآها فيها.

ختم رسالته بهذا الاعتراف الفريد:

«أعجّلُ بالقول إنّي أخاف خوفاً أخرقَ من مستقبلنا ومن الشّقاء الذي قد يأتي من حياتنا المشتركة».

بيّنٌ أنّه بطلبه الزّواجَ، يحاول الحسم في رفضٍ. فكلّ لقاءاتهما الكارثية ببرلين، جعلته يقتنع بعدم يقين فيليس من المشاعر التي

تحملها له. لكنّها، وافقت على الزّواج به. ولتمسّكها بتقاليدها كبرجوازيّة-صغيرة، رجته أن يطلب يدها من والدها، رغم أنّها تبلغ من العمر سبعةً وعشرين عاماً. إنّها تتمسّك بالغ التمسّك باحترام الأعراف.

وعدها مرّاتٍ بأن يكتب تلك الرّسالةَ إلى أبيها، لكنّه صار إلى تأجيل هذه الخطوة المضنية يوماً عن يومٍ، ثمّ أسبوعاً عن أسبوع. ثمّة أمورٌ أولى بأن يقوم بها. فإذ بلبلتهُ موافقةُ فيليس على طلبه، انطلق إلى التّرافع أغربَ مرافعةٍ. أبداً ما كان لمحامٍ يرافع ضدّ نفسه أن يضاهيه بلاغةً، أن يعرض قَدْرَ ما عرضه من دامغ الحجج. ينبغي أن يخسر هذه القضية التي يقامر عبرها بمستقبله ككاتب. حياته تتوقّف على ذلك.

وإنّ مرافعته التي بدأها بإيقاعٍ هادئٍ، مضت متعاليةً حتى أصمّت سمعَ فيليس. المرأةُ التي للتوّ قالت له:

«نعم، أريد أن أكون زوجتك».

أجابَها:

«- هكذا إذن تريدين، رغم كلّ شيء، حملَ هذا الصّليب يا فيليس، تريدين محاولة المستحيل؟

- أجل، سوف تكون زوجاً طيّباً.

- إنّك مخطئةٌ، لن تتحمّلي العيش يومين بقربي. أنا دودةٌ تزحف على الأرض، أنا صموتٌ، انطوائيٌّ، كئيب، كثير

التذمّر، أنانيّ، مصابٌ بوسواس المرض. هل ستتحمّلين حياة الرّهبنة التي أعيشُها؟ إنّي أقضي معظم يومي منغلقاً في غرفتي، أو أهيم في الشّوارع وحيداً. هل ستتحمّلين فراقاً تامّاً عن أقاربك، وأصدقائك، بل عن كلّ معارفك، إذ لا أتصوّر حياة الزّواج قطعاً إلا على هذا النّحو؟ إنّما أريد أن أجنّبك الشّقاء يا فيليس، انعتِقي من الدّائرة الملعونة التي حبستُك فيها، وقد أعماني الحبُّ».

يضع في مقدّمة دفوعاته شكواهُ الأبديّةَ من التّعب. ألا تعلم، وهي الشديدةُ الصّلابة، وهنَ صحّته؟

يصرُّ: «بيني وبينك ثمّةَ الطّبيبُ. إنّي لا أتمتّع بأيّ مقاومةٍ، لقد قوّضت قوايَ ليالي الأرق وآلامُ الرأس».

فتجيبه فيليس: «دع عنك هذا، كفَّ عن تعذيبي».

يصف لها ما ستكونه حياتهما الزّوجية:

«لا يمكنك الاعتماد عليّ: أترك مكتبي حوالي الثالثة، فأتغذّى، ثمّ أنام حتّى السادسة أو السّابعة، أتناول شيئاً، وأغلق على نفسي في مكتبي. هل ستتحمّلين زوجاً مثلي؟

- نعم.

- فكّري مليّاً يا فيليس! ستخسرين برلين، ومكتبك، والعمل الذي يروقك، ستخسرين حياةً تكاد تكون خالية من الهموم، الحياة بين ذويك. أمّا في براغ، المدينة-الضاحية،

فسوف تسمعين لغةً غريبةً عنك، وتساكنين مجموعةً من البرجوازيّة-الصغرى، لا علاقات دنيوية، وينبغي أن تتخلّي عن فساتينك، وأن تسافري في الدّرجة الثالثة، وأن تجلسي في المسرح في مقاعد سيّئة».

ويحذّرها من خطرٍ آخر: بما أنّ لا شيء جيّدٌ في حياته سوى الأدب، فإنّ أوقات فراغهما، لياليهما، عطلهما، سيقضيها جميعاً في الكتابة، تاركاً إيّاها إلى وحدتها.

- أعرف ميلك إلى الكتابة.

- ميلي؟ (خنقه الحنقُ) [تقولين] ميلي؟ إنّي أكره كلّ ما يقع خارج دائرة الأدب! إن اضطررت إلى التوقّف عن الكتابة، فسأتوقّف عن الحياة.

وإذ أعيتها هذه المضايقة، أوقفت فيليس التراسلَ العبثي والمنهِك. ولم يكن قد حُلَّ بينهما شيءٌ، حين قرّرا، باتّفاق، أن يقضيَ كلّ منهما عطلته على حدة. هي شمالاً، بسيلت، إحدى جزر البلطيق؛ وهو جنوباً، بإيطاليا.

ريفا، الفاصل الإيطالي

يوم ٦ سبتمبر، رافق فرانتس مديرَه إلى فيينا؛ إنّ المديرَ، الدكتور روبِرت مارشنر، يقدّرُ معاوِنَه أيّما تقدير[١]؛ وفرانتس معجبٌ بالرّجل (من دون أن يخضع أمامه) لأنّه سريعٌ جداً على الآلة الكاتبة، ولأنّه يشاركه إعجابَه بالشّعر. ذات يومٍ، بينما تجمهر المشتكون في الرّدهات منتظرين من يستقبلهم، سُمع صوت فرانتس وروبير، وقد غلّقا على نفسيهما مكتباً وأخذا يقرآن قصائد بملء الصّوت.

شاركا معاً، لمدّة أسبوع، في المؤتمر الدّولي لمنظّمات الإغاثة والسّلامة الصحيّة. وشهد نفس التّاريخ (أي ٦ سبتمبر/ أيلول) مؤتمراً صهونياً شاركت فيه ابنة تيودور هيرتزل. وبدافع الفضول حضر فرانتس بعضاً من فقراتِ المؤتمر، فخرج منها خائباً، إذ لم يسمع إلا العويل المعتاد. وأرسلَ تقريراً مؤسفاً إلى ماكس، الذي كان صهيونياً نشيطاً.

---

(١) حُفظ الكثير من نصوص كافكا في موضوع التأمين في مهن البناء، أو الوقاية من حوادث الشّغل. (المؤلّفة)

يوم ١٤ سبتمبر/ أيلول، ترك فيينا التي لم يحبّها. يقول: «إنّها قرية هائلةٌ كئيبة، فيها يصير الفرِحُ حزيناً، والحزينُ أكثرَ حزناً».

وأخيراً في العطلة، نزل بمفرده إلى تريستي ومنها إلى البندقية على متن سفينة. هبّت عاصفةٌ، وعانى دوار البحر، وحين بلغ مدينة الدّوجي[1]، كان المطر يهطل بغزارة. مبلّلا حتّى العظامِ، أخذ يركض من كنيسة إلى أخرى، وبالكاد كان يستطيع تمييز واجهات القصور الغارقة في فُرشٍ من ماء رماديّ. يومين من الكآبة القاتلة. وفي فيرونا، كان الأمر أسوأ، إذ لم يصادف هناك إلا أزواجاً يسيرون متشابكين. كتب في يومياته «إنّ [مجرّد] التّفكير في رحلة شهر عسل يملأ نفسي رعباً. أيّ زوجين هما بالنّسبة إليّ بمثابةِ فُرجةٍ شنيعة. إن أردتُ أن أشعر بالغثيانِ، فما عليّ إلا أن أتخيّل نفسي سائراً مع امرأةٍ، واضعاً ذراعي على ردفها».

لجأ إلى سينيماتوغرافٍ، والفلم الذي رآه (لا يذكر اسمه) أفاض عينيه بالدّمع.

ومن مدينة العشاق تلك، أرسلَ بضع أسطرٍ حسبَها ستكون الأخيرة: «ما العمل يا فيليس؟ ينبغي أن يبتعد كلّ منّا عن الآخر».

حان وقتُ الفاصل.

فاصل إيطاليّ على ضفاف بحيرة غاردا السّاحرة بريفا. إنّ الفصلَ خريفٌ وضّاءٌ، دافئٌ، ألوانُ الماء والحدائق عذبةٌ، بالكاد

---

(١) الدوجي لقب القاضي الأوّل بالبندقية وجينوة.

تحجبها غلالةُ الضّباب. استقرّ فرانتس في مأوى نقاهةٍ يعطي فيه الدكتور فون هارتونغن حصصَ علاجٍ بالماء. أمام البحيرة تصطفُّ الكراسي المديدة حيث يقضي المعالَجون ساعاتٍ في الشّمس. كان فرانتس يستحمّ ويسبحُ طويلاً كلّ يومٍ.

يتناول النّزلاء الوجبات مجتمعين حول مائدةٍ كبيرة؛ ممّا يجعل فرانتس مجبراً على الحديث مع جليسه، جنرال متقاعد يمطره بالأسئلة، فيتعمّقُ لديه إحساس الخواء والألم الغائصِ فيه.

بدايةَ الأسبوع الثاني، ساعةَ الغذاء، أتت تجلس إلى جانبه صبيّةٌ في مقتبل العمر تربط شعرها الكستنائيّ بشريط أحمر. ترتدي فستاناً قرمزياً من المخمل، تزينه ياقةٌ بيضاء من الدانتيل، وعليها سيماء الهشاشة والبراءة المقلقة المميّزةِ لطفلة؛ وجنتاها وجيدها المدوّرين اصطبغت جميعاً بالحمرة حين سألها فجأة بسلاسة. بدا مفتوناً ببياض أسنانها المثالي، وبنعومة بشرتها، كان يتحرّق رغبةً في أن يفكّ رباط شعرها، ويخلّل بأصابعه الخصلات المرسلة على كتفيها.

إنّها صبيّةٌ أجنبية، سويسرية تقيم بجينوة. غِرتي فاسنر، شديدة النّحول، هشّة، غير ناضجة، لكنّها تتمتّع بجاذبية كبيرة، كلّ شيءٍ فيها يبلغ درجةً من الرّهافة، رسغاها، كاحلاها، وجهها البيضاوي، وظلُّ رموشها الطويلة؛ إنّها مختلفةٌ جداً عن فيليس الصلدة والمفتقرة إلى الجاذبية، وأصغرُ منها بكثير، صغيرةٌ على نحوٍ إلهي، لدرجةِ أنّ فرانتس ما عاد يفارقها. معاً كانا يمارسان التجديف في البحيرة، وكان فرانتس هو من يتولّى التجديف مسحوراً بغِرتي، بنظرتها المضيئة

التي لا يخبو بريقها أبداً. يتنزّهان طولَ الضّفاف. وللقيلولة يختاران كرسيّين مديدين متجاورين. يحدّثها عن فيليس، عن القطيعة بينهما، وعن حياته الرتيبة ببراغ. وذات يوم، قرأ لها نصّاً. يعرفُ، بالتّجربة، كم تكون الفتيات حساساتٍ لانثناءات صوته، ولنظراته حين يرفعها باتّجاههن، للتأكّد من دخولهنّ الشرك الذي ينصبه لهنّ، ذاك الشّرك الذي لا فكاك لهنَّ منه. [وهذه المرّة] اختار قراءة **ملكة البستوني**.

حين أغلق الكتاب سألته الصبيّة:

- من يكون هذا المدعو ألكسندر سرجييفيتش بوشكين؟

لم تكن تعرف عن الكاتب شيئاً، وأرادت أن تعرف كلّ ما يتعلّق بحياته. وكذلك فرانتس يحبّ أن يعرف، بلا فائدة [مباشرة]، حياةَ مشاهير الأعلام. حكى لها عن أصول الشّاعر، عن هانيبال، جدّه الأكبر ذي الأصول الإثيوبيّة، الرّجل الأسود في روسيا شديدةِ البياض. رجلٌ أسودُ هو سليل بطرس الأكبر.

تلا على غِرتي أبياتًا من ديوانيه المفضّلين، **الضيف الحجريّ** و**فارس البرونز**؛ أبياتٌ كثيرة، كلّ واحدٍ منها بأسلوبٍ مختلف.

وصفَ لها حياةَ بوشكين اللامعة، نجاحاته الأدبيّة، منافيه السياسيةَ، موتَه، موته جراء تلك المبارزة المأساوية.

- لم؟ مع من؟

- بوشكين كانت له زوجةٌ شديدة الحسن، ناتاليا غونتشاروفا، اسمٌ رائعٌ أليس كذلك؟

كرّر الاسم متلمّظاً بحلاوة كلّ مقطع.

ثمّ واصل الحديث:

- البارون دو أنتِس، وهو أرستقراطيّ فرنسيّ طموحٌ، كان يغازلها. رأى بوشكين، بقلبه الغيور، في فعل البارون إهانةً. فكانت المبارزة. اخترق البارونُ رئة الشّاعر، وبعد ستّ وأربعين ساعةً من النّزع، ستّ وأربعين ساعةً ظلّ فيها سكّانُ سان-بطرسبورغ يصلّون عند نافذة الشّاعر، ماتَ وسط آلام فظيعة، وكانت هذه آخر كلماته: «الحياة انتهت. يشقّ عليّ أن أتنفّس». كان في الثامنة والثلاثين من عمره.

أثّرت في غِرتي الحكايةُ. ولم يكن تأثّره بأقلّ من تأثّرها. لطالما مارست عليه الصّبايا الصغيرات سلطةً غريبةً. يفعمنه بالرّقة، لأنّهن منذورات لأن يصرنَ نساءً، فيفقدن جمالهنّ وبراءة رقّتهنّ. لا يستطيع أن يقاوم الحاجة في تأمّل صبيّةٍ جديرة بالتّأمّل، وأن يحبّها حتّى يستنفد كلّ قدرته على الإعجاب.

عن غِرتي، يريدُ أن يعرف كلّ شيء: عنها، عن أسرتها، عن سويسرا، عن جينوة. منتبهٌ هو إلى أدنى رغباتها، وحذر من أن تكشف الصبيّةُ وتسبرَ حدودَ تسلطه. يتمتّعان بما يخلقه كلّ منهما في الآخر من رغباتٍ.

مُذ التقاها لم يعد فرانتس نفسَه. صار يمزح، يخترع قصصاً، يقلّد مشية بعض النّزلاء، أو صوتَ الجنرالِ المتقاعدِ المتهدّجَ. غِرتي

تضحكُ، ورأسُها منقلبٌ إلى الخلف. إنّها أوّل مرّة، بحسب قوله، يفهم فيها فتاةً مسيحيّة، ويكاد يعيش كلّياً في دائرة نشاطِها.

دائرة نشاطها؟ هل يُلمع إلى تلك الألعاب التي اقترحتها عليه غِرتي، فانخرط فيها عن طيب خاطر، مهما بدت طفوليةً؟ مساءً، حين يأوي كلّ منهما إلى غرفته، كانت غِرتي التي تسكن في غرفة فوق غرفته، تُنزل من نافذتها شريطاً طويلاً، فيشدّ عليه فرانتس بيده. يميلان برأسهما في الفراغ كي يتمكّنا من رؤية بعضهما بعضاً. وذاك الشّريط الذي يمسك كلّ منهما بطرفٍ منه هو بمثابةِ رباطٍ كافٍ لكي يثيرهما. في بعض الأماسي كان فرانتس يدقّ السّقف وينتظر أن تجيبَه غِرتي. ممدّداً على سريره، مترصّداً بأذنيه، يسمعها، تتمشّى فوق رأسه، تترنّم، تسعل. يتابع خطواتها، خطوةً خطوة، حتّى تنام.

لم يكن أمامهما إلا عشرة أيام. بعدها سيرحل كلّ منهما إلى وجهته، وينتهي كلّ شيء. غرامياتٌ بلا غدٍ، بلا قلق، بلا رابطٍ، غرامياتٌ عفيفة، نظراتٌ تسمّرهما وتدفع بهما إلى حدود الرّعدة. مثل هذا الافتتان لم يعرفه فرانتس إلا مرّةً واحدةً، صيفاً واحداً: كان اسمُها سلمى، كانت في الخامسة عشرة من عمرها وهو في السابعة عشرة.

كانت غِرتي تعرف أنّ فرانتس كاتبٌ. ذات يوم سألها عمّا إذا كانت تحبّ قصص الجنيّات، إذ كان يريد أن يكتب لها واحدةً. لم يقل لها إنّه في تلك اللّحظة كان يتخيّلها في صالة الطّعام، جالسة تحت الطّاولة،

ممسكة تلك الحكايات على ركبتيها. يراها تقرؤها بين الأطباق، وتحمرّ حمرةً رهيبةً. حمرةً رهيبة؟ لم؟ هل يفكّر في قصص ماجنة؟

على مقترحه ردّت غِرتي برفضٍ مطلق.

لا بل جعلته يقطع لها ثلاثة وعود:

- لن نتقابل مرّةً أخرى أبداً. لن نكتب لبعضنا أبداً، ولا حتّى سطراً واحداً. ولن تكتبَ أو تقول عنّي أيّ شيء.

وقد وفى فرانتس بالوعد. رفض الإجابة عن كلّ الأسئلة التي طرحها عليه ماكس. وفي **يومياته** لم يدوّن إلا الحروف الأولى من اسم الفتاة غ و(والتي لم تكشف هويّتها إلا عقوداً فيما بعد).

والقليل الذي نعرفه عن هذا اللقاء الموجز، مصدرُه **يومياته**، حوالي عشرة أسطر بالكاد طيلة ذينك الأسبوعين؛ ثمّ من الرّسالة التي كتبها إلى فيليس ثلاثة أشهر فيما بعد، بتاريخ ٢٩ ديسمبر/ كانون الأوّل، وفيها يعترف لخطيبته، بصراحته المعهودة التي لا تخلو من قسوة، بأنّه كان مغرماً بتلك الصبيّة السويسرية، التي تكاد تكون طفلة، في ربيعها الثامن عشر، وأنّه تعلّق بها كثيراً، لكنّهما لم يخلقا لبعضهما بعضاً. ويفصّلُ: يوم رحيله، لم تستطع الصبيّة حبس شهقاتها، ولا هو كان بأفضل منها حالاً.

ومع ذلك فإنّ هذه الحلقة من حياته قد أقنعته بأنّه في العمق لم يكن يصبو إلا إلى... الزواج من فيليس.

من تلك الإقامة احتفظ بلَوعةِ. ألعابُ الشّريط التي انخرط

فيها مع غِرتي جعلته يندم على ما ضاع من متعةٍ كان ليغنمها مع الرّوسية، الفتاة التي كانت تقطن بالغرفة المقابلة لغرفته. ذاك أنّ كل ابتساماتها، وكلّ تلميحاتها، كانت بمثابة دعوة.

حين ترك ريفا كان قد صار أكثر ثقة في نفسه. وأسفل الشُّعريات التي بدأت تشيب، لانت النّظرةُ.

غريت بلوخ أو الثلاثيّ الأوّل

فيليس هي من قرّر خرقَ صمتٍ دامَ شهرين، صمتٍ كان أشبه بقطيعةٍ نهائية. في رسالتها المؤرّخة بتاريخ ١٢ أكتوبر/ تشرين ١٩١٣، أعلمت فرانتس بقدوم إحدى صديقاتها إلى براغ، وبأنّها كلّفتها بمهمّة المصالحة. وفضلاً عن ذلك، طلبت منه القدوم إلى برلين في الأيام التي تلي لقاءه وصديقتَها. وقد توصّل فرانتس بثلاث رسائل من المرأة المجهولة التي بعثت بها فيليس إليه. ثلاث رسائل ظلّت بلا جوابٍ. أنّى لفيليس أن تعتقد أنّ مبعوثاً نزلَ من السّماء، مبعوثاً يجهل كلّ الجهل خلافاتهما المعقّدة، يستطيعُ أن يحلّها [كأنّها] بفعل السّحر؟ أنّى لها أن تربّي هذا الأمل؟

أن يشرح موقفه لهذه الآنسة، التي لا ريب في أنّها متقدّمةٌ في السنّ، وكبيرة الحجم، ومتينة الجسد وذات هيئةٍ أمومية، ذاكَ أمرٌ يرفضه.

وفي ذات الوقت الذي كان يقول فيه لنفسه كلاّ، لن أذهب، كانت ثمّة غوايةٌ تولَد: غواية أن يقحم عنصراً ثالثاً أو شخصاً

جديداً، مهما كان ثانوياً، في حبكةٍ صارت تتعثّر، ومشهدٍ أخذ يُفرَغ. كان يرغب في أن يقطع مع الروتين، مع رتابة الأيّام. حياتُه أشبه ما تكون بتلك العقوبات التي تفرض على التلميذ أن يكتبَ مائةَ مرّةٍ الجملةَ العبثية نفسَها.

من هذه الصّديقة التي تبعث بها فيليس إليّ، والتي لم يسبق أن ذكرت لي اسمها؟ بعد أيّامٍ من التردّد، أجابَ الآنسة غريت بلوخ:

«سآتي بالطّبع إلى فندقك، حدّدي الوقت الذي يناسبك».

وإلى فيليس كتب:

«ما دمتِ تريدين، سآتي إلى برلين يوم السّبت ٨ نوفمبر/ تشرين الثاني وأغادرها في اليوم التالي حوالي السّاعة الثالثة أو الرّابعة».

هو يعلمُ أنّه سفرٌ عقيمٌ، سفرٌ آخرُ لن يحمل أيّ وضوح، لن يفضيَ إلى أيّ حلٍ لخلافاتهما. في انتظار ذلك، وعلى عادته، شرع يطرح أسئلةً عديدةً: كيف قبلت هذه المدعوة غريت بلوخ بهذه المهمة؟ ما الذي ترجوه منها؟ أين تقطنُ؟ في أيّ ركنٍ تمطّط أطرافَها قبل أن تخلد إلى النّوم؟ هل أقدِرُ أنا أن أفعل ما هي مقدمةٌ على فعله؟ أيّ شعورٍ سينتابني إذّاك؟ ما الذي سيحدث لها حين تصير عجوزاً؟ ترجُّه هذه التّساؤلات، فيتمغّص بطنه.

قابل الآنسة غريت بلوخ في الفاتح من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٣، في بهو الفندق الذي نزَلَت فيه، فندق **الحصان الأسود**. لم تعجبه، اتّخذ منها الحذر من النّظرة الأولى. كانت ترتدي وشاحاً من

الفرو صارخاً، لا يناسبها. يمقت الفراءَ مقتاً شديداً، خاصةً منها أمثال هذا، الطّويلةِ الوبر والمبطّنة بالحرير.

على أنّ الآنسة غريت بلوخ ليست [كما تصوّرها] في صورة الأمّ الحاكمة. إنّها فتاة سقيمة الجسم، فريدة شيئاً ما، وأصغر سناً من فيليس بكثير. عشرون سنة؟ شفتاها دقيقتان، ووجها فطنٌ. رفعت إليه عينين كئيبتين. أبدت له اهتماماً هو حسّاسٌ تُجاهه.

وإذ حثّته على السّفر إلى برلين الذي تراهُ لا مندوحةَ عنه، بدأ يشكو:

- كلّ سفرةٍ إلى برلين كانت كارثةً. بعد كلّ لقاءٍ تصير الآنسة فيليس أكثر تردّداً من ذي قبل.

ابتسمت الآنسة غريت بلوخ:

- ربّما عليك، يا دكتور كافكا، أن تكتبَ أقلَّ، وتراها أكثرَ؟

ساعة افتراقهما، قبِلَ بابتهاجٍ الموعد الذي ضربته له في اليوم التالي. أضاف:

- آنستي، هل أستطيع أن أكتب إليك في فيينا؟ إنّ مهمّتك لم تنتهِ بعد.

ما كاد فرانتس يعود من برلين، حتّى أرسل إلى تلك الشّابة بأولّ رسائله يوم ١٠ نوفمبر/ تشرين الثاني. كتب إليها، كما يؤكّد من البداية، قبل أن يكتب إلى فيليس. اعترافٌ، على ما فيه من إطراء، علّقته صديقة فيليس على مشجب الكلام الفضفاض المبهم. مدّها

بالتّفاصيل الدّقيقة عن لقائه الخاطف بفيليس. ومن دون أن يترك للآنسة بلوخ الوقت لتردّ، كتبَ إليها رسالة ثانية في اليوم التالي، ثمّ رسائل أخرى في الأيام التي تلت ذلك. والحقّ أنّ فيليس كانت هي الموضوع الرّئيس للرّسائل الأولى: كان يأمل أن يعرف من غريت نيّاتِ خطيبته غيرَ المعلنة، أن يعرف سبب تردّدها، وعلى وجه التّخصيص أسباب صمتها.

بعد زيارته إلى برلين، لم يتوصّل فرانتس بأيّ شيءٍ من فيليس. لم تكن تردّ على رسائله وبرقياته. وحين يهاتفها تعدُه بأن تكتب إليه في اليوم نفسه، لكنّها لا تفعل. طلب من أمّه أن تكتب إليها رسالةً، ولم يجنِ شيئاً. ثمّ رجا صديقه، الدكتور أرنست فايس، السّاكن ببرلين، أن يقصد مقرّ عملها فيفرض عليها كسر الصّمت. وكانت النّتيجةُ رسالةً من ثلاث كلمات: «سأكتب إليك قريباً». أبرقَ إليها ثلاث مرّاتٍ، فأتاه الجوابُ أربعَ وعودٍ قاطعة، أحدُها: «لقد بعثتُ بالرّسالة». لكنّ شيئاً لم يصل. قال لها «تصرّفك غير إنسانيّ». ثمّ بعث إليها بثلاث رسائل أخرى، ولا جوابَ؛ استفسر من غريت:

«هل تدرين شيئاً، وترغبين في قوله لي؟».

يعيش منتهى البلبلة، خاصّةً أنّه وعائلته قد غيّروا مسكنهم. استقرّوا بمنزلهم الجديد بأوبلت Oppelt. الفوضى تعمّ المكان. فرانتس فقيرٌ إلى النّومِ، كثيرُ الاشتغالِ. بعدما تجاوز الوقتُ منتصف الليل بنصف ساعةٍ، من إحدى اللّيالي الصّقيعيّة، لافّاً قدميه في

بطّانيّة، كتب مرّةً أخرى إلى فيليس يترجّاها: «قولي لي نعم أو لا، لن يكلّفك الأمرُ أيّ جهدٍ؛ لا تناديني «حبيبي»، إن لم تكوني تحبينني، لا ترسلي إليّ خواطرَ طيّبةً، إن لم تكن حقاً كذلك. لا أطلب إلا رسالةً قصيرةً جداً. ليس في طلبي أيّ مبالغةٍ. حتّى في حال أيأستني من كلّ أملٍ، فسأواصل الانتظار؛ يؤلمُك أن أطلب منك الكتابة إليّ، ليس قطعاً بقدر ما يؤلمني صمتُك. ألا تريننني جديراً حتّى بكلمةٍ واحدةٍ؟».

قادَه صمتُ فيليس إلى تحويل اهتمامه نحو غريت وتركيزِه فيها. إليها الآن صار يبوحُ بتأمّلاته، وإيّاها صار يسألُ عديدَ الأسئلة؛ لـ «عزيزته الآنسة غريت» صار يوّجه النّصائح: حول نظام حياتها الصحيّ، (تريّضي، تعلّمي السّباحة، نامي بنافذةٍ مفتوحة، كُفّي عن استخدام نبتة النارديّنيّة[1]، اقصدي المطاعم النباتية، ثمّة منها مطاعمُ جيّدةٌ جداً في مدينتك، امضغي كلّ طعامٍ ممّا تتناوليه لمدّة خمس دقائق)؛ وحول عملها؛ وحول فيينا (اتركي هذه المدينة في أقرب فرصةٍ، عودي إلى برلين). كان ينتظر رسائلها محموماً، تقريباً بنفس تلك اللهفة التي كانت تأخذ به حين تبطئ عنه رسائل فيليس. طلب منها أن تكون في برلين حين يأتيها، واقترح عليها أن يلتقيا في منتصف الطّريق، لفرط شوقه إلى رؤيتها.

---

(١) جنس نباتٍ ذي خصائص طبيّة، كان شائع الاستخدام طلباً للاسترخاء والنّوم، ولعلّ ذلك ما كانت تستخدمه فيه غريت.

صار يكثر من التعابير الفضفاضة. حين علم بأنّ غريت من مواليد يوم ٢١ مارس، سمّاها «طفلة الرّبيع». طلب منها صوراً عديدة لها ولصديقاتها.

أثناء سنة ١٩١٤، بالكاد أرسل عشرين رسالةً إلى فيليس، بينما أرسل إلى غريت ما يفوق السّبعين. صار يشعر تجاهها بانجذابٍ كبير، ووفياً لطبعه، لم يكن يخفي انجذابَه ذاك. هذه العلاقة الرسائلية، هذا المنعطف الجديد في القصّة، منحهُ الأمانَ.

لكن بينما يرجُّ قلبَ غريت، كان يتشبّث بفيليس. وكلّما زادت هي تردّداً، كلّما رفضته، زادَ إصراراً. صارحها:

«لا أرى العيش من دونك، أنت كما أنت».

ليلة الجمعة ٢٧ فبراير/ شباط ١٩١٤، قرر فجأةً أن يذهب ليفاجئها في برلين. وما إن نزل من القطار، صباح السّبت، حتّى قصد مكتب فيليس للمرّة الأولى في حياته. واقفاً أمام تلفون المكتب، كان ينتظرُ أن تعلمها إحدى السكرتيرات بقدومه. كان سعيداً بتواجده هناك. وأتت فيليس، شديدة الدّهشة من زيارته غير المتوقّعة، لكنّها استقبلته بالكثير من اللّطف. ظلاّ يتحدّثان لحظةً من الزّمن، واقفين، ثمّ عادت الشّابة إلى مكتبها حيث كان ينتظرها عملاء. التقيا من جديد ساعةَ الزّوال، في محلٍّ حلوانيّ، وقضيا معاً ساعةً. ثمّ رافقها حتّى مكتبها، إذ كان يرغب في رؤية مكان اشتغالها. ونهايةَ الظّهيرة التقيا مرّة أخرى وتجوّلا ساعتين. مساءً كانت فيليس مشغولةً. لأسباب مهنية كان ينبغي أن تحضر حفلاً راقصاً.

- لا تذهبي، لنقضِ السّهرةَ معاً. ما يزال أمامنا الكثير من العُقد لنحلّها.

- لا أستطيع أن أعتذر في آخر لحظةٍ. مستحيل. لنلتقِ غداً، صبيحتي فارغة.

الأحد، ذراعاً في ذراعٍ، كأسعد خطيبين، ظلاّ يتجوّلان ما يفوق ثلاث ساعات في ممرّات حديقة تيرغارتن؛ ثمّ دخلا مقهى ليتناولا الغذاءَ، فالتقيا الدكتور فايس. لمرآه قطّبت فيليس. مرّاتٍ عديدة قبل ذلك حاولت أن تقنع فرانتس بأنّ إرنست فايس شخصٌ بغيض، وإرنست فايس حاول كذلك مرّاتٍ عديدة أن يقنعه بأنّ فيليس بغيضةٌ.

وساعةَ تركت فيليس فرانتسَ، وعدته وعداً شكلياً بأن ترافقه إلى المحطّة نهاية النّهار. على الرّصيف كان يلوي جسده ليراها. تحرّك القطار. مرّةً أخرى أخلفت موعدها. لكنّها [هذه المرّة] أرسلت برقيّة، والعذرُ اسمُه الخالة مارتا.

جالساً على المقعد الخشبيّ بمقصورةٍ في الدّرجة الثالثة سيّئة التدفئة، وضاجّة، ومنتنة، كان فرانتس يجترّ كلّ كلمة تبادلها مع فيليس حين كان يتجوّلان في الحديقة. بينما اهتزازات القطار تضرب رأسَه بزجاج النّافذة البارد، كان شريط حوارهما يمرّ في رأسه حتّى يصيبه بالدّوار:

- أحبّك حقاً يا فرانتس، لكنّ ذلك غير كافٍ، وأنا لا أريد أن أكتفيَ بالنّصف من أيِّ شيء.

- أمّا أنا فأحبّك جداً، لدرجة أنّي مستعدٌ لأن أتزوّجك حتّى وإن كنت تحملين لي إحساساً فاتراً. أرجوك يا فيليس قولي نعم، حتّى وإن كنت ترين أنّ ما تشعرين به تجاهي غير كافٍ. إنّ حبّي كبيرٌ بما يكف ليغطيَ ما ينقص.

- أخاف المستقبل الذي ينتظرنا معاً. أخاف أن لا أتحمّل عاداتك الغريبة. تردّدك: ما تريده الآن، لا تريده بعد لحظة.

- إنّي مخيطٌ تماماً إلى جلدي، ولا يمكن أن نغيّر شيئاً حيال هذه الخياطة.

- معي، تتوالى المفاجآت والخيبات. أخاف ألاّ أستطيع الابتعاد عن برلين، عن عائلتي، عن مكتبي، عن الفساتين الجميلة، عن المسرح. لقد فكّرت في كلّ الحجج التي لطالما ردّدتها عليّ. كنتَ محقاً، ينبغي أن أتخلّى عن الكثير من الأشياء. من بيننا سأكون أنا من يحمل الحِملَ الأثقل.

- هل أستنتج من كلامك أنّك لا تحبينني البتّة.

- إنّك مخطئ. انظر إلى الرّصيعة التي تتدلّى من عنقي. صورتك معي ليلَ نهارَ. لن أتزوّج أيّ شخصٍ آخرَ غيرك.

- تريدين أن تواصلي الكتابة إليّ أم لا؟

- القرار يعود إليك. سأواصل الكتابة إليك عن طيب خاطر. لكنّي سأرضى أيضاً بأن لا أكتب إليك.

- سينتهي بيننا كلّ شيءٍ، ويستعيد كلّ واحدٍ رسائله وصوره؟

- كلاّ. لن أعيد إليك صورك ولا رسائلك. أبداً لن أرميها، ولن أستعيد صوري ورسائلي.

استعاد صورتهما معاً، ذاهبَين آيبين، في ممرّات الحديقة. هو محرّكاً يديه يرافع عن قضيّته، على استعداد أن ينحني على قدمَي فيليس؛ وهي تبدو مستعجلةً أن تُنهي هذا الحديث الذي يزعجها.

أمامهما، في أقفاص هائلةٍ، قرودٌ جاثمةٌ على شجرةٍ من أسمنت متشعّبة الغصون. القرود تتقافزُ وتلاحق بعضها بعضاً بحدّةٍ، مطلقةً صيحاتٍ تهيّجُ الأعصابَ؛ استعاد صورة تلك النّسانيس الرّاكضة في كلّ اتّجاهٍ، عارضةً مؤخّراتها الحمراء المرجانية، وفروجها المنتصبة، وأذنابها التي تضربُ الهواء كالسيّاط. علاقاتُ القرودِ الدّاعرةُ، وصيحاتها، وملاحقاتها بعضها بعضاً، وافتقارها إلى الحشمة، كلّ ذلك أغاظ فيليس:

- فرانتس، بحقّ السّماء، كفَّ عن التضرّع. إنّك تطلبُ دائماً المستحيلَ. لا تتشبّث بكلّ كلمة.

- لا تريدين إلاّ إهانتي!

- أنت من تبحث عن الإهانة! ليس يهمّك إلا شيءٌ واحدٌ، وقد قلتها لي ذاتَ مرّة: أن تعذِّبَ أو تُعذَّبَ! وأنا تعبت من الاضطلاع بدور ضحيّتك ودور جلادك في آن.

جعلت تبدي تبرُّمَها. تريد الانصراف. استبقاها. أجابته بصمتٍ يشفُّ عن الكراهية، عن الاشمئزاز. أخذت تنظر في اتّجاهٍ آخر، غاضبةً.

شريط الفيلم السّابق يمرّ ويمرّ في رأسِه، الصور تتداخل وتتشوّش، لم يعد يرى إلا مؤخّراتٍ مرجانيّة. المؤخّراتُ تتماوجُ، تحتلُّ كامل الشّاشة، وصيحاتُ القرود تختلط وصيحات فيليس، تنزلُ مطارقَ على رأسه، تصيبُه بالجنون.

لمّا عاد إلى براغ، اتّخذ قراراً باعدَ بينه وبين وسوسة الانتحار: إن لم يتزوّج فيليس، فسوف يستقيل من عمله، ويهجر براغ، يستقرّ في برلين ويصير صحافياً.

في شهر مارس/ آذار بدا أنّ فيليس تريد مرّةً أخرى إصلاح كلّ شيء:

- اِنسَ الكلمات السيّئة التي قلتها في حقّك حين كنّا في الحديقة، كنت مرهقةً، متوتّرة، مصدومةً ممّا وقع لأخي، فيري. تعرفُ كم أحبّه، وسوف أخبرك حين نلتقي بما وقع له؛ رهيبٌ ما حدث له واضطرّه إلى ترك برلين على عجل. فرانتس، إن كنت تريدني، إن كان حبّي لك يكفيك، فإنّي أريد حقاً أن أكون امرأتك. هل تريد أن نعود كما لو أنّ شيئاً لم يحدث؟

- فيليس، أريدك مع كلّ ما حدث، وأتشبّث بك إلى أن أفقد العقلَ. أحبّك حتّى حدود قوايَ.

التقيا في عيد الفصح لإتمام الخطوبة رسمياً. وتمّ اللقاء بين العائلتين في برلين، بمنزل آل باور. لقاءاتٌ أخرى قصيرةٌ وحزينة. الخاطب لا يختلي البتّة بخطيبته، ولا يستطيع حتّى أن يقبّلها، وهي لا تبدو أسفةً على قُبَله.

حدّدا موعد الزّفاف في شهر سبتمبر/ أيلول. اندهش لذلك:

- لمَ الانتظار ستّة أشهر؟ لنعجّل التّاريخ.

رفضَت.

الإعلان الرّسميّ عن زواجهما ظهر في صحف برلين وبراغ اليومية. قال فرانتس، كاتبُ الإعلان، ساخراً: «ينتابني الانطباع أمام هذه الأسطر الأربعة، بأنّي أنهي إلى علم الجمهور أنّه يوم الأحد، عيد العنصرة، سيقدّم المدعو ف. ك. عرضاً في التزلّج الفنيّ في الميوزيك-هال!».

لم تتبقَّ الآنَ إلا مسألة تنظيم الحفل المقرّر في الفاتح من يونيو/ حزيران.

يوم ٦ مايو/ أيار، فيليس في براغ، تتفقّد آخر شقّةٍ وجدها فرانتس بعد أسابيعَ حرث فيها مشياً شوارع المدينة. الخطيبان غير متّفقين في أيّ شيء: لا في اختيار الأثاث ولا في الحياة التي سيعيشانها. فيليس تطالبه بأن يأكل اللّحمَ، وأن ينام في غرفةٍ دافئة، وأن يهتمّ أكثر بمصنع الأميانت، وأن يتوقّف عن الكتابة ليلاً. حجمُ البوفيه الهائلِ الذي اشترته فيليس، أرعبَ فرانتس، قال:

- إنّه صرحٌ جنائزيّ مثاليّ.

والداه هما من وجدا له شقّةً جميلةً، ودفعا عنه إيجار ستّة أشهر.

تساءل: هل سيضعانِي أيضاً في القبر؟

بقدر ما كان تاريخ الخطوبة الرّسمية يقتربُ، بقدر ما كانت تتضاعفُ عنده ليالي الأرق، وآلامُ الرّأس، والهواجسُ.

٢٧ مايو/ أيار، يولي كافكا وأوتلا، أصغر أخواتِه، انطلقتا في الطّليعة إلى برلين. ثمّ لحق بهما فرانتس ووالده ثلاثة أيّامٍ بعد ذلك.

اِثنين العنصرة: حفلة رائعةٌ ببيت آل باور. الكثير من المدعوّين، خوانٌ باذخ، لكنّ الخطيبة تبدو منهكةً، شاخت، بشرتُها خشنةٌ علاها الكَلَفُ. أسنانها في أسوأ حالٍ، كلّها محشوّة بالذّهب. وفرانتس، شاردٌ، متوتّر، غائبُ الذّهن، رثُّ الهيئة، لاذَ وحيداً بالشرفة. شاحباً، يشعر أنّه قد صُفِّدَ كالمجرمِ المحاطِ برجال الدّرك. لا يفكّر إلا في الهرب أنّى كان، ليفلت من الفخّ الذي ألقى بنفسه فيه. لم يكن يبدو عليه أنّه يلاحظ حضور غريت، ولا العينين الحزينتين اللتين رفعتهما نحوَه.

في الأيام التالية ألفى نفسه عاجزاً عن الكتابة إلى فيليس. رسائله كلّها موجّهةٌ إلى غريت. بيّن لها، حدّ الإقناع، أنّه لا يريد، ولا يستطيع الزّواج، أنّ لا استعداد لديه للزّواج، كلّ ما فيه يتمرّد ضدّ هذا الارتباط. رسالته المؤرّخة بتاريخ ٣ يوليو/ تموز، من الوضوح بحيث أرعبت غريت.

لك أن تتخيّل حيرتها، اضطرابَ عواطفها.

ما العمل بعد هذا الاعتراف الرّهيب المذهل؟ هل تصمت؟ هل تخبر فيليس؟ هل تغدر بصديقتها؟ هل تحلّ محلّها؟

المحاكمة

يوم الأحد ١٢ يوليو/ تمّوز ١٩١٤، كان الجوّ بديعاً في برلين، حتّى أنّ فرانتس، حين نزل من القطار، استقلّ عربة أجرةٍ إلى الفندق الذي اعتاد النّزول فيه، فندق أسكانيشر هوف. وحين دلف إلى الرّدهة كانت بانتظاره مفاجأةٌ: لأوّل مرّة تأتي فيليس لتنتظره.

لم تكن بمفردها.

أختُها، إيرنا، وصديقتها، غريت بلوخ، والجرّاح أرنست فايس، كلّهم حولَها.

أكمينٌ هو؟ تساءَل. لا بدّ أنّ غريت قد وشت بي عند فيليس؛ معاً نصبتا لي فخاً. أخذ ينظر إليهما. بدتا منزعجتين، تتحاشيان نظراته. غريت، متوتّرةً، تمسح رقبتها بمنديلها. فيليس تبدي برود اً عظيماً. مدّت إليه يداً واهنةً. هل صار ممنوعاً عليه تقبيلها على خدّها؟ وحده صديقه، إرنست فايس، بدا مرتاحاً، كأنّما يتحرّق لإجراء عملية.

انسحبوا جميعاً إلى قاعةٍ خاصّة.

جلست فيليس إزاء خطيبها. هذا الرّجل الرّشيق، والأنيق، والصّموتُ، كان يثير حنقها. خلّلت بيَدِها شعرَها، وعدلت جلستها، وكتمت تثاؤباً، وسرّحت ثنيات تنّورتها التي كانت تشدُّ على خاصرتها. لقد ثَقُل قدُّها. تلوم نفسها على عدم اتّباع طريقة الدّكتور مولر للنّساء، والتي كان فرانتس قد أرسلها إليها.

كانت المبادرةَ إلى الكلام:

- حان وقت توضيح الأمور يا فرانتس. منذ يوم ٢٨ مايو/ أيار، أي قبل حتّى موعد خطوبتنا، لم تكتب إلي رسالةً تذكر. رسائلك كلّها كنت ترسلها إلى صديقتي التي سعيت إلى خداعي معها. ما عدتُ أعلم موقفي، ولا من تكونُ، ولا من تحبُّ، ولا أيّ لعبةٍ تلعبُ. أنا وغريت قرّرنا أن نطرح عليك أسئلةً دقيقةً، ونريد لها أجوبةً دقيقةً. غريت، هلاّ بدأتِ؟

على خلاف فيليس، كانت غريت شديدة التأثّر. وجهها مضرّج بالحمرة، كانت تتحدّث بصوتٍ متردّد، متهدّج، خافضةً عينيها باتّجاه الورقة التي تحملها في يدها:

- دكتور كافكا، منذ لقائنا ببراغ، في الفاتح من نوفمبر/ تشرين الثاني، كتبت إليّ سبعاً وستين رسالةً. وفي أواخر رسائلك صرت تستبسل في بيان أنّك لا تستطيع الزّواج. كلّ ما فيك يتمرّد ضدّ هذا الارتباط. إنّي آسفةٌ لأنّي أصررت على أن أرى في خطوبتكما سعادةً لكما معاً، وآسفةٌ على وجه التّخصيص لأنّي أثّرت عليكما معاً كي تسيرا في اتّجاه الخطوبة. لقد تحمّلتُ

مسؤولية هائلة، وما كان ينبغي لي... وهذا هو السبب الذي دفعني إلى أن أوجّه إلى فيليس بعضاً من رسائلك. ولقد عيّنت بالقلم الأحمر المقاطع التي استنفرتني. ما عاد بمقدوري الصمت. ما عدت أجرؤ على النّظر في وجه فيليس. أو أن أكون متواطئة في...

قاطعها أرنست فايس:

- آنسة بلوخ، هذه الرّسائل كانت مرسلةً إليك أنت بصفةٍ شخصيّة. هل سألت الدكتور كافكا الإذن في أن ترسليها إلى الآنسة فيليس باور؟ أو هل أعلمته بأنّك سوف تفعلين؟

- أعلمته. بعد أن فعلت.

- أنت والآنسة باور صديقتان منذ مدّة طويلة؟

- منذ خمسة أشهر.

- خمسة أشهر؟ تقطنين بفيينا والآنسة باور ببرلين، ممّا يعني أنّكما بالكاد تعرفان بعضكما. ومع ذلك قبلت تحمّل مهمّةٍ مستحيلة؟

لم تُجب غريت. واصل الدّكتور فايس الكلام:

- لِمَ واصلت التّراسل مع الدكتور كافكا؟ تقولين إنّه قد أرسل إليك سبعاً وستّين رسالةً، أليس كذلك؟ أيّ الرّسائل أجبتِ عنها؟ لِمَ لم توقفي دور الوساطة في وقتٍ أبكَر؟

- لم، لقد كنت آملُ، أنّ الدكتور كافكا...

لم تتمّ جملتَها. ترتعد خوفاً من أن يفصح الدكتور كافكا عن أنّها، هي أيضاً، قد أرسلت إليه رسالتين من رسائل فيليس. ما الذي سيحدث إن علمت صديقتها بذلك؟ رسالتين، كانت على يقين تام ممّا سيخلّفانه فيه من تأثير: فيليس تسرُّ إليها، (وها سرٌّ آخرُ خانته)، بأنّها تشكّ كلّ الشكّ فيما تحمله لفرانتس من مشاعر.

لاذت بالصّمت. استدارت الأنظار شطر د. كافكا. بمَ سيردُّ؟ غمغم كلمات بالكاد تبين:

- لا شيء. ما قيل صحيح.

عارضت فيليس خطيبَها:

- آه، كلاّ! لن تواصل الصّمت. ما أسهل الأمر بالنّسبة إليك!

أخرجت من حقيبتها قرائن الإدانة:

كومةٌ من الرّسائل سُطّرت عديدُ المقاطع فيها بالأحمر.

- توقّفتَ عن الكتابة إليّ تماماً، أنا، خطيبتك، كنتُ مجرّد تعلّةٍ كي تكتب إلى امرأةٍ أخرى، امرأةٍ أخرى أغويتها، بشكلٍ يدعو إلى الخجل، وبكلّ الطّرق الممكنة، عشرة آلافِ سؤالٍ سألتَها: عن نفسها، وعن أخيها، وعن قطّها، وعن أمّها، وعن مكتبها، وعن صديقاتها، وعشرة آلاف نصيحةٍ وتزلّف. ألكي تحدّثها عنّي سألتها في هذه الرّسالة (وأخذت تقرأ بنبرةٍ سخريةٍ فظيعةٍ): «عزيزتي الآنسة غريت، كيف تعالجين أسنانك؟ هل تفرشينها بعد كلّ وجبة؟» وفي هذه

تسمّيها «طفلة الرّبيع»، تقصّ عليها أحلامَك، تراها نائمةً على غطاءِ سرير ذي مرّبعاتٍ.

أخذت تنبش في الأوراق الموضوعة أمامها. صاحت:

- تهتمّ بمعرفة الفستان الذي سوف ترتديه غريت في خطوبتي، في الوقت الذي لا تهتمّ فيه بما سوف ألبسه أنا. «فستانك يا آنستي العزيزة غريت سوف تتأمّله، أقولُ، سوف تتأمّله العيون الأشدّ عذوبةً»، إليكَ ما جرؤتَ على قوله لها. لا بل أشنعُ من ذلك، هذه الاعترافات: «لا يمكنك أن تعرفي ما تعنينه بالنّسبة إليّ. أشتاق حقاً إليك. وحين سنتزوّج [أنا وفيليس]، ستأتين للعيش معنا من البداية، ينبغي أن تأخذي بيدي، وسيكون بإمكاني أن أمسك بيدك على سبيل الشّكر». وأنا، ما الذي سوف أفعله بينما تمسك أنت يدها لتستطيع أن تتحمّل حضوري؟ هل سأكتفي بالنّظر إليك وأنت تشتهي امرأةً أخرى؟ أو سأذهب إلى الجحيم؟

ممتقعاً، كان فرانتس يتساءل: كيف السّبيل إلى الخروج من تلك الصّالة؟ كيف يفلت من تلك الجلبة، ومن هذا الوجه الذي شوّهته الكراهية؟

خطرت بباله المومسُ التي كان يقصدُها، فتاةٌ بدينة، ترتدي ملابسَ عفَت عنها الموضةُ، وإكسسوارات رخيصة تضفي عليها مسحة من ترف. ذات مساءٍ، بينما يرتديان ملابسهما، سألها في شأن مهنتها. يتذكّرُ صوتَها، نبرتها النّمساوية. قالت له إنّ لها القدرة،

حين ينخرُ في إذنها رجلٌ شائخٌ أو عنيفٌ أو منتنٌ، وجسده الثقيل العرقان ملتصقٌ بجسدها، لها القدرة على أن تغادر فراشها الرثَّ والرّجل الذي يركبها، والكوخ الحقير حيث تعيش. ما عليها إلا أن تتخيّلَ مشهداً، المشهدَ نفسَه دائماً، (لم يسألها أيّ مشهد)، لكي تغادر جسدها المستغرق في عمله، وتسافر بعيداً إلى مكان ساحرٍ أبداً.

أن أنشطرَ. هل أستطيع أنا أيضاً فعل ذلك؟ هل أفلتُّ لحظاتٍ من لجّةِ التوبيخ التي تغرقني فيها فيليس؟ أغمض عينيه كي لا يرى في ذاك الفمِ بريقَ الذّهب الجهنّميّ. كان يسمع فيليس تواصل كلامَها بصوتٍ أخرس، كأنّما ضُرب حجابٌ بينه وبين محادِثَتِه:

- ... صورتُها، صورٌ عديدة، صورة واحدةٌ لا تكفيك... إنّها أجمل هديّة توصّلت بها! صورتُكِ... أتأمّلها... من الصّباح إلى المساء، وكُنتَ...

ردّدَ في ذهنه: تفكّرُ في غِرتي، في ابتسامتها وهي في الزّورق. في شرائطِها، في شفتيها الطفوليّتين، في رموشها الطّويلة. في نزهاتنا. الكلماتُ تتماوجُ كالسّحب، أو ربّما هو من يتماوج بعيداً عنهما معاً، بعيداً بحيث لا يُدرَك.

- ... لقد اضطهدتني، عذّبتني بشكوكك، بشكاواك، بوهنك العصبيّ، أردت أن تفرض عليّ زهدك. وماذا أقول في سلوكك المشين قُبيل خِطبتنا؟ بأيّ وجهٍ سمحت لأبويك أن يستعينا بمخبرٍ، أجرى تحقيقاً فعلياً عن وضعيّة أهلي المالية، وعن أخلاقهم وأخلاقي؟ كيف أغفر لك هذا الحذر المشين؟

انفجر الغلُّ الذي طالَ حبسُه. بصوتٍ حازمٍ وجَلْسةٍ مستقيمة، لم تكتم فيليس أيّ تفصيل يخصُّ خطيبَها، فذكّرته بالعذابات اليوميّة، والدّموع التي ما انفكّت تسفحها منذ شهور. بلغ بها الأمرُ حدّ أن تكشف أمام القضاة الثلاثة نزوات هذا الخطيب المتقلّب:

وكان هو ينظر إلى فيليس، إلى شعرها البائس، عينيها القاسيتين. ماذا قالت؟

- غرامياتك... طفلةٌ... ريفا.

قالت غريت:

- حان وقت وضعِ حدٍّ لكلّ هذا. عليكما أن تفسخا خطوبتكما.

مبتهجاً، سايرَ إرنست فايس رأيَ غريت. أمّا إيرنا، فقد حاولت، محاولةً خجولاً، إيجاد مخرجٍ أسعد.

تكلّموا جميعاً. سُدّدت أنظار القضاة الأربعة صوبَ الدكتور كافكا، السّاكن في مواجهة العاصفة. لائذاً بصمته. شبك ذراعيه أمام صدره. هل يحتوي ضربات قلبه؟ متحجّراً، كان يبدو عاجزاً عن التفكير، عن الملاحظة، عن الكلام، عن المشاركة فيما يجري حوله: قصاصٌ على الملأ.

لم يجرؤ أحدٌ على كسر الصّمت. كانوا ينتظرون أن يستعيد الحياةَ.

قام من موضعه، حيث كان محصوراً بينهم. ولعظيم دهشتهم توجّه نحو غريت التي خلّصته من خطوبته.

قالت:

- ستكرهني؟

- أنت مخطئةٌ، وإن كرهك العالمُ فلن أكرهك. لقد انبرَيتِ للقضاء في هذا الأمر، وكان ذلك شاقاً عليك، وعليّ، وعلى الجميع. في الواقع، كنتُ جالساً مكانك. كلّ اللّوم الذي وجّهتِه إليّ أنت وفيليس، قد اجتررته مائة مرّةٍ من قبل. لكن ما كان عليك أن ترسلي رسائلي. ما كنت أنا لأفضح رسائلك البتّة.

- أعد إليّ رسائلي أرجوك، ينبغي أن أُعدمها، أن أحرقها.

- كلاّ، سأحتفظ بها، لكن لا تخشي شيئاً.

استأذن من فيليس:

- من حقّك أن تغضبي منّي. لكن لمَ أخضعتني لهذه المحاكمة؟ لهذا العقاب على الملأ؟ لهذه الإهانة؟ لقد أحسست نفسي مثل كلب!

وفي المساء نفسه، دعا الودودَ المتعاطفةَ إيرنا إلى العشاء في البلفيدير، وهو مطعمٌ على ضفّة النّهر.

قالت:

- أودّ أن أواسيك.

- لستُ حزيناً، أو بالأحرى أنا حزينٌ لأنّي ما أنا عليه، وفي هذا الجانب لا سبيل إلى مواساتي.

- لمَ لم تُدافع عن نفسك آنذاك؟

- لم يكن عندي شيءٌ حاسمٌ لأقوله.

أخذ يدندن مقطعاً من أوبرا كارمن: «الفمُ المقفل لا تدخُله ذُبابة».

ثمّ واصلَ:

- ومحتملٌ أنّي كنت لأصمت حتّى لو كان لي شيءٌ حاسمٌ أقوله. على سبيل التّحدّي.

- لماذا؟

- كلّ شيء ضاع. لقد أدركتُ ضيق فيليس. إنّها بريئة. منذ سنتين وهي تعاني بسببي، أكثر ممّا ينبغي أن يعاني أيّ مذنبٍ. لم تستطع أن تُدرك أنّني لا أستطيع الخروج من جحيمي إلا بالأدب. لكن لننسَ كلّ ذلك.

طلب نبيذاً، ولنفسِه قطعةَ لحمٍ مشويّة سميكة ونصف ناضجة. أصابت إيرنا الدّهشة:

- كنت أحسبك نباتياً. فيليس ما انفكّت تشتكي من ذلك!

- كانت تصرّ على أن أتناول اللّحم. ورغم إلحاحها لم أخضع. لطالما سعيت إلى الإفلات من السّلطة، من كلّ أشكال السّلطة. على مائدة والديَّ، لا آكلُ مثلهما، وإنّما ضدّهما! ثمّ ها أنا ذا، هذا المساء، أتحوّل في حضرتِك إلى لاحمٍ. وأشربُ نبيذاً. أمرٌ غريب، إنّ المضايقات تقوّيني.

- ماذا فعلت ظُهرَ اليوم، بعد...

- بعد محاكمة الفندق؟ ذهبت إلى مسبح شترالاور أوفر. فوجدت فيه العديد من الرّجال ذوي الأجساد القويّة يركضون كالحيوانات. سبحتُ طويلاً. وتمدّدت في الشّمس على الألواح، وتتبّعت دبيب التعب في مفاصلي.

متأثّرة ابتسمت إيرنا:

- غداً مساءً تُغادر؟

- أجل. هل تريدين أن أمرّ ببرلين، أثناء عودتي من لوبيك (شمال ألمانيا)؟ أرغبُ كثيراً في رؤيتك! نستطيع أن نذهب معاً إلى بوتسدام (ألمانيا). وفي انتظار ذلك، هل تسمحين لي بأن أكاتبك؟

صباح اليوم التالي، أرسل رسالة وداع إلى كارل وأنّا باور، والدَي فيليس. ومساءً، رافقته إيرنا إلى المحطّة. راجفةً، مدّت إليه يدها، أكّدت له أنّها تثق فيه. كان سعيداً بكلماتها، ووعدها قائلاً:

- سأكتب إليك من لوبيك.

انتظر أسبوعين قبل أن يشير في يومياته إشارةً غير دقيقة بالمرّة إلى ما صار يدعوه «محكمة أسكانيشر هوف».

أسبوعان من اجترار الإهانة التي أذلّته ذاك اليوم. كأنّما ركبه العارُ إلى الأبد.

الإهانة. موضوعةُ الرّواية التي بدأ الاشتغال عليها.

تلك الليلة، أو لُغز ماريينباد

قضى خمسة عشر يوماً، حافي القدمين على شاطئ ماريبليست الدانماركيّ، صحبة الدّكتور إرنست فايس وراحيل زانزارا، اللذين التقاهما صدفةً في لوبيك.

أحيانا كانت تزعجه خلافات ذينك العاشقين. الفندق متواضع. وعلى المائدة، لا توضع فاكهةٌ أو خضر، لا يأكل إلا اللّحم، أمرٌ فظيع، يشعره بالغثيان. لكن الشّاطئ يكاد يكون خالياً، والجوّ جميل، فكانوا يسبحون كلّ يوم.

يظهر في إحدى الصور جالساً القرفصاء على الرّمل. بجانب إرنست فايس، السّمين كدُبٍّ، يبدو مثل مراهقٍ واهنٍ، شاردٍ، على غير هدى. من الصّباح إلى المساء يجترُّ الكلام الذي ألقت به فيليس على وجهه. تحرقُه الإهانة التي عرّضته لها، كأنّما لُفَّ في حقلِ قُرّاصٍ. طوراً ينتابه الارتياح لإفلاته من الزّواج، وتارةً يصيبُه اليأس لفقدِه خطيبته. يقول لنفسه إنّه يحس بنفسه أفرغَ من الصَّدفةِ التي يوشك أن يحطّمها بقدمه.

في طريق عودته توقّف ببرلين. وكما هو متوقّعٌ، التقى بإيرنا[1]، الودود على عادتها. زارا معاً قصر سان-سوسيه ببوتسدام، وأبطآ في غرفة فولتير، وبديا متفاهمين لدرجة أنّهما خطّطا للسّفر معا في أعياد الميلاد.

الأحد ٢٦ يوليو/ تموز ١٩١٤، عاد إلى براغ حيث انطلقَ النّفيرُ. لم يكن سعيدا بإعفائه من الخدمة العسكرية (فالحرب كانت لتعفيه من المكتب، ومن براغ والملل)، كان غير عابئ بإعلانات الحرب، بتحرّك الفيالق العسكرية، بالجنون الذي بدأ يتلبّس أوروبا ويفتح أقفال الشرّ موشكاً أن يجتاح العالم.

يوم ٢ أغسطس/ آب، لّما علم بأنّ النّمسا قد دخلت الحرب، قضى الظّهيرة في المسبح.

تابع، غاضبَ النظرة، المسيرات العسكرية «إحدى أشنع الظواهر المصاحبة للحروب». ملاحظاً بارداً، بحسٍّ كلبيّ في أغلب الأوقات، كان يهجو «حماقة الجنود، عمى الحشد المجرمَ». استُدعيَ زوج أخته إلى خدمة العَلم، فقررت أخته، إيلي، الاستقرار وطفلَيها، فيليكس وغِرتي، في بيت والدَيها. ترك فرانتس غرفته لأخته وانتقل إلى العيش في بيتها. إنّها المرّة الأولى التي يعيش فيها منفرداً، في شقة من ثلاث غرف صامتة. ظلّت حياته على رتابتها: العمل في المكتب حتى السّاعة الثانية والنصف، فالغذاء في بيت والديه، ثم العودة إلى منزله؛ قراءة الجريدة والبريد، وقيلولة طويلة حتّى السّاعة التّاسعة؛

(١) لم تُحفظ أيّ رسالةٍ من رسائله إلى إيرنا.

فجولة على الأقدام تقوده إلى العشاء في بيت عائلته. وفي العاشرة، العودة بالترامواي. مسمّراً إلى مكتبه، يظلُّ يشتغل على روايته الجديدة حتّى تخور قواه. لا يلتقي أحداً، سوى ماكس، ولدقائق معدودة، حين عودته من المكتب. روايته تتقدّمُ على أكمل نحوٍ، حتّى أنّه طلب في شهر أكتوبر/ تشرين إجازة أسبوع، ألحقها بأخرى مماثلة. كان يشتغل حتّى السّاعة الخامسة صباحاً، لا بل حتّى السّابعة والنّصف. تلكم كانت طريقته في خوض المعركة. في غمرة سعادة الكتابة، كان يتحوّل. عصراً، كان يسير منفرداً في جولاتٍ طويلة بين ممرّات حديقة شوتيك، أجمل الأماكن ببراغ، بعصافيرها، والقلعة، وأروقتها، والأشجار العتيقة التي ما تزال تحتفظ بأوراقها من السّنة الماضية، وضوء الشفق الخافت. يلتهم رواية لسترِندبرغ، **الفراق**، عملٌ مذهل.

لم يلبث أن قرأ على ماكس الفصل الأوّل من **محاكمته**، وجرداً بالنّصوص التي بدأ الاشتغال عليها: **ذكرياتٌ من سكّة-الحديد بكالدا، معلّم المدرسة بالقرية، النّائب**. يقول: «ها أنا ذا، وأمامي خمس قصص أو ستٌّ، واقفة كما تقف الخيول أمام مدير سيرك». لم يكمل إلا **مستوطنة العقاب**، والفصل الأخير من **أمريكا**: «مسرح أوكلاهوما».

منذ «محاكمة أسكانيشر هوف» لم يصله عن فيليس خبر. ولا سعى إلى تقصّي أخبارها. نهاية أكتوبر/ تشرين، وصلته منها رسالةٌ، رسالةُ ندمٍ مجدّداً: نادمة هي على عدوانيّتها، وعصبيّتها، ونفاد صبرها.

تسأله:

- هلاّ شرحت لي ما كان موقفكُ يومئذ؟ وما موقفك اليوم؟

انقلبت موازين القوى. الآن، فيليس هي من يرجوه ليكتب إليها.

خصّص أماسي كثيرةً ليجيبها. وبقراءة أوراقه العديدة تلك، حوالي خمس عشرة ورقةً، نستطيع أن ندرك حجم التدّخلات التي طالتها بالتّغيير، ندرك التبرّم الذي تشي به النبرةُ المتأنّية لأستاذٍ تُجاه تلميذةٍ شوشّت انتباهها ذُبابةٌ.

«فيما يخصّني أنا، لم يتغيّر شيءٌ منذ ثلاثة أشهر؛ لا شيء تغيّر بالمطلق، لا إيجاباً ولا سلباً. ما تزالين بالنّسبة إلى عملي[1] أعزّ صديقةٍ وألدّ عدوّة».

بيّن لها أنّ بداخله كائنين يتصارعان: أحدهما يتطابق تقريباً مع الصورة التي تريدها فيليس، وهذا الكائن يحبّها حباً يفوق كلّ قدرٍ؛ أمّا الثاني فيدفعها عن نفسه بكلّ ما أوتي من قوّة، لأنّها لا تحمل لعمله ونمط حياته إلا الكراهية والخوف. والحال أنّه لا سبيل إلى تغيير هذا الرّجل، ولا ذاك، اللهم إلا إن حطّمناهما معا.

يضيف: «إذا ما كنت قد صمتُّ بفندق أسكانيشر هوف، فإنّما فعلت ذلك لأنّ نصب عيني ظلّ ماثلاً نفورك من الطّريقة التي أنظّمُ بها حياتي».

---

(١) العمل في هذه الأسطر وما يليها يشير إلى الكتابة.

على أنّ واجبه أن يعتني بعمله، لأنّ وحده عمله يمنحه الحقّ في الحياة.

ويخلص إلى القول: «رسائلنا لم تحمل لنا شيئاً يستحقّ الذكر، في أجملها تختفي دودةٌ؛ سأقلُّ في الكتابة إليك، لا ينبغي أن نعيد سيرة عذابنا».

أقلّ من ثلاثين كانت الرّسائلُ والبطاقاتُ البريدية التي أرسلها سنة ١٩١٥. لكن، مرّة أخرى طُرحت مسألة اللقاء، ومسألة الزّواج. يومَي ٢٣ و٢٤ يناير/ كانون الثاني التقيا في منتصف الطّريق بينهما، في بودنباخ. عانت فيليس كي تحصل على جواز سفر. كان عليها أن تسلك طريقاً أطولَ، وتقضيَ ليلة بيضاءَ في القطار.

هما ذان وجها لوجه. أبدى إعجاباً شديداً بسترتها. كلاهما رأى أنّ الآخر لم يتغيّر. أثناء الساعات التي قضياها معاً، استرجعا أحاديثهما من حيث كانا قد تركاها قبل القطيعة. كلّ منهما يصرّ على مواقفه، لا يتزحزح عنها. فيليس ما تزال تشترط شقّةً مريحةً، حيث تستطيع أن تضع لمستها الخاصّة (لهذه الفكرة ارتجف فرانتس)، طعاماً وفيراً (يمكنُ تجاوزاً)، الخلود للنوم في الحادية عشرة (مستحيل)، غرفة نومٍ دافئة (يحس من الآن باختناق). ولكي تثبت أنّها على صوابٍ، أعادت ضبط عقارب ساعة فرانتس:

قالت:

- إنّ ساعةً تتقدّم بساعةٍ ونصف، هي ساعةٌ لا معنى لها. إنّها عبث.

بخصوص عمله، لم تطرح أيّ سؤال. لا شيء. ولا حتّى كلمة. وهو أيضاً لم يتنازل عن أيّ شرطٍ من شروطه. تواصل حوار الطُّرشان طيلة النّهار. وفي اللّيل، نام كلّ منهما في سريره بمفرده. كانا يشغلان غرفتين متّصلتين، لكلّ منهما مفتاحٌ من إحدى جهتي الباب الواصل بينهما. وفي اللّحظة التي لم يعد يرى فيها فرانتس حولهما إلا الانزعاج والأسف، صاحت فيليس:

- ما أطيب عيشنا، ونحن معاً هنا!

لا يدري بما يشغل السّاعات التي تبقت لهما معاً، قرأ عليها الفصول الأولى من **المحاكمة**. استقبلتها بصمت، راقدة بعينين مغمضتين على الأريكة. بتراخٍ طلبت منه الإذن أن تحمل المخطوط معها كي تنسخه. كانت تأمل في شيءٍ آخر غير حصّة القراءة اللانهائية تلك.

افترقا.

في القطار الذي يقلّه صوب بيته، كان يقول محدّثاً نفسه: لم نعش ولا لحظةً طيّبةً، ولا دقيقةً من حريّة مطلقة. كلّ منّا يحبّ الآخر كما هو، لكن لا يحسب نفسه قادراً على العيش معه كما هو.

يوم ٢٤ مايو/ أيار، أي أربعة شهورٍ بعد لقائهما، التقيا مرّةً أخرى، هذه المرّة في سويسرا التشيكيّة؛ وكان التّاريخ يصادف عيد العنصرة. أتت فيليس (أوليس غريباً؟) بصحبة غريت بلوخ وأختها إيرنا التي تزوّجت حديثاً. أرسل فرانتس (مدفوعاً بهاجس ترك أثر؟) إلى أوتلا بطاقةً بريدية تحمل توقيعه وتوقيع رفيقاته الثلاث.

في الشّهر التالي، يونيو/ حزيران، التقيا بمفردهما، بطلبٍ من فرانتس. ومن اليومين اللذين قضياهما معاً في كارلسباد، لم تبقَ إلا ذكرى هزيلة: فيليس، بصوتٍ موزونٍ، غنّت له أغانيَ عديدة. وفي طريق العودة، دندن أغنية في باتنيول، أغنيته الفرنسية المفضّلة. مرّةً أخرى طوّقته ذكرى باريس.

سنة ١٩١٦، تسارعت وتيرة مراسلاتهما. صار يكتب إلى فيليس مرّات عديدة في الأسبوع، متوّسلاً تقريباً دائماً ببطاقاتٍ بريدية. ذاك أنّ الرّسائل، التي صارت خاضعةً للرّقابة العسكرية، ستستغرق أسابيعَ كي تصل إليها. وبسبب الحرب، لم يعد فرانتس يملك لحظةً لنفسه. «المزيد من الالتزامات، المزيد من المشاغل، المزيد من الأرق، المزيد من أوجاع الرأس (أشبه بطعناتٍ خنجر فوق عينه ويمينها)»، هكذا صارت حياته الآن. مصنع الأميانت، ذاك المصنع البائس، قد صار على عاتقه الآن، بعدما استُدعي إلى الخدمة العسكرية زوجُ أخته الذي كان يديره. وفي المكتب، نظراً لنقص الموظّفين، زادت ساعات عمله، صار يشتغل ثماني ساعاتٍ في اليوم. وتتويجاً لكلّ ذلك، ألزمه والده بأن يعينه في المتجر، نظراً لأنّ أغلب العمّال قد التحقوا بالجبهة. صار يكدّ من الصّباح إلى المساء. لم يعد يملك لنفسه ولا ثانية واحدة، ولا القوّة للكتابة. إنّه يائس، كفأرٍ في شركٍ.

في أبريل/ نيسان، طلبت فيليس أن تراه، بعدما تعبت من قراءة الرسائل التي لا تفضي إلى أيّ نتيجة. حذِراً، نبّهها:

«ما عليك إلا أن تثيري لقاءاتنا السابقة، لكي تعدمي الأمل في لقاء آخر».

أخبرها بنيّته في قضاء عطلة الصّيف بماريينباد، مكان رائع الجمال، تحوطه غاباتٌ عظيمة رائعة؛ كثيراً ما يقصده لدواعٍ وظيفية، حتّى أنّه كان فيه الشّهر الماضي. اقترحت عليه فيليس أن ترافقه.

أجابها: «موافقٌ جداً».

فاتح يوليو/ تمّوز، كان في غاية السّعادة وهو يقفل ملفّاته، ويملي آخر التعليمات، ويودّع المكتب تاركاً إيّاه في حالٍ من النّظامِ لا تشوبه شائبة.

في ماريينباد، أتت فيليس تنتظره في المحطّة. وبالفندق، كانت غرفته القبيحة تطلّ على ساحةٍ؛ لقد بدأت الأمور بدايةً سيّئةً. ليلة ضيقٍ أولى. غبَّ ذلك، عزَما معاً على إنجاح عطلتهما، فاستقرّا في بالاصٍ بقلعة بالمورال. هناك، كانت له غرفةٌ واسعةٌ وجميلة. لكنّ شجاراتهما أفسدت كلّ شيء. ولكي يهربا من حبسهما، كانا يتجوّلان طويلاً، أحياناً تحت دفقٍ من المطرّ، وأحيانا في فترات صحوٍ. وكانا يسلّيان نفسيهما بقراءة الكتاب المقدّس.

حاول قَصرَ أحاديثه مع فيليس على موضوع واحدٍ يثير حماسته إلى أبعد حدّ: البيت الشّعبيّ اليهودي ببرلين، الذي أسّسه في شهر مايو/ أيار كلّ من زيغفريد ليمان، وماكس برود، ومارتن بوبر. رجا فيليس بإلحاحٍ كبيرٍ أن تصير متعاونةً فيه، لدرجة أنّها قرّرت دراسة المشروع. وكانت فرحته بذلك عظيمة حتّى أنّه

كتب إلى ماكس في الحال يطلب منه إرسال منشورات. إنّ هدف المؤسّسة هو توطيد سبل الاتّصال بين يهود الغرب ويهود الشّرق، وضمان تعليم الأطفال الأيتام الرّوس والبولونيّين الذين تعجّ بهم برلين.

شجّع فرانتس فيليس:

- من هذا العمل سنجني عسلاً أكثر ممّا يمكن أن نجنيه من كلّ زهور غابات ماريينباد كلّها.

يوم ٨، ذهبا إلى تيبل، حيث كان على فرانتس أن يحلّ نزاعاً وظيفياً. كانت علاقاتهما ما تزال بائسة. ومن تلك المدينة الصّغيرة، التي لم يقضِ فيها إلا بضع ساعاتٍ، وجد فرانتس الوقت ليخربش إلى ماكس ثلاثة أسطرٍ:

«أيّ كائنٍ أنا! أيّ كائنٍ أنا! أعذّبها وأعذّب نفسي حتّى الموت».

يوم ٩، لم يتغيّر شيء، الغيوم لم تتبدّد، وأنى لها أن تتبدّد؟ ومع ذلك! بعد سلسلة من النّهارات الفظيعة، واللّيالي الأشد فظاعةً، حصلت المعجزة، وها علاقتهما تشهد أيّاماً عذبة، حسب فرانتس لن يعيش مثلها أبداً.

كانا على خير حالٍ، ويشعران بنفسيهما قويّين، لدرجة أنّ فرانتس، بطلب من فيليس دونما شكّ، كتب إلى السيّدة باور يوم ١٠ يوليو/ تمّوز. صار من حقّه أن يناديها مرّةً أخرى: «أمّي العزيزة». أعلمها بتوطّد «علاقته مع فيليس للمستقبل».

يوم ١٢، أعلم أوتلا بأنّ أموره وفيليس تجري على نحوٍ أفضل بكثير.

يوم ١٣، انطلقا إلى فرانتسنسباد، وهي منتجع قريب من ماريينباد، حيث تحظى يولي كافكا، بفترة نقاهةٍ رفقة ابنتها فالي.

صاح معلناً:

- سوف نتزوّج ما إن تنتهي الحرب، وسوف نستقرّ بضواحي برلين.

لقد مرّ اللّقاء الخاطف بأمّه، في حضور فيليس، على أكمل وجهٍ... لدرجة أنّه أصابه بالرّعب.

ما الذي حدث؟ الرّسالة، من عدّة ورقاتٍ، التي بعث بها يوم ١٢ إلى ماكس (نَجيِّه) توضّح الأمر: الخوفُ من أن يرى فيليس على «حقيقتِها» (هل ينبغي أن نقرأ «عُريِها»؟) قد تبدّد. لقد أدرك أنّه لم يكن يعرفها البتّة، أنّها كانت تمدّ إليه يدها. وقد قبل مساعدتها. لقد ربطته بخطيبته السّابقة أواصر لم يعرف لها حتّى اللّحظة مثيلاً. فإذ ولج إلى حميميّتها، رأى نظرةَ امرأةٍ واثقةً.

- كم كان جميلاً بريق عينيها العذب، وسط انبلاجِ هاوية الأنوثة ذاكَ؛ لا حقّ لي في المقاومة؛ (ثمّ خلص إلى القول) إنّها المرّة الأولى التي أعتقد فيها بإمكان حياةٍ زوجية.

أيّ تعفّف ينتهجه في هذا التقرير! أيّ صعوبة يحسّها في قول إنّ الأقفال قد كُسرت! لقد مارسا الحبّ.

هل كانت تلك المرّة الأولى؟ لا ندري. المؤكّد هو أنّ فيليس قد منحته الثقة تلك اللّيلة. لقد جاوزَ خوفه من الشقِّ الطّويل، الضيّق الرّهيب. لقد اكتشفَ، على حدّ قوله، جمالَ جسدِ خطيبته الرّشيقِ والكريم. ويبدو أنّ الملذات نفسها قد تجدّدت في الليالي اللاحقة. خمسة أيّامٍ من السّعادة.

عادت فيليس إلى برلين يوم ١٤. وبقي هو وحيداً في مارينباد حتّى يوم ٢٤ يوليو/ تموز. وعلى الرّغم من شكواه من آلامِ رأسٍ حادّة، إلا أنّه أشدّ هدوءاً واسترخاءً وعذوبة، سريعٌ، وواثق. نصح عمّه بأن يقضي عطلته في مارينباد، مكان هادئٌ، كالجنّة بعد طرد آدم منها. أرسل إليه، مع دليل المدينة، لائحةً بالأشياء والأماكن الجيّدة: «الإفطار في دياناهوف (حليبٌ محلّىً بالسكّر، بيض، عسل، زبدة)، تناول وجبة خفيفة في ماكستال (حليب رائب)، غذاء سريع عند نيبتون، تناول فواكه عند البقّال، أخذ قيلولة سريعة، تناول حليبٍ خاثرٍ عند دياناهوف، شرب حليب رائب سريعاً عند ماكستال، والعشاء في نيبتون (عجّة بالخضر، جبن الإيمانتال، بعضٌ من البيض النيء مع قليل من البازلاء الطريّة) ثمّ الجلوس في الحديقة البلدية لعدّ ما بقي لديك من النّقود، والمرور على محلّ الحلوى، والنّوم في ليلةٍ واحدةٍ قدر ما نمتُه أنا في اللّيالي الإحدى والعشرين التي قضيتها هنا».

هواء الغابة فتح شهيّته. تمادى في وجبات الغذاء الطيّبة، وصار يتجوّل متناولاً حبّات كرزٍ سوداء غضّة؛ زاد وزنه؛ يقرأ، يكتب،

يمشي ساعاتٍ طويلة تحت الأشجار المتشابكة. بجذع عارٍ، يتمدّد في الأخاديد المكسوّة بطبقة من العشب سميكة ودافئة. هناك يبقى، وحيداً، تحت الشّمس، في منأى عن الأنظار. يا لها من سعادة! منظر التلال المتوسّطة هذا، هو المفضّلُ عنده. ذاك أنّ الجبل والبحر بالنّسبة إليه مفرطان في البطولية.

علم من ماكس أنّ أستاذه لمادة العبرية، جورج لانغر، في ماريينباد رفقة شخصيّة مقدَّرة، خاهام بيلز، رئيس حركة الحاسيديم. بدافعٍ من الفضول، وإرضاءً لماكس اختلط، ذات مساءٍ، بالأشخاص العشرة الذين يرافقون الرّجل المقدّس أثناء جولته. وغداة ذلك مباشرةً أرسل إلى صديقه تقريراً مطوّلاً عن أفعال وحركات الخاهام المذكور، رجل ملغز، قليل الكلام.

لدى عودته إلى براغ، أيقظَ الزواجُ المنتظر هواجسَه. قال لنفسه: إنّنا نحسُّ نفسنا قريبين بعضنا من بعض، نحسب أنّنا نمسك بعضنا بصلابةٍ، والحالُ أنّنا لا نمسك إلا ريحاً.

طيلة أربعة أشهر تقريباً، لم يثر مع فيليس، في الرّسائل التي يبعث بها إليها، إلا موضوع البيت اليهودي الذي قبلت هي أن تكون متعاونةً فيه. مارس عليها استبداداً فعلياً، وكان ينتظر منها نوعاً من الخضوع، من الطّاعة. يقول إنّه يتذوّق بهجة التحكّم في إنسانٍ ما.

طالب خطيبته بصورٍ تكون فيها محاطةً بالصبايا اللواتي تعتني بهنَّ.

قال لها: «إنّ الصور تبيّن لنا ملامح ما كنّا لندركها بأمّ أعيننا».

ينصحها في كلّ ما يخصّ شؤون لاجئاتها الصّغيرات القادمات من شرق أوروبا، واللواتي تثير اهتمامه أدنى تفاصيلهنّ. يرسل إليهن تقريباً كلّ يوم كُتباً، ويعلّق على كلّ الأعمال التي يرسلها، فيكيل المديح إلى قصّة ديكنز **دوريت الصّغيرة**، ويضمّن إرسالياته سكاكر، وشوكولاتة، وألعاباً، وكاكاو.

لا بل بلغ به الحدّ أن كتبَ:

«كأنّما هؤلاء الصّبايا هنّ بناتي، إنّ الملجأ يقرّب بيننا جداً، إنّه ينسج بيننا روابط روحيّة من القوّة بحيث أبدي استعداداً فعلياً لأن أتكلّف بكلّ المصاريف التي تكبّدك إيّاها تلك الصّبايا. لا تبخلي عليهنّ بمساعدتك».

مناسبةُ التسلية الوحيدةُ: رواق غولتس بميونخ، الذي ينظّم أمسيات أدبية حديثة، دعا ماكس برود وكافكا لقراءة بعض نصوصهما على العموم. اختار ماكس قراءة بعضٍ من قصائده، بينما اختار فرانتس قصّة **في مستوطنة العقاب** التي كان يعتبرها أجودَ ما كتبَ من نصوص سنة ١٩١٤.

اِقترح على فيليس أن تلحق به إلى ميونيخ. لا يعرف بعدُ تاريخَ القراءة المفترضة، وليس حتّى متأكّداً ممّا إذا كانت ستتمّ. لكنّه مهجوس من هذا السّفر، سيتمُّ، كلاّ، لن يتمّ. سوف أذهب، كلاّ، لن أُمنح التأشيرة ولا موافقة الرّقيب.

«معجزةٌ بعد معجزةٍ»، ها كلّ شيءٍ جاهزٌ، كلّ شيءٍ حُلَّ. ادّعت فيليس مانعاً. ألحَّ. رضخت. انطلقَ من براغ يوم الجمعة

١٠ نوفمبر/ تشرين الأوّل، بمفرده. لم يرافقه ماكس. رفضَ مكتبُ البريد، حيث يحتلّ منصباً هامّاً، منحَه يومَي إجازة. عهد إلى فرانتس بقراءة قصائده[١].

وصل فرانتس إلى ميونيخ نهاية الظّهيرة. التقى فيليس في فندق بافاريا هوف. ومساء اليوم نفسه[٢]، في السّاعة الثامنة، قرأ فرانتس «قصّته الشّنيعة»، بلا مبالاةٍ تامّة، (يقول)، وكأنّما النّص لا يعنيه البتّة، فمُه كانَ أبردَ من موقد فارغ. مع أنّه، بالعادة، يسخن حتّى يبلغ درجة الهيجان. ما يزالُ أصدقاؤه يذكرون كيف كانت قراءته **التحوّل**، هذيانٌ من الحماس.

تلك الأمسية في ميونيخ فشلٌ هائل. فيليس، شأنها شأن جلّ المستمعين، مرعوبةٌ من وحشيّة التّعذيب التي يتعرّض لها المحكومون في ذاك السّجن، حيثُ الجميع متّهمون، وحيث لا عقوبة إلا الموتُ، وحيث الألم لا يفضي إلى أيّ خلاصٍ.

في اليوم التالي، يوم السّبت، ساعة الغذاء، دخلا محلّ حلويّاتٍ فظيعاً. فيليس، غاضبةً، قالت له بقسوةٍ رأيَها في نصّه، ولا بأس إن استاءَ. أصابته عدوانيّتها في مقتل. بنبرةٍ حادّةٍ أجابها:

---

(١) كان كافكا مستاءً، إذ علم أنه لم يتلقَّ الدّعوة إلا بطلبٍ من صديقه ماكس برود، فحرص على أن يكون لصديقه نصيبٌ من مكافأة المشاركة والقراءة المزدوجة. (المؤلّفة)

(٢) على خلافِ ما ظنَّ البعضُ، لم يحضر ريلكه هذه القراءة، لكنّه بعد قراءة **التحوّل**، كتبَ إلى النّاشر يقول: «احجز لي نسخةً من كلّ ما يُنشر لـ ف. ك.، أؤكّد لك أنّي لستُ أسوأ قرّائه». (المؤلّفة)

- إنّ شعوري بالذّنب قويٌّ على الدّوام، فلا حاجة بك إلى إذكائه، لكنّني لست قوياً بما يكفي لأبلع مثل هذا الطّعام. ثمّ إنّ هذا النّص ليس وحدَه المؤلمَ. كلّ ما كتبته حتّى اللّحظة هو كذلك، زماننا، وزماني أنا على وجه التّخصيص، كلّها شديدةُ الإيلام. منذُ زمنٍ بعيدٍ وزماني أبعد من أزمنةِ الجميع. يعلم الربُّ أيّ دركٍ كنت سأنزل إليه لو كان مسموحاً لي أن أكتب كما شئتُ!

- بوركت السّماءُ لأنّها نجّتك من ذلك! لا أحد يحتاج أن يسمع مثل هذه الفظائع.

- الفظائع في كلّ مكانٍ، إنّها عند أبوابنا. لقد أرسلت إليك كتاب أرنولد تسفايغ، **موتٌ طقوسيّ في المجر**. هل قرأته؟ أنا أجهشت بالشّهقات في بعض المقاطع؛ اضطررت أن أوقف قراءته.

- **مستوطنتُك** منفّرةٌ أكثر من تلك التراجيديا اليهودية! تلك المسحاةُ التي تدوّن القانون في لحم الجسد، أيّ ساديّة! كيف استطعتَ!

- القانونُ لا يُتعلّمُ، ينبغي أن يقتحِمَ الدّمَ. لكنّك لا تحبّين شيئاً ممّا أكتبه، لا شيء، ولا مجموعةً من مجاميعي حظيت بالقبول لديك. حتّى كتاب **تأمّلات**، الذي قبلتِ أن تُسدّد حقوقه إليك.

- لا علاقة لهذا بذاك! وأذكّرك، بأنّك أنت من بادر إلى الأمر.

لم أطلب منك شيئاً. أمّا عن المبلغ الذي يحوّله إليّ ناشرك، فلا داعيَ للحديث!

مستاءةً أكثر فأكثر، لامته على إجبارها على القدوم إلى ميونيخ:

- أنا، كنت أفضّل أن أراك في برلين. لكنّك مرّةً أخرى لم تفكّر إلا في نفسك، إلا فيما يسعدك، وأبداً لم تفكّر فيما يسعدني أنا. أتعرّفُ ها هُنا أنانيّتك.

- لا يمكنني أن أقبل منك، أنت تحديداً، أن تلوميني على الأنانية، أنت التي تمارسين الأنانية بسهولة بالغةٍ، كأنّها هي أمرٌ طبيعي.

سافر الخميسَ، فجراً.

وفي حين أدّى شنآنهما الأوّلُ إلى نضوبِ معينِ إبداعه، فإنّ الشجار والفشل الذي شهدت عليه مدينة ميونخ قد حرّك فيه إبداعيةً مذهلة: فضلاً عن القصص الأربع عشرة التي تتألّف منها **مجموعة طبيب القرية، كتبَ الجسرَ، والصيّاد غراكوس، والفارس على الدّلو، وحدثٌ يوميّ، والحقيقة حول سانشو بانسا، وصمتُ الحوريات، وتأمّلاتٌ في الخطيئة.**

لم يسبق له قطُّ أن اشتغل على نحوٍ أفضلَ، أن اشتغل في ظروفٍ بهذا القدر من الأريحيّة. نهاراً يقيم بالمنزل الصّغير الجميل الذي أعارته إيّاهُ أوتلا، والواقع بشارع الخميائيّين. رائعةٌ هي الإقامةُ هناك، ورائعةٌ هي طريقُ العودة منتصفَ اللّيل للنوم في الشقّة التي يكتريها بقصر شونبورن، أحد أجمل الأماكن بحي مالا سترانا، شقّتُه

مؤلّفة من غرفتين عاليتين وجميلتين، باللّونين الأحمر والذّهبي، كان يخال نفسه في قصر فرساي. وقد وصف الشقّة لفيليس بالتّفصيل بدايةَ شهر يناير/ كانون الثاني[1].

في يوليو، احتفلت عائلة كافكا في براغ بخطوبته المرّة الثانية. وهذه المرّة كان الحفلُ أقلَّ بذخاً من السّابق، ذاك أنّ الحربَ كانت تستعرُ منذ سنواتٍ ثلاث. وغداةَ ذلك، انطلقت مراسيم الحفل صوب ترانسيلفانيا، إلى مدينة أراد، حيث تقيمُ إحدى أخوات فيليس. توقّف الخطيبان يوماً أو يومين ببودابست؛ السّفرُ طويلٌ والتّفاهمُ بينهما متذبذب.

عاد بمفرده إلى براغ، بعد توقّفٍ في فيينا.

وكان نومه بالأحرى جيّداً.

تحدّد موعدُ الزّفاف في سبتمبر/ أيلول.

---

(١) بين هذه الرّسالة، رسالة بداية شهر يناير/ كانون الثاني، ورسالة ٣٠ سبتمبر/ أيلول سنة ١٩١٧، لم تُحفظ أيّ من رسائله إلى فيليس: ثقبٌ أسودٌ مساحتُه تسعة أشهر. (المؤلّفة)

الحرية... الحرية!

لا يدري على وجه الدقّة في أيّ ساعةٍ من الليل بدأ الأمر. سيقول لأوتلا إنّ السّاعة كانت الرابعة صباحاً، ولفيليس الخامسة. كان نائماً فأيقظه انطباع غريب، دفق من اللعاب في فمه، طعمٌ غريب لا طعم له. قام من سريره، وبصق ما في فمه. ومع ذلك، أنار المصباح، وفحص ما بصقه. غريب، حصاة من الدم المتخثّر حمراء قانية، براقة. مستثاراً، كما هي حاله دوماً إزاء الجديد، وخائفاً كذلك، قام من نومه. ثم ما لبث أن بصق قطعة أخرى. ثمّ ثالثة، ثمّ رذاذاً من دمٍ متّصلاً. ذرع غرفته طولاً وعرضاً، قصدَ النافذة، فتحها على مصراعيها، تنفّس الهواء الدافئ، ما يزال الفجر بعيداً. ألقى نظرة شاردةً على ساعته، ثم عاد إلى سريره. لم ينقطع الدم. شرب، ومضمض الماء في فمه كي يتخلّص من الطعمِ عديمِ الطعم المثيرِ للاشمئزاز. يتأمل المنشفة المنقوعة دماً. - دمٌ انقلب لونه إلى حمرةٍ تكاد تكون سواداً. قال لنفسه إنّه قد خسر المعركة التي يخوضها منذ أكثر من خمس سنواتٍ، إنّه ليس نابليون، لن يذهب أبعد من

كورسيكا. أوجاع رأسه وليالي أرقه قد أنهكته. إنها هزيمة ساحقة، استسلامٌ لا مشروطٌ يوقّعه بدمه.

خلف إحساس الهزيمة ذاك، خلف تلك المرارة، استشعر صعودَ ضربٍ من الحماسة، نشوة تحرّر. لقد انتهت المعركة. إنها نهاية خمس سنوات من العذابات، نهاية أوجاع الرأس، نهاية ليالي الأرق التي أصابته بالجنون. من الأنقاض خرج شعورُ حريّةٍ رائعٌ، شعور خفّةٍ مباغتة. حلّق في سلامٍ مع نفسه. عاد إلى مضجعه ونام حتّى الصّباح.

لم يحدث له قطّ أن نام على نحوٍ أفضلَ.

في اليوم الموالي، عاد الدّم، لكن بوتيرة أخفّ. قرّر ألاّ يخبر والديه بشيء. ذهب عند طبيبه، الدكتور موهلشتاين، فشخّص عندَه التهاباً شُعبياً حاداً.

قال فرانتس ساخراً:

- تجمّدٌ في شهر أغسطس/ آب، بينما لم تصبني في عزّ الشتاء أدنى نزلة برد؟

مساء اليوم نفسه، والأيام الموالية، مزيدٌ من الدّم. وصف له الطبيب فحوصاً وصوراً بالأشعّة لصدره. وبتوصية من ماكس زار البروفسور بيك يوم ٤ سبتمبر/ أيلول:

- لقد أصيبَ أعلى الرّئتين. ثمّة خطرُ الإصابة بالسلّ. تلزمك عطلة طويلة في الرّيف، الكثير من الراحة، والنور، والهواء، والشمس.

وأمام عظيمِ دهشةِ البروفسور، صافحه فرانتس وحيّاهُ بحرارة!
Very well

نزل طوابق العمارة الثلاثة بقفزات مذهلة. وهرع إلى ماكس يخبره بالأمر.

- ثمّة خطر الإصابة بالسلّ؟ يبدو أنّك لا تدرك خطورة ما يتهدّدك؟

ماكس مذعور.

- إن المرض قد يكون ملاكاً حارساً، التطوّر هو الشيطانيّ. إلى حدود الآن، ما يصيبني، أحسّه كشيءٍ عذب. ثمّة الكثير من الرقّة في المرض.

- لا أفهمك. هل أنت سعيد بمصيبتك؟

- ينبغي أن تقولَ ما قلتَه بنبرةٍ مغايرة. ليس الأمر بهذه البساطة. لكن، ثلاثة أشهر في الرّيف، في الشّمس، بعيداً عن المكتب. أيّ حريّة هي!

ثمّ أضاف:

- مرضي ليس سراً، لكنّي لا أريد أن يعرف والديّ شيئاً. لديهما ما يكفيهما من هموم. كُن حذراً في حديثك معهما.

يوم ٩ سبتمبر/ أيلول، شهراً بعد حادثة نفث الدّم، كتب إلى فيليس. بيّن لها سبب صمته: النزيف الصدريّ الذي أصابه في عامه الرابع والثلاثين، دونما سابق إنذار، ومن غير أن يكون له

سابقُ حالةٍ في عائلته. وضّح لها أنّه مصابٌ بالسلّ، غير أنّ أوجاع الرأس والأرق، أي أسوأ ما يَخبره من تجاربَ، قد كفّت عن تعذيبه. وكعادته يمزح: «قال الدّماغ: «لا يمكن للأمر أن يستمرّ على هذا النحو»، فصرّحت الرّئتان بأنهما على استعداد للتدخّل». أضاف: «إنّي أتعامل مع السلّ مثل طفلٍ يتمسّك بتلابيب تنّورة أمّه». أعلمها بأنّه سيذهب ليرتاح عند أخته، أوتلا، الملاك الذي يحمله على جناحيه عبر عالمٍ كلّه عقبات. في رسالته الوداعية هذه، والتي يبدؤها كدأبه بـ «حبيبتي»، لم يشفق البتّة على حاله. إنّما قدّم معاينةً لـ «عزيزته المسكينة فيليس»، معاينة دقّت جرس الحداد على غرامياتهما المتفرّدة.

وصل إلى تساوراو مساء ١٢ سبتمبر/ أيلول ١٩١٧. وباستثناء سفرين سريعين الى براغ كي يجري فحوصات بالأشعّة ويستشير طبيبه، لم يتحرّك البتّة من تساوراو. قال لماكس: «لا أريد بأيّ حال من الأحوال ترك تساوراو، إنّي أعضّ عليها بالنواجذ». وقد بقي فيها حتى ٣٠ أبريل/ نيسان ١٩١٧، أي سبعة أشهر. سبعة أشهر كانت الأهنأَ في حياته.

حين استقرّ عند أخته كانت هي تجني حصادها من الجنجل. كانت تستغل، بمساعدة متعهّد، الأملاك الزراعية لصهرها، كارل هرمان، الذي يحارب في الجبهة.

توجد صور كثيرة تجمع فرانتس وأوتلا، أمام مدخل المزرعة. بناء مترّاصٌ ومضيافٌ وسط منظرٍ من التلال المشجرة. والغرفة

التي يشغلها فرانتس، وإن كانت قِبلتُها الشمال-الشرقيّ، إلا أنّها ممتازة، فسيحة ودافئة. لم يكن يشتكي إلاّ من الضّجيج: منذ الفجر يشرع سمكريّ في دقّ صفيحه، فإن كفَّ أخلى الدّور لعامل يدقّ على الخشب. ومن الباحة المقابلة تنطلق صيحات فُلك نوحٍ كلّها، مغطيةً بعضها بعضاً: الإوزّات تتراكض صوب البحيرات كإلهات الغضب، وفي العليّة تصدر عن الفئران جلبة وقحة. وبمنزل قريب يوجد البيانو الوحيد في شرقيّ-غرب بوهيميا كلّها، بيانو تملكه ابنة مزارع ثريّ، وتعزف عليه ضاغطة بأقصى قوتها على الدوّاسة، حالمةً بالذهاب للعيش في براغ.

كفّ فرانتس عن التماس الهدوء وسط تلك الحياة. حسبه الهواءُ النقيّ والغابةُ والضوء. اكتشف موضعاً هائلاً يستطيع أن يستلقي فيه تحت الشّمس: إنّه مرتفع، أو بالأحرى نجدٌ صغير يقع وسط، ويشرف على، منخفضٍ نصف دائريّ. بجذع عارٍ، أو مكتفياً بسراويل تحتية، كان يستلقي هناك، مثل ملكٍ، على أريكة قديمة واسعة ومبطّنة، وأمامه مقعدان. بالكاد كان يمكن أن يُلمح. ونادراً ما كان يحدث أن يظهر عند أطراف نجده رأسٌ أو رأسانِ فيصيحان به:

- انزل عن كنبتك!

لم يكن يتحرّك. ساكناً، يظلّ ساعاتٍ في الشّمس، يشرب، كما أمره الطبيب، لترات من الحليب الطريّ، إمّا مثلّجاً وإمّا شديدَ السّخونة.

قال لأوتلا:

- ربّما أصبحتُ يوماً ما أحمقَ القرية.

يشارك قليلاً في أشغال الحقل. يُطعم العنزات، يكفي لذلك أن يخفض لها عروش الشجيرات الأوفر ورقاً. يتأملها بينما تطحن بجلبةٍ طعامها. إنّها تشبه يهوداً بولنديّين، هذه تشبه بالضبط عمّه ألفريد، وتلك فيليكس، والأخرى إرنست.

مساءً، جالساً بالمطبخ، كان يقشّر الخضار؛ ويهتمّ بأن يرسل إلى ماكس وأوسكار زوجي حجل، وأربعة كيلوغرامات من الطّحين؛ في أزمنة العوز تلك، حتى في البوادي كان يصعب الحصول على اللّحم، والزبدة؛ حتى البيض نادر.

يعيد قراءة **دافيد كوبرفيلد** الذي يدين له **الوقّاد**، الفصلُ الأول من روايته الأمريكية، بالكثير؛ كما يردّد. يحلم بوالده، وبمعركة تاليامنتو التي جرت منذ شهر، وبفرانتز فيرفل. ويكتب رسائل إلى والديه، وأصدقائه، وماكس الذي يمرّ بمحنة عصيبة في حياته الزوجية.

كتب رسالة قطيعة إلى فيليس، لكن إذ ألفاها أشدّ التباساً من عواطفه، أحجم عن إرسالها.

يتأمّل المزارعين المحيطين به: «إنّهم نبلاءٌ لاذوا بالزراعة، نظّموا عملهم بقدرٍ كبيرٍ من الحكمة والتواضع، حتى غدوا محصّنين من كلّ زيغ، إنّهم مواطنون فعليون للأرض».

مرضه؟ بالكاد يشعر به. زالت عنه الحمّى، وتقريباً ما عاد

يسعل، صحيح أنّ نفَسَه يتقطّع، وصحيح أنّه يتعرّق، لكنّ وزنه زادَ وصار ينام جيداً. أخته سعيدة بحضوره. حين يراها قادمة نحوه، ساعة الغروب، وفي يدها شرشف أو وعاء حساء ساخن، يقول لها: «إنّنا نشكّل زوجين مثاليين. لم أشعر بنفسي قطّ أفضل حالاً من اللحظات التي أقضيها وحيداً معك».

أعلنت فيليس أنّها ستزوره. حاول فرانتس ثنيها عن عزمها: طريق طويلة، تغيير القطار مرّات عديدة؛ لكنّها أصرت. لتأت إذن! وقد أتت بالفعل؛ وصلت يوم ٢١ سبتمبر/ أيلول، بعد سفر استغرق ثلاثين ساعةً. التعبُ وثقل الهمّ كانا باديين على وجهها. لم يثر حضورها في نفسه إلا إحساساً بالذنب. ينظر إليها، متعجباً من كونه لا يشعر بأيّ عاطفةٍ، اللهم إلا القلق ممّا قد يلحق بعض عاداته من اضطراب. ظلّ صامتاً أمامها، عاهداً إلى أوتلا بإدارة الحوار، والقيام مع فيليس بجولة على المزرعة. مساءً، تحت نظر أخته، وسعيا فقط إلى أن يبدو لطيفاً، استطاع أن يمثّل الدّورَ؛ لم يفقد بعد موهبته في التمثيل. انفرجت أسارير فيليس، لربّما استعادت الأمل. تبدو صحة فرانتس في أفضل حالٍ!

غادرت في اليوم الموالي، نهاية النهار؛ رآها تركب العربة مع أوتلا التي التفت حول البِركة، فعبر هوَ في خطّ مستقيم، ليلفي نفسه مرّة أخرى مواجهاً المرأة التي لاحقها بحبّه طيلة خمس سنوات. واليوم، باردَ الملامحِ، يلوّح بيده بفتور. وداعا!

الأحد التالي، قصد المحطّة لينتظر أمّه القادمة لتقضي النهار

معهم. هي لم تكن تعلم بمرض ابنها، وكانت مبتهجة لمعرفة أنّه يرتاح عند أوتلا، بالبادية، بعيداً عن فظاعات الحرب. عند نزولها من القطار صاحت:

- لشدّ ما تبدو في حالٍ جيّدة!

وإذ رأته يبتسم، أضافت أنّها قد سألت فيليس، منذ يومين أو ثلاثة، عمّا إذا كان ابنها في مزاجٍ أفضل. وهل تدري بما أجابتني: قالت إنّها لم تلاحظ ذلك!

تجنّب النّظر إلى أمّه التي لم يجد قطّ وقتاً للتفكير فيها. لقد استُهلك جسدُها وترهّل بسبب ولاداتها الستّ، وحياة الكدّ، وغياب العناية تماماً. يفكّر في أخته الكبرى، صبيّةٌ كانت ما تزال قبل ثلاث سنوات أو أربع فقط رشيقةَ القوام، ثمّ هي ذي، بعد ولادتين، تصير ذات جسمٍ منتفخ تقترب هيأته من هيأة جسم أمّها. يثيران في نفسه الكثير من التعاطف حتّى أنّه يحرص على تجنيبهما همَّ مرضه. بالنسبة إلى عائلته، هو يرتاح، ولا شيء غير ذلك.

أمّا هرمان كافكا فقد ظلّ متشكّكاً، وما انفكّ يسأل أوتلا: لِمَ يمدّد أخوك إجازته أسبوعاً تلو آخر؟ بسبب تعبٍ بسيط؟ لا يمكن.

يوم ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني، مارةً ببراغ، استغلت أوتلا انشغال والدتها في المطبخ لتعلم والدها باختصار بحالة فرانتس؛ كان لوقع كلمة السلّ أثر بالغ عليه، لم يجب ابنته لكنّ ملامح وجهه تغيّرت.

طمأنته: لقد زاد وزن فرانتس في تسيراو، وصار ينام جيّداً، ولديه كلّ ما يحتاجه. وإذ تحرّر من المكتب والمعمل، صار إنساناً مختلفاً. سيشفى، واسأل طبيبه وسوف يخبرك.

ظلّ أبوها متوجّساً.

أضافت:

- لا تخبر والدتي أو أخواتي بشيء. إنّه طلب يلحّ عليك فيه فرانتس.

بعد زيارات فيليس وأمّه والآنسة كايزر، سكرتيرته، وما خلّفته فيه من توتّر، رفض زيارةَ ماكس وأوسكار وفيليكس، إذ لم يعد يشعر أنّه في حالٍ تسمح له باستقبالهم، ويفضّل الكتابة إليهم. يحكي لهم لياليه «ليالي الفئران».

«يا له من شعب، صامت، ضاجّ، رهيب. اشتغال سريّ لشعب عمّاليّ مقموع، شعب يمتلك الليل. لم أجرؤ أمس على القيام من سريري، وإيقاد النور؛ كلّ ما جازفت به صيحاتٍ حاولت بها تخويفها. وفي الصّباح، لم أستطع، بباعث من القرف أو الحزن، القيام من فراشي، وظللت مصيخاً السّمع، محاولاً التقاط الاشتغال الدؤوب الذي انخرط فيه فأرٌ طيلة الصباح بالدولاب، منهياً عمل الليلة الماضية أو مهيّئا لعمل الليلة المقبلة. واليوم اتّخذتُ القطّ رفيقاً لي في الغرفة، القطّ الذي كرهته دوماً في سرّي. حتى رائحةُ خبزِ المنزل الزكيّةُ ومذاقُه الطيّبُ يُشمُ فيها ريحُ الفئران».

يحاول أن يفرغ نفسه، ومحيطه، متّبعاً طريق الطاوية. قال لأخته: أنا صينيّ[1].

مسترخياً على مقعده الطويل الذي وصل حديثاً، وعلى ركبتيه غطاءٌ، يتأمّل التلال؛ إنّ للغابات، نهايةَ هذا الفصل، فصلِ الخريف، وساعةَ الغروب، بريقُ الحرائق. أصوات العالم تصمت، وتصيرُ نادرة.

(١) بحسب إلياس كانيتي، يعد كافكا النموذج الوحيد للكاتب الصيني، الذي يمكن أن نجده في الغرب. (المؤلّفة)

لم تكن نصيبك[1]

في تساوراو، لم تستطع فيليس أن تستجوب فرانتس أمام أوتلا، وراوغ هو محاولاتها الاستفراد به. في القطار الذي حملها إلى بيتها، لم تعد تدري ما تظنّ. لقد صارت صحة فرانتس في حال جيّدة، وما عاد يسعل إلاّ مساءً، وليس بحدّة. لِمَ إذن كان متحفّظا معها، بارداً وصامتاً؟ قبل أن تذهب، ظلاّ معاً ما يكفي من الوقت، واقفين معاً يتمعّنان في ساحة القرية؛ لم يتبادلا كلمة، هي كانت حزينة بسبب رحلتها العبثية، ومعاملة فرانتس اللا-مفهومة لها. أيعقلُ أنه قد نسيَ ماريينباد؟ نسي ما كتبه إليها منذ أسابيع فقط: «أنتِ جزءٌ منّي».

بعد عودتها إلى برلين، ظلّت تنتظر رسالةً. الأيّام تمرُّ، ولا شيء يصل. جهازُ عرسِها، المرتّبُ بعنايةٍ في غرفتها، يتحرّشُ بها. في عينَي أمّها يبرق اللّوم. العمّات والخالات، والأصدقاء، والزملاء، جميعاً يحاصرونها:

---

(١) جملة واست بها فرانتس أمُّه، بعدما أخبرها بفسخ خطوبته من فيليس. (المؤلّفة)

- طيب، متى العرس؟

الشكّ يفسد عليها أدنى ملذّاتها. أن تقابل فرانتس بمفرده، وجهاً لوجه، مثلما حدث في مارينباد، فتطالبه بتفسير، تفسيرٍ ينبغي أن يكون الأخير: ذلكم ما ينبغي أن تفعله. لا يهمّ أن تضيّع في سبيل ذلك عطلة أعياد الميلاد، ينبغي أن توضّح الأمور.

طلبت من فرانتس في رسالةٍ يائسة لقاءها في براغ.

«لم يعد ممكناً أن تراوغني. تدين لي بحقيقةٍ تامّة وواضحة».

ترك فرانتس تساوراو يوم ٢٤ دجنبر/ كانون الأوّل. ويوم ٢٥، وصلت فيليس إلى براغ. يومها الأوّل معاً مرّ على نحوٍ جيّد، طرقا كلّ المواضيع ما عدا الموضوع الرئيس. كانت فيليس هادئة وحنوناً. وفي المساء زارا ماكس. لا هو ولا هي استطاعا الانخراط في الحديث؛ صامتين طيلة الأمسية، كان كلّ منها يبدو ضائعاً أكثر من الآخر. صباح اليوم الموالي، منذ السّاعة السابعة والنّصف، رنّ فرانتس جرس باب ماكس. قال له: خصّص لي صبيحتك. ضربا موعداً في مقهى باريس. بعد برهة صمتٍ طويلة قال ماكس:

- ما الذي تنتظره منّي؟

- لا شيء.

- لم إذن طلبت منّي قضاء الصبيحة معك؟

- لتساعدني في قتل الوقت. قراري حاسم، ما ينبغي أن أفعله، لا أستطيع أن أفعله إلا بمفردي. إنّي مقتنع بأنّي إذ أفسخ

خطوبتي هذه المرّة فسخاً لا رجعة فيه، فإنّما أقوم بفعلٍ لا أشكُّ لحظةً في عدالته؛ وإلا لما استطعت القيام به. غير أنّ عدالة فعلٍ ما لا تنفي كون إنهاء خمس سنوات من العواطف ظلمٌ كبير.

يظلّ، بالنسبة إليّ، قائماً لغزُ ماريينباد. لماذا...

لم يتمِم جملته.

ظهيرةُ ذاك اليوم، واليومُ الذي يليه كانا فظيعين. كان عليه أن يقنع فيليس بأنّها لا يمكن أن ترتبط برجلٍ مثله. طلب منها أن تغفر له التسبّبَ في شقائها: لقد أفسد علاقتها بصديقتها غريت بلوخ، وبأختها إيرنا، وساهم في موتِ والدها، وعذّبها بكلّ الطّرق الممكنة، عاملها باستبدادٍ، فرض عليها تعلّم السّباحة، والتوقّف عن أكل السكّر، وأن تساعد البيت الشعبيّ اليهوديّ...

وضعت فيليس يدها على فمه:

- كفَّ يا فرانتس أرجوك، ما تقوله هراء، هراء.

- إذن كفّي عن سؤالي لمَ أضع نقطة النّهاية، لا تزيدي في إهانتي.

وبنبرةٍ أقلّ حدّة أضافَ:

- سأخبرك بسرّ، لم أستعد صحّتي. سُلّي ليس مرضاً نريحه على كرسيّ مديدٍ، إنّه سلاحٌ ضروريّ بالنّسبة إليّ، سلاحٌ سيبقى ما بقيتُ على قيد الحياة، وليس بمقدورنا أن نظلّ على قيد الحياة معاً، أنا وهو.

صباح يوم ٢٧، رافق فيليس إلى المحطّة. يعرف أنّه لن يراها، ولن يسمع صوتها مرّةً أخرى. يتابعها تصعد إلى المقصورة، ويتابع القطار ينطلقُ، عاجزاً عن احتواء الأحاسيس التي تمزّقه. سقيماً، جامدَ الوجهِ باردَهُ، آوى إلى صديقه ماكس. لم يكن ماكس بمفرده في مكتبه بإدارة البريد. أحد زملائه يجلس إلى الطاولة التي يتشاركانها. من دون أن يعير اهتماماً للرّجل، وكأنّما لا يراهُ، ومن دون أن يهتمّ للحركة حولها، جلس فرانتس بجانب صديقه. انهارَ.

تملّك ماكس الفزع. إنّها المّرة الأولى، التي يرى فيها صديقَه، مُذ عرفه، يبكي، يبكي على الملأ، الدّموع تنهمر على خدّيه. سمعه يهمس خلَل شهقاته:

- أليس مرعباً أن نكون مضطرّين إلى الوصول إلى هذه النّقطة، أليس مرعباً؟

II

يولي

من يناير/ كانون الثاني إلى ديسمبر/ كانون الأوّل ١٩١٩

«بُعثتُ كما الحمامة في التوراة. لم أجد شيئاً أخضرَ، وها أنا أعود إلى الفُلك المظلم».

من رسائله إلى ميلينا

يولي، النّسيان

أيّامَ أكتوبر الأولى، صرعتهُ الأنفلونزا الإسبانية التي كانت تجتاح آنذاك أوروبا؛ ارتفعت حرارته إلى ٤١ درجة وظلّت ثابتة عندها. بقيت أمّه ساهرة عليه ليلاً ونهاراً، تظنّه قد هلكَ، وتبكي عند سريره. لا تفارقُها ذكرى ولديها، غيرغ وهاينريش، اللّذين توفي أحدهما في شهره السّادس والآخر بعد ولادته بسنةٍ ونصف.

وبعدما صحَّ فرانتس، انتكس. تفاقمت حالُ رئتيه. وحين شفيَ من تلك الأنفلونزا، كان في حالٍ من الوهن لدرجة أنّ طبيبه وصف له فترةَ نقاهةٍ طويلة بالرّيف.

يوم ٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني، أنزلته أمّه بشيليسن، وهي قريةٌ تقع شماليّ براغ، ويعرفها. كان، في ذلك الموسم، النّزيلَ الوحيد بالفندق الذي تديره الآنسة أولغا شتودل. وقد بقيَ هناك أربعة أشهرٍ، مقابلَ ستّين كورونة في اليوم.

كان يمضي نُهُره في الشّرفة ممدّداً على كرسيّ طويل، في الهواء الطّلق، متلفّعاً بأغطية، مواجهاً التلال المشجرة. الصمتُ مطبقٌ،

بالكاد يخرقه هريرُ الكلبين، ميتا ورولف، حين يتنازعان، بهياجٍ عظيمٍ، بقايا طعام الغذاء التي يلقي بها إليهما فرانتس من نافذته.

وفي أحد أيّامِ يناير/ كانون الثاني، أتى نزيلٌ ثانٍ. إنّها شابّةٌ في الثامنة والعشرين من عمرها، واسمها يولي فوريتزيك. وفي عزّ الشّتاء، مهما رفع المرء بصره، في الفندق، أو التلال، أو الغابات، فلن يرى إلا سياجاً من الجليد يحيط كلّ شيءٍ ويتلألأ في الشّمس. حتّى أنّ المرء ليحسبُ نفسه في لابي (شمال أوروبا)، وما كان التجوالُ يتمّ إلا بعربة الترويكا؛ على أنّ البردَ الشّديدَ الباسط يديه على الخارج، أجبرَ النّزيلين على البقاء حبيسَي «هذا النّزل، المسحور بالمعنى الحقّ للكلمة».

بدايةُ علاقتها تشبه فيلما كوميدياً: كان فرانتس ويولي يصطدمان بعضهما ببعضٍ حين يتجوّلان بين الأروقة القفر، حين يدخلان غرفة الطّعام الفارغة، حين يقومان عن مائدتهما التي تفصل بينهما بأمتارٍ عديدة، حين يجلسان في الصّالون الفّسيح. وقد صار الأمرُ مضحكاً لدرجة أنّهما صارا ما إن يلمح أحدهما الآخر حتّى ينخرطان في نوبةٍ من الضّحك، إلى أن تدمع أعينهما. يضحكان على تشابههما الغريب، إذ لديهما نفس شكل الوجه، نفس الفم، يضحكان من خجلهما، يضحكان بلا سببٍ، ومن دون توقّف، يتبادلان النّظر فيصير مستحيلاً بالنّسبة إليهما حبسُ ضحكةٍ تنفجرُ، فتملؤهما بمشاعر متضاربة. وكلّما انطلقا في ضحكهما، رفعت الآنسة أولغا شتودل ذراعيها إلى السّماء وتمتمت:

- هذان الاثنان... لا سبيل إلى فهمهما!

قضيا ستّة أسابيع معاً. مساءً، تجمعهما أحاديثُ مطوّلة، حكى لها فشل خطوبته مرّتين. وكانت هي بالكاد قد سلَت موتَ خطيبها في الجبهة. وجد يولي ألوفاً ومدهشةً، جميلةً (تذكّره بغريت بلوخ)، صادقة، ودوداً، متحفّظةً. كتب إلى ماكس يقول: «إنّها آنسةٌ هشّة، غرّة، ومفعمة بالتّفاني». ثمّ يضيف هذه النّتفة السّاخرة: «ليست بأقلّ تفاهةً من هذه الذّبابة مثلاً التي تطير صوبَ النّور».

غرابةُ أطواره أدهشت يولي. يقضي لياليه في الكتابة إلى أصدقائه، وأخته، وأبوَيه. يستيقظ ساعةَ الزّوال، لا يأكل إلا الخضر والفواكه الجّافة، ويشرب لتراتٍ من الحليب. ومساءً يقرأ بصوتٍ عالٍ لساعاتٍ، ذاهباً آيباً، في حركاتٍ ممثّلٍ، وعيناه تبرقانِ من المتعة. أثارها فضولُه النّهمُ، كان لا يكلّ من الأسئلة؛ يسألها عن مهنتها كمصمّمة قبّعاتٍ نسائية: كيف تصنع قبّعاتها، أتنطلقُ من التصميم أم من الثوبِ، كم تستغرق في إنجازها، هل تضيفُ إليها حُجباً، هل تزيّنها بالزّهور، بكم تبيعها؟

بلباقةٍ، تضعفُ أمامَها، كان يبدي اهتماماً أيضاً بمهنة والدها، إسكافٌ وحارسُ كنيسٍ في بلدة بائسة. كان يفقد تركيزه بسبب كميّة التعابير البيديشية التي ترصّع بها إجاباتها، [خاصّةً] أنّ بعضَها من أشدّ التعابير صدماً، لكنّه لم يكُن يبين شيئاً.

يتشاركان نفس الإحساس الذي ألّف بينهما برابطةٍ حميمة، على الرّغم من الفروق الثقافية والاجتماعية بينهما. صارا يقضيان معاً

وقتاً أطوَلَ فأطولَ. وفي قلب اللّيل، يقوم فرانتس متلفّعاً بغطائه، فيقطع الرّواق المظلمَ قاصداً غرفةَ يولي، ويدفع إليها برسالةٍ من تحت الباب. وحين يعود إلى سريره، يمكث مترقّباً الجوابَ. حين يتبادلان التّحية، صباحاً ومساءً، يجرؤ على إبقاء يد الشّابة في يده وقتاً أطول بقليل من المعتاد. ولم يمضِ من الوقت الكثير حتّى صارا إلى الحديث في أمر الزّواج:

- إنّه الغاية الأسمى، لكنّ طريقه مسدودةٌ أمامي. صحّتي عليلةٌ جداً.

تجيبُه:

- أمّا أنا، فلأسبابٍ مغايرةٍ، ما عدتُ أرغب في الزّواج.

- لا ترغبين في إنجابِ أطفالٍ؟

- كلاّ، منذ اشتعال الحرب، ومنذ فقدتُ خطيبي، فقدتُ الرّغبةَ.

- أيّ حياةٍ تريدينها؟

- حياةٌ تنسيني المآسي التي عشتُها. لا أحلم إلا بالسّينما، وعروض الأوبريت، والموضة. ولا شيء غير ذلك.

- رفضُنا الزّواجَ، يمنعنا من البقاء معاً. حكمُ النّاسِ يجبرنا على الفراق.

لأيّامٍ أبديا شجاعةً، وقاوما الانجذاب الذي يحسّه كلٌّ منهما نحو الآخر. صارا يتجنّبانِ بعضهما بعضاً، فيتغذّيان ويتعشّيان في أوقات

مختلفة. صارت يولي تقصّر سهراتها بالصالون. وفرانتس يقضي وقتاً أطولَ في غرفته. يتجنّبان بعضهما بعضاً على وجه التّخصيص كي لا يسقطا في خطابٍ حميميٍّ، أو في أحضانِ بعض.

ينبغي أن يفترقا. لحظةٌ كئيبةٌ. طلبت يولي من إحدى أخواتها أخذها إلى براغ. اكتفى فرانتس بإلقاء نظرةٍ على المرأة التي بدت له ساهمةً بعض الشّيء، ومجبولةً على الطّيبة.

بقيَ بمفرده في شيليسن ثلاثة أسابيع أخرى، حتّى نهاية مارس/ آذار. لم يكتب إلى يولي ولا كلمة. لكنّه، في غيابها، ظلّ مسكوناً بها، وترسّخت قناعته في أنّ الأمور لا ينبغي أن تقف عند هذا الحدّ.

وما إن عاد إلى براغ، حتّى التقيا مجدّداً، لم يكن بالإمكان غير ذلك، وأنّى لنا أن نشكّ؟ لقد صارا عشيقين.

كذلك بدأت فترةٌ سعيدةٌ هانئة. صارا يلتقيان تقريباً كلّ يوم؛ على أنّهما كانا مضطرّين، تجنّباً للعيون، إلى أن يقوما بجولاتٍ طويلة في الغابة، بين ممرّات رايغربارك، أو في أزقّة براغ بعد أن يحلّ الليل. كانا يتخفّيان، وهذا الحذر كان يشعر فرانتس بالخزي.

حين أعلنت أخته، عزيزتُه أوتلا، خطوبتها[1] رسمياً، وتحدّد موعد زفافها في ١٥ يوليو/ تمّوز، دفعه الخوف من أن يبقى وحيداً

---

(١) رغم معارضة والديها تزوّجت أوتلا من جوزيف دافيد، وهو تشيكيّ مسيحيّ. وفي حين رأى ماكس برود في هذا الارتباطِ خسارةً يهودية، ساند فرانتس أختَه: «إنّك تقومين بشيءٍ رائع، وأن يقومُ المرء بما هو رائعٌ كما ينبغي، هو أمرٌ بالغ الصّعوبة. لكن، إن قدرتِ أنّ لا تنسي أبداً الواجبَ الذي يفرضه عليك هذا الفعلُ الصّعب، فستكونين قد قمتِ بأمرٍ أعلى وأرفع من الزّواج حتّى بعشرةِ يهودٍ». (المؤلّفة)

إلى القيامِ بفعلٍ طائش: طلب يولي للزّواج. وكان أن رفضت طلبه. أصرّ، ودافع بحججه مقارعاً مقاومةَ الشّابة. كان يحاول إقناعها بأنّه زواجٌ عن حبٍّ وتفكير. ذاك أنّ يولي تمنحه إحساس الأمان الذي يحتاجه.

عاد مجدّداً يحرث المدينة، من حيٍّ إلى آخر، بحثاً عن شقّة.

وذات مساءٍ أعلن الخبر على والديه، وأفصح لهما عن رغبته في أن يقدّم لهما خطيبته الجديدة.

- ابنةُ إسكافٍ؟ ابنةُ الرّجل الأشد بؤساً في بوهيميا بأكملها؟ أهذا ما تريدُ الزّواج به أيّها السيّد ابني؟ تافهة قذرة لم تجد صعوبةً في أن تضع يدها عليك؟ أختك تزوّجت من كاثوليكي، وأنت جهّزتَ لي ضربةً أقوى. تريدُ موتي، أليس كذلك؟

هدّد بأن ينفي نفسَه هرباً من العار الذي سوف يصمه به هذا الزّواج غير المتكافئ؛ وذكّر ابنه بفسخ خطوبته مرّتين من فيليس، والمبالغ المالية الهائلة التي صرفها هباءً، وأشهر الإيجار الستّة الضائعة. كان يصرخُ: إخفاقانِ اثنان غير كافيين للسيّد ولدي، هل يلزمه إخفاقٌ ثالث؟ إن كانت حاجتك في قحبة، فلتقصد الماخور. وإن كنت، في هذه السنّ، تتهيّبُ فعل ذلك بنفسك، فسوف أرافقك.

لأوّل مرّة في حياته لا يستسلم فرانتس أمام ترهيب والده. السّباب والإهانات التي غمره بها والده، لم تزد قراره إلا رسوخاً.

وفي اليوم الذي وجد فيه مسكناً، شقّةً مفروشةً بائسة، من غرفةٍ واحدة، في ضواحي براغ، حدّد موعداً للزّواج.

نَشر الإعلان عن الزّواج في الجرائد.

يوم الاثنين زار هو ويولي بيتهما؛ هما ذان يجلسان على الأريكة متعانقين. الشّابة تستمتع باللّحظة، فلقد حصّلت هذا المأوى بعد الكثير من المعاناة. بجانبها من سيصير زوجها قريباً، وعدُ سعادتها. فاضت على خديها دمعاتُ فرح. فرانتس أيضاً مصدومٌ، لقد وقفَ للتوّ على حجمِ الكارثة. يوم الأحد المقبل سوف ينتقل من بيته، سوف يقيم، يوماً بعد آخر، مع يولي، مع فساتينها وقبّعاتها، وملابسها الدّاخلية، وعطورها، وحليِّها، وثرثرتها، في هذه الزنزانة الضيّقة، الحقيرة، المظلمة، المزدحمة، لن يكتبَ أبداً. قلبه يضرب بعنفٍ. بصره ينطمس. الجدرانُ، والسّقف، والأرضية الخشبُ كلّها تترنّحُ. العرق يغطّي وجهه وجسده. يرى نفسه ينقضُّ.

يوم الجمعة، أي يومين قبل موعد الزّواج، غيّر صاحب المحلّ رأيه. ضاعت عليهما الشقّة.

لقد نجا.

لأسابيع تظاهر بأنّ الحياة مستمرّةٌ كما من قبل؛ يتجوّل مع يولي في رايغربارك، في الحديقة النّباتية؛ يتغذّيان أغلب الوقت في المطعم، ويسبحان معاً في تشيرنوسيتشه.

ثمّ لم يعد قادراً على المواصلة، لم يعد قادراً على أن يتجاهل

التحذيرات التي تصيح في أذنيه. ليالي الأرق تعذّبه، يقارنُ نفسه برجلٍ يُحرقُ حيّاً. عرض على يولي ميثاقَ وفاءٍ ومودّة:

- لنواصل اللّقاء كما شئتِ، لكن لننسَ أمرَ الزّواج.

منتصف شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، لم يعد يتحمّل، ففرّ. إلى أين؟ إلى شيليسن، المكان الذي شهد لقاءهما. رافقَه ماكس. في عشرةِ أيّامٍ، كتب فرانتس، دفعةً واحدةً، نصّه **رسالة إلى الوالد**.

وعند عودته إلى براغ، أعطاها إلى أوتلا لتقرأها، ثمّ عهد بها إلى أمّه التي، حكمةً منها، لم تبلّغها المرسلةَ إليه. حتّى مماته ظلّ هرمان كافكا يجهل وجود هذه الرّسالة (نحو ثمانين صفحة) التي كتبها إليه ابنه غبَّ زواجه المجهض ويولي. ظلّ هرمان كافكا يجهل اللّوم الذي وجّهه إليه ابنه، كما اللّوم الذي وجّهه هو إلى ابنه.

فقد عمد فرانتس، على عادته، إلى القيام مقام محاميّي الطّرفين. فانطلق إلى الترافع في محاكمة مزدوجة: الدعوى التي رفعها الابنُ على أبيه، والردّ المدوّي، الصّارخ، الذي يردّ به الأب على دعوى ابنه. ألوالده وجّهَ تصفية الحسابات تلك، ومعها هذا المقترح: نعلن الهدنة؟ لنا أن نشكّ في ذلك. ففرانتس يعلم، أكثر من أيّ شخصٍ آخر، أنّ أباه لم يفتح قطّ أيّاً من كتبه، حتّى كتاب طبيب ريفيّ، الذي أهداه إليه. لم يقرأ منه صفحةً، لا بل لم يقرأ منه سطراً. كلّما أهدى فرانتس إلى أبيه مجموعةً من مجموعاته، يعمد، من دون حتّى أن يلقي عليها نظرةً أو يلمسها، وكأنّما هي شيءٌ مقزّز، إلى إطلاقِ هذه الجملة التي يعيدها باقي أفراد الأسرة من ورائه ككورس:

- ضعه على طاولة سريري.

كان فرانتس على علمٍ بالمصير الذي هيّأه والده لرسالته. ومن هنا، ربّما، نبرةُ الحريّة المذهلة التي كتبَها بها. هل حصّل منها الفائدة التي كان يأمل فيها؟ هل استطاع أن يقترب من الحقيقة بما يكفي لكي يجعل حياته ومماته أيسرَ؟

بعد عودته من شيليسن، عاد يلتقي بيولي، لكنّ لا شيءَ كما كان، لقد صار شارداً، فظاً، صموتاً، منطوياً. ومرّت الأيامُ في ضجرٍ وخمولٍ وصمتٍ وقلق. الحبكة تتعثّر. لكن لن يطول بها الوقتُ على هذه الحال.

III
ميلينا

-من أبريل/ نيسان إلى نوفمبر/ تشرين الثاني- ١٩٢٠

«من بين يهود الغرب كلّهم، أنا الأشدّ خصوصيةً: أقصد، مع شيءٍ من المبالغة، أنّني لا أرتاح ثانيةً، أنّني لم أُعطَ شيئاً، ويلزمني أن أحصّل بنفسي كلّ شيء؛ ليس الحاضرَ والمستقبلَ فحسب، وإنّما عليّ أن أحصّلَ الماضي أيضاً؛ ذاك الشّيء الذي يعطاهُ كلُّ إنسانٍ مجّاناً عبر المشاركة؛ هو أيضاً ينبغي عليّ أنا أن أحصّله؛ ولربّما كانت هذه أشقّ المهام؛ إن كانت الأرض تدورُ يميناً -لا أدري بأيّ اتّجاهٍ تدور-، فينبغي أن أدور أنا يساراً لألحق الماضي. غير أنّي لا أستطيع أن أحمل العالم على كتفيَّ، فهما بالكاد تتحمّلان ثقلَ معطفي».

من رسائله إلى ميلينا

ميلينا، نهاية وهم

بمقهى أركو كان لقاؤهما. وكان فرانتس قد دخلها ليشرب أحبَّ مشروبٍ إلى نفسه: شوكولا ساخنة يعلوها جبلٌ من قشدة. كان يجلس إلى طاولة وحيداً. تقدّمت صوبه:

- دكتور كافكا؟ أنا ميلينا يِسنسكا، زوجة إرنست بولاك. تعرفه على ما أعتقد؟

وبإشارة من إصبعها عيّنت له زوجها المنخرط في حديث مع امرأة صهباء. وعلى الفور قام فرانتس من طاولته، وانحنى لهذه المرأة التي وقفت أمامه بعينيها الزرقاوين زرقةً إلهية. شقراء، رشيقة القوام، كانت تنظر فيه مباشرةً، وتضحك من طابعه الأخرق، إذ قلب إناء السكّر من دون أن ينتبه إلى فعله.

أخذ يتفحّص وجهها، ونسي أن يجيبها.

- أريد أن أترجمَ العديد من أعمالك إلى اللغة التشيكية: الوقّاد، الحكم، التحوّل، مستوطنة العقاب.

- تريدين تجشّم كلّ هذا العناء؟ لا ينبغي لك.

- بلى ينبغي. كتبك هي أهمّ ما يوجد في الأدب الألمانيّ الشّاب. لقد ترجمتُ الوقّاد، وناشرُك، كورت وولف، يطلب منّي الحصول على موافقتك.

- أنت مترجمة؟

- أجل، لقد أخبرتُك بذلك قبل قليل. وأيضاً صحفية. هل أستطيع أن أرسل إليك نصّي لتصوّبه؟

- هل تسكنين في براغ؟

- كلاّ، في فيينا.

تبادلا عنوانيهما. حيّته، وتابعها تنصرف.

يتذكّر ما كانت تلبسه ذاك اليوم، يتذكّر يديها الرّشيقتين جداً، يتذكّر عودها النّاحل بين طاولات مقهى أركو، أجل، إلى اليوم، ما يزال يتذكّرُ كلّ شيء.

ترك براغ أيامَ أبريل/ نيسان الأولى. ذهب يرتاح في مِرانو، جنوبيّ تيرول. ما عاد تعبه يبارحه. طلبات الإجازة تتوالى، وعاجزٌ هو عن وضع حدٍّ لعلاقته. هل كان يأملُ في أنّ شهرَي الغيابِ المقبلَ عليهما سيستنزفان عنادَ يولي، التي ما انفكّت تتمسّك به باكية؟ لم يخبرها شيئاً عن اللقاءِ المعلوم بمقهى أركو، ولا عن الرّسالتين اللتين توصّل بهما من عند ميلينا؛ رسالتان لا تفارقان جيبه، ويتحسّسهما مثلما يتحسّس المرء تعويذةً.

في مِرانو، استقرّ بنزل أوطّوبورغ، الذي تديره الآنسة فروهليش. من شرفة غرفته، كان يتأمّل الزهور التي تتسلّق حتّى تصل إليه، وكثافةَ النّباتاتِ الاستوائيةَ بالحديقة أسفل. عصفور دوري كان يزوره ساعةَ الغذاء. يلقي إليه فرانتس بفتات خبزٍ ويتأمّل دورانَه. في تلك اللّحظة، الطّائرُ في الشّرفة تحت الشّمس، يتوق إلى قوت حياتِه، إلى الفتات عندَ عتبة الغرفة. تكفيه بضع وثباتٍ، ليصيبَ الفتات كلّه. لكنّه يخشى التوغّل في أرضٍ مجهولة. يجرؤ على القيام ببضع قفزاتٍ، ثمّ يتوقّف، يتقدّم قليلاً، يتراجع، ينفش ريشه ليتشجّعَ. الرّغبةُ تدفعه، بقفزةٍ يحطُّ على بعد سنتمتراتٍ من الوليمة. يتراجع. يطيرُ، وقد تملّكه الخوفُ.

حوالي منتصف أبريل/ نيسان، هو التاريخ الذي بدأ فيه فرانتس الكتابة إلى ميلينا. لم يعد ذاكَ المُغويَ المفعم بالحيوية الذي قرع، مساء ١٣ أغسطس/ آب، باب ماكس برود، وقرّر في الحالِ إغواء فيليس. لقد صار الآن في التّاسعة والثّلاثين من عمره، وخَطَه الشّيبُ، وما عاد يصعد السلّمَ أربعَ درجاتٍ في كلّ خطوة. يقضي أغلب وقته على كرسيّه المديد. وأثناء تجواله يتقطّع نفسه بسرعة.

عندما التقى ميلينا، التي لم يأمل في أن يلتقي مثلها، خاصّة الآن، خاصّة في هذه السنّ المتأخّرة، كان يعلمُ أنّ الوقتَ لن يرحمه، فهو لم يعد يملك منه ما يضيعه.

وميلينا ليست هي فيليس.

لم يكن عمرها يتجاوز الثالثة والعشرين حين اقتحمت حياته

كعاصفة. ثلاثٌ وعشرون سنةً وماضٍ مشحونٌ، وسيرةٌ جهنّمية. طفلةً، كانت قد سهرت على علاج أمّها شهوراً. شاهدَتها تتألّم، تذوي، وتموت بين ذراعيها. ذاك أنّ والدَها، طبيب الفم المشهور، والرّجل القاسي الفظّ، رفض أن يهتمّ بأمّها. يتيمةً، موكولةً إلى نفسها، تعاطت المراهقةُ الكوكايين، وانخرطت في علاقاتٍ مشبوهة. ذات مساءٍ سبحت بملابسها قاطعةً نهر فلتافا كي تلحقَ بعشيق. كانت تقضي فترات ما بعد الظّهيرة في المقاهي، وتعرِضُ نفسها عاريةً أمام الرّسامين، وتستأجر غرف فنادق لتستقبل فيها صديقتَيها الحميمتين ستاسا ويارميلا (يهمسُ النّاس بغرامياتٍ سحاقية). تهديهما حزمَ زهورٍ، وفساتين، وحلياً: النّقودُ تتسرّبُ خلَلَ أصابعها.

كانت في الثامنة عشرة من عمرها حين التقت إرنست بولاك في حفلٍ، وقرّرت العيش معه. إنّ هذا الرّجل الشّابَ ألعُبانٌ ومخادعٌ وبومةُ ليل، وكاتبٌ بمعنى فضفاض. وحين علمَ الدكتور بِيسِنسكي بعلاقة ابنته بيهوديٍّ، أديبِ مقاهٍ، حبسَها في مصحّة أمراضٍ عقلية قريباً من براغ. ظلّت هناك تسعةَ أشهرٍ، بين المجانين، ثمَّ أُطلق سراحُها حين بلغت سنّ الرّشد، فهرعت للزّواج ببولاك. وقطعَ الدكتور بِيسِنسكي كلّ صلةٍ بابنته.

استقرّ الزوجان بفيينا. كانت النّقود تعوزهما، وحياتهما صعبة. ميلينا تكتب أعمدةً في مجلاتٍ ويومياتٍ ببراغ، أعمدةً متألّقة تفيد منها النّسويات غاية الإفادة. كانت أيضاً تعطي دروساً في اللّغة التشيكية، وتترجم رواياتٍ أجنبية. وفي الأيّامِ التي تفتقر فيها إلى

أدنى فلس، الأيامِ التي تعتاش فيها على الشّاي والتّفاح، تعتمرُ قبّعة كاسكيت، وتقصد المحطّة المركزية، حيث تسحبُ بذراعيها أمتعةَ الرّكاب. أمّا زوجها، «الرّجل ذو الأربعين عشيقة»، فكان يخونها دونما مواربةٍ، وكثيراً ما يعنّفها تحت تأثير الشّراب، ويراكمُ ديوناً تُنهَك هي في سبيل سدادها. حين التقت كافكا لم تكن صحّتُها بأفضل حالٍ، فالالتهابات الشُّعبية تتلاحقُ، ومرّتين أو ثلاثاً بصقت دماً، وزواجها يتفكّك، ولا نقودَ لديها.

بدأ فرانتس وميلينا مراسلاتهما في أبريل/ نيسان، وتوقّفا في نوفمبر/ تشرين الثاني. أقلّ من ثمانية أشهر. كان يكتب إليها بالألمانية فتجيبه بالتشيكية، وفي الغالب الأعمّ بقلم الرّصاص. من رسائله هو بقيَ نحو خمسين. أمّا رسائلها هي فلم تبقَ منها رسالة[1]. لم تصلنا إلا مقالاتها: في مديح الفستان الأسود القصير، والموضة، والمقاهي، والضواحي يوم الأحد، والقطارات، وفيلم لشابلن، وهجاءٌ متألّقٌ في الزّواج والحياة المشتركة، بعنوان **الشيطان في البيت**؛ وثماني رسائل ملتهبة، شغوفاً، أرسلتها إلى ماكس بعدما أنهت علاقتها مع من كانت حتّى ذلك الوقت تدعوه فرانك. ففي رسائله الأولى، كان فرانتس يلصق الحرف الأوّل من اسمه العائليّ، بآخر حرفٍ من اسمه الشّخصيّ، فما كانت ميلينا ترى حرف z. ولم يصحّح هو لها خطأها. كان شخصاً آخر، شخصاً يخصّها وحدها.

---

(١) بعد وفاة كافكا، طلبت هي من ماكس برود أن يحرق رسائلها. (المؤلّفة)

صارحته ميلينا بما لا يسير على ما يرام في حياتها: صحّتها. أصابه القلق، رجاها أن تترك فيينا وتذهب لترتاح على ضفّة نهرٍ، ولمَ لا مِرانو، حيث يقضي عطلة.

كتب إليها: «يا إلهي! لو أنّك كنت هنا يا ميلينا! على أنّي سأكذب إن قلت لك إنّي قد اشتقت إليك: ذاك أنّ هنا يكمن السّحرُ الأقسَى والأكملُ، أنتِ هنا تماماً، مثلما أنا هنا، لا بل إنّك هنا أكثر ممّا أنا هنا. أنا لا أمزح، يعرض لي أحياناً أن أظنّ أنّي أنا غير الموجود هنا، وأنّك تفتقدينني، ما دمتِ أنت هنا، فتتساءلين: أين هو؟ ألم يكتب لي قائلاً إنّه في مِرانو؟».

حدّثَته عن قطيعتها وأبيها (الآباء ذوي القلوب الحجرية، فرانتس يعرفهم حقَّ المعرفة. يوم ٢١ يونيو/ حزيران، أرسل إليها **الرّسالة إلى الأب**)؛ وعن مشاكلها الزّوجية، وعن مصاعبها المالية (كان يرسل إليها نقوداً). وبالمقابل كانت تسأله عن حياته الشّخصية، عن خِطباته الثلاث، عن علاقته باليهودية، عن مخاوفه، كلّ مخاوفه.

من أبريل/ نيسان إلى نهاية يونيو/ حزيران، كانا يتكاتبان كلّ يوم، وغالباً أكثر من مرّةٍ في اليوم، ودائماً بالبريد المستعجل. وحين ترتفع الحمّى يتحوّل الأمر إلى تبادلِ برقيّاتٍ هائجٍ. كان فرانتس يرسل رسائله إلى اسمٍ خيالي، الآنسة كرامر، ويشيرِ إلى أنّ الرّسالة ينبغي أن تبقى بمقرّ البريد الذي تقصده ميلينا صباحَ مساء. كلاهما يعيش في حالٍ من الترقّب، في تحرّقٍ إلى معرفة المزيد، وقول المزيد:

كتب إليها فرانتس: «حمّى الرّسائل هذه هوجاءُ، أن تقلبَ

رأسَكَ، وتشربَ الكلمات، لا تدري من أمرك شيئاً اللهم إلاّ أنّك لا تريد للأمر توقّفاً. هلاّ شرحت لي هذا يا أستاذة ميلينا».

كان الانجذاب الذي يحسّه كلّ منهما تجاه الآخر من القوّة لدرجة أنّه ما كادت تحلّ أيّامُ يونيو/ حزيران حتّى صارا يخاطبان بعضهما بعضاً بصيغة المفرد، رافعين الكلفة، ويتحدّثان في الحبّ.

كتب إليها: «ناديني مرّة أخرى: أنتَ. وانظري في عينيّ».

مرّاتٍ كثيرة كان فرانتس قد نادى فيليس الصّلدةَ: «بُنيّتي الحبيبة، طفلتي». واليومَ، ينادي ميلينا: «رضيعتي، رضيعتي»[1]. وأمس، جرُؤ على مناداتها «ماما ميلينا». فكان أن أنذرته المرأةُ المندفعة، المرأة التي قال لماكس يصفها: «شعلةٌ حيّةٌ، لم أرَ لها مثيلاً»، أنذرته ألاّ يستعملَ معها أبداً مثل هذه الألفاظ السّخيفة.

حين كان يقرأ رسائل ميلينا الهادئةَ، كانت تغمره السّعادة: «إنّها كالمطر على رأسٍ ملتهب». وحين كانت تصدّه، وترسل إليه رسائلَ مسلّحةً بمهماز (كذلك كانت أكثرُ رسائلها)، رسائلَ يهابها كما يهابُ الشّيطانُ الماء المقدّس، فإنّه كان يلتمسُ قطعةَ أثاثٍ يختبئُ تحتها: قلقٌ على قلقٍ.

يقول لها: «إنّ الرّسائلَ، بناتِ عذابٍ لا يُشفى، هي عذاباتٌ لا شفاءَ منها. القُبل المكتوبة لا تصل إلى مقصدها، الأشباحُ تشربها في الطّريق».

---

(١) المقصود مرحلة الطفولة المبكّرة جداً «بيبي».

وما كاد يصل يوم ١٢ يونيو/ حزيران، حتّى ما عادَ يطيقُ هذه الرّسائل ذات المسارات المتعرّجة.

«ينبغي أن تتوقّفَ الرّسائلُ يا ميلينا، إنّها تصيبنا بالجنون: لم يعد الواحدُ منّا يعرف ما كتبهُ، ولا ما يردُّ الآخر عليه، وفي جميع الأحوال هو أمرٌ مرعبٌ».

في اليوم التالي غيّر رأيَه: «اكتبي إليّ، مع ذلك، كلّ يوم، اكتبي سطرين بالكاد، أو حتّى سطراً، أو فقط كلمة، فهي كلمة لا أستطيع أن أتخلّى عنها من دون ألمٍ فظيع».

حين أخبر ميلينا بأنّه عائدٌ من مِرانو إلى براغ، طلبت منه أن يعرّج في طريقه على فيينا. ما عادت رسائله تكفيها. أصابَ فرانتس الذعر، خاصّة وأنّه قد استلم برقية من يولي، بالكاد استطاع قراءتها: «موعدنا في كارسباد يوم ٨ يونيو/ حزيران، المرجو تأكيد الحضور». فكان أن هاتف خطيبَته قائلاً: إنّي متهالك جداً، فلا أستطيع القيام بهذا السّفر. وكان خائفاً خوفاً رهيباً من السّفر إلى فيينا، خائفاً من أن لا يكون عند مستوى التطلّعات التي خلقتها كتبه ورسائله. لا أريدُ، لا أريدُ (تكراره الكلامَ هنا ليس تمتمةً)، لا أريد المرور من فيينا؛ إنّ في ذلك جهداً ذهنياً لا أطيقه، فأنا مريضٌ منذ خِطباتي الثلاث. ليالي المؤرقة القديمة، وآلامُ رأسي قد أشعلا الشّيب في شعري كلّه تقريباً. فكّري في سنواتي الثماني والثلاثين (ضاعفي عددها، ما دمتُ يهودياً)، في مقابل سنواتك الثلاث والعشرين المسيحية.

أجابته:

- تعال، إنّي في أشدّ ضيقٍ، أحتاج حضورك بقربي. لم أعد أريد وجهاً ليس سوى ورقةِ رسائلَ تملؤها الكلماتُ.

- أنا خائف، لستُ متعباً، وإنّما أنا خائفٌ من التعب المهول الذي سوف يلي هذا القلقَ المهولَ.

- تذكّر ما كتبتَه إليّ: «ومرّةً، وعشراً، وألفاً، ودائماً، أريدُ أن أكون بقربك».

- كنتُ صادقاً يا ميلينا، لكنّ أشياء كثيرة تُفلت منّي، أو لربّما كانت الأشياءُ كلّها تفلت منّي.

- تعالَ، ضمّني إليك. أحبك.

- كلّ السّاعاتِ المقبلة تحدّقُ فيّ ساخرةً مقهقهة: وصلتكَ هذه الرّسالة، ولم تذهب إلى فيينا؟ لم تذهب إلى فيينا؟ لم تذهب إلى فيينا؟ لم تذهب إلى فيينا؟

- تعال.

- لا أستطيع بعدُ أن أقول لك ما إذا كنتُ سآتي إلى فيينا، لكنّني أعتقد أنّني على الأرجح لن آتي.

- ستأتي.

- اليوم، ربّما قد أقول إنّي قادمٌ لا محالة إلى فيينا. لكن غداً؟ أحتفظُ بحريّتي.

- أنا أنتظرك.

- إن كنتُ قادماً إلى فيينا، فسوف أهاتفك الثلاثاء أو الأربعاء.

- ستأتي.

- ميلينا، إن لم تصلك منّي رسالةٌ يوم الخميس، فمعنى هذا أنّي سأكون قد عدتُ إلى براغ مباشرةً. قضيت ليلتين بلا نوم.

- أريد أن أراك.

- سأكون في فيينا يوم الثلاثاء، ما لم يحدث طارئ.

يوم الثلاثاء ٢٩ يونيو/ حزيران ١٩٢٠، في العاشرة صباحاً، وصل فرانتس إلى المحطّة الجنوبية. أنزل حقيبته في فندق ريفا (ريفا، فأل خير)، مع أنّه كان قريباً من ورشة تصليح سيّاراتٍ يملؤها ضجيجُ محرّكات. جلس إلى طاولةٍ، أمامَه كأسُ كاكاو وتشكيلةُ حلويات، يكتبُ برقية: أعلمَ ميلينا بوصوله إلى فيينا، وحدّدَ موعداً للقائهما صباحَ اليوم التالي أمام فندقه، ابتداءً من السّاعة العاشرة. وما إن أنهى فطوره حتّى وضع الرّسالة بالبريد حيث تمرّ ميلينا، ثمّ حاولَ أن يستغلّ يومَه في زيارة الأماكن التي تستحقُّ الزيارة بالمدينة، وتحضير نفسه للقائه المنتظر، وتهدئة مخاوفه. يخشى أن يؤديَ حضوره، أن يؤديَ مرأى شخصٍ طويلٍ ونحيل، إلى إيقاظ ميلينا من أوهامها، إلى أن تضع حداً لمراسلتهما.

قضيا معاً أربعة أيّامٍ، من ٣٠ يونيو/ حزيران إلى ٤ يوليو/ تموز.

أربعة أيامٍ مشرقةٍ قضاها ينصتُ إلى ميلينا: «عندما أغمض

عينيّ، أراكَ مرّةً أخرى في فيينا، بقربي، أرى قميصك الأبيض ورقبتك الملوّحة، أراكَ تصعدُ التلَّ، تضربُ بخطواتك خلفي. لقد تمشّيتَ النّهارَ كلّه، صعدتَ، وهبطتَ، وظللت في الشّمس، واضعاً رأسكَ على نهدي العاري، لم تسعل ولا مرّةً، أكلت بشراهة، كنتَ نشيطاً، مرحاً، ونمتَ الليل بأكمله». (أنّى لها أن تعرف؟ لم يقضيا البتّة أيّ ليلةٍ معاً).

أمّا فرانتس فكان أكثر تحفّظاً: قطعاً لم ينسَ الغابة التي مشيا فيها مطوّلاً، والفُرجةَ التي تمدّدا وسطها على العشب الدّافئ، ووجه ميلينا تحت وجهه، ثمّ فوقَه، وعذوبةَ الحميمية التي جمعتهما، وكانت قصيرة جداً، وتتاخُمَ جسدَيهما. لم ينسَ الرّيحَ التي كانت، في طريق العودة، تنفخُ أطرافَ فستان ميلينا، وفيينا في الأفق، والجولةَ بالسّيارة في الضّواحي، وصعودهما الزّقاق الصّغير المبلّط، والممشى الذي تضيئه شمسُ المساء، وسعادةَ أن يتماسَّ وكتفَ ميلينا المكشوفة.

يردّد عليها:

-ما أطيب العيش بقربك.

كثيراً ما يتذكّر الورّاقة الجميلة التي دلفا إليها وظلاّ فيها متعانقين؛ يأسف لأنّه لم يبقَ فيها طويلاً. يستعيدُ صورة الدولاب الهائل في غرفة ميلينا؛ لا يحبّ هذا الدّولاب، فهو يذكّره بذاك الذي كانت قد اشترته فيليس، صرحٌ جنائزيّ. هؤلاء الصبايا جميعهنّ، أيّ حاجةٍ يلتمسنها في هذه الأثاث الهائلة؟ ما الذي يدفعهنّ إلى دفن أنفسهنّ فيها ما إن يتزوّجن؟

حدّثت ميلينا زوجَها عن فرانتس، وكما يحدث في المسرحيات الهزلية، هدّد أرنست غاضباً بأنه سيذهبُ فيضربَ عشيقها البائس، لا بل سيخنقه. ضحكَ فرانتس منه مرّةً أخرى، وقال لميلينا:

- كأنّه لم يفعل!

قبل أن يرحل من فيينا، كان يعلم أنّه بدأ يخسر اللّعبة. كلّ مساءٍ كان يعود بمفرده إلى فندق ريفا، ويقضي الأصباحَ بمفرده. يقرعُ في أذنه جرسٌ: ميلينا ليست معكَ، هي لن تترك زوجها لأجلك. ولن يجديك التوسّلُ شيئاً.

يتذكّر لقاءاته بفيليس في برلين. كلّ لقاءٍ منها كان كارثة. بقدر ما قرّبتهما الرّسائلُ، وقوّت رباطهما، بقدر ما كان حضوره يذيب تلك الرّوابط كحمضٍ. يتساءلُ: أهيَ الحكايةُ نفسها تعود على بدءٍ؟ يوم ٤ يوليو/ تمّوز، حينما استيقظت ميلينا فجراً ورافقته إلى المحطّة، مرتديةً أجملَ فساتينها، فستان الوداع، وحينما قبّلها على الرّصيف (هل كانت قبلة فاضحةً وجريئةً أكثر من اللازم؟) وهو ما لم تستسغه الشّابةُ البتّةَ، صارَ يعلمُ علمَ اليقين أنّه قد أضاعَ ميلينا. إنّ الرّواية التي كتباها معاً، باذلين الكثير من الشّغف، والرّسائل، والرّسائل، والرّسائل، والاعترافات، والإفصاح، كلّ منهما مستسلماً بلذّة للآخر؛ ما كتباهُ معاً لم يكن إلا روايةً، سراباً يضطربُ في الأفق.

- لا أستطيع أن أترك زوجي الآن.

تلكم هي الحقيقة. وميلينا لا تتحجّج إلا بأعذار واهية:

- إرنست مريض، بلا معيل، ولن يستطيع العيش بمفرده. ومن الذي سيلمّع أحذيته؟

لمّا عاد إلى براغ، وجد فرانتس في مكتبه رسالةً من يولي، تصرُّ على اللقاء به في السّاعة الثالثة، أسفل بيتها. قرّر أن يخبرها بكلّ شيء. حين وصل في السّادسة (وكان قد أعلمها بتأخّره)، وجدها في حالٍ سيّئة، لكنّها لم تؤثّر فيه. معتنقاً الباريزية (أي قول الحقيقة في أدقّ تفاصيلها، مهما كانت النّتائج المترتّبة على قولها)، ردّد على مسمعها:

- أنا مرتبطٌ بميلينا، ذائبٌ فيها، لستُ مرتبطاً إلا بميلينا.

شُغلُ جلاّدٍ.

امتقع وجهُ يولي، أخذت ترتعد بكامل جسدها، وقالت غاضبةً:

- هذه المرأة لها زوجٌ، زوجٌ تحبّه. إنّها تقابلك خفية. أنت تعيش في براغ وهي في فيينا، وتريدك أنت فوق زوجها؟ دعني أكتب إليها، سوف تفهم أنّي أنا ليس لي سواكَ. إن خسرتُك، خسرت كلّ شيء، وفقدتُ كلّ سبب للحياة.

- ستبقى لكِ صداقتي وعطفي، تعرفين ذلك.

- أريد أن أطّلع على ما تكتبه إليك. أرِني رسائلها.

- مستحيل.

- أعطني عنوان زوجها.

أخذت تتوسّل إليه، وقد صارت فريسة يأسٍ لا يُحدُّ. ولكي يريحها، وينهي نقاشهما، سمح لها أن تكتب إلى ميلينا.

افترقا والليل يرخي سدوله.

صباح اليوم التالي، كتب فرانتس رسالةً مستعجلةً إلى يولي:

- لا تبعثي بالرّسالة إلى فيينا قبل أن نتحدّث.

وكانت يولي قد كتبت الرّسالة منذ الفجر، وبالكاد أرسلتها قبل أن تصلها رسالةُ فرانتس. مذعورةً، ركضت إلى مكتب البريد الكبير. ارتاحت حين تمكّنت من اعتراض سبيل رسالتها، لدرجة أنّها ذهلت، وأعطت موظّف الشّباك كلّ نقودها. مساءً مدّت الرّسالة إلى فرانتس. وكان ذلك آخر مساءٍ يلتقيان فيه. تراسلا رسالتين أخريين في الأيام التي تلت، ثمّ انتهى كلّ شيءٍ بينهما.

ماذا فعل بمرافعة يولي؟ من دون أن يفتح المظروف، أرسله إلى ميلينا. وكان أن ردّت ميلينا على رسالةِ المفجوعة «الصّغيرة». ماذا فعلت يولي بجواب منافستها (الحادّ جداً)؟ حوّلتهُ إلى فرانتس من دون تعليق، فقط معلّماً بقلم الرّصاص. وضعت سطرين تحت هذه الجملة: «انسيه! لم يحدّثني قطّ عنك، لم يذكرك قطّ في رسائله إليّ».

ما أشنعها من كذبة! منذ رسائله الأولى، كان فرانتس قد حدّثها عن يولي، وكان يسمّيها «الصّغيرة». مدّها بتقريرٍ مفصّلٍ أمينٍ في شأن خطبتهما، ورسائلهما، لا بل حتّى إنّه قد طلب إليها مساعدته في فسخ هذا الارتباط! ولم ينتبه إلى جنون مسعاه إلا لحظة القطيعة النهائية مع يولي. لم يطلب الصّفح، ألفَ مرّةٍ، إلا من ميلينا.

فُقد أثر يولي يوم ١٥ يوليو/ تمّوز ١٩٢٠، أي اليوم الذي أجابت فيه فرانتس، تصدّه بحصافةٍ. نعلم أنّها فتحت محلَّ قبّعاتٍ: وقد اقترح فرانتس على أخته أوتلا الذّهاب إلى المحلّ وشراء قبّعة.

بضع سنواتٍ بعد ذلك، سقطت يولي فريسةَ هلاوس، فحُبست حتّى ماتت في مصحّة فيليسلافين، المصحّة نفسها التي كانت قد حُبست فيها ميلينا بتوجيهاتٍ من أبيها. في أيّ سنة دخلت يولي المصحّة وماتت فيها؟ ١٩٣٠، ١٩٣١، ١٩٣٢؟ هل أحرقت الرّسائل التي كان قد بعث بها إليها خطيبها، كي تطرده من حياتها كما طردها هو من حياته؟ لم تبقَ أيّ رسالةٍ.

إنّ ما نعرفُه عن علاقته بصانعة القبّعات الجميلةِ، «ذاتِ الطّبيعة شبه الفاتنة» على حسب قوله، إنّما نعرفه من الرّسالة التي بعث بها إلى أختها. المرأة التي كان قد لمحها في شيليسن، حين أتت تصطحب أختها إلى براغ. لمَ كتب يحكي في رسالةٍ طويلةٍ جداً، نحو عشرين صفحة، إلى امرأةٍ مجهولة؟ امرأة لم تسأله شيئاً. امرأةٍ لم يسبق لها أبداً أن كلّمته. امرأة تعرف قطعاً كلّ شيءٍ عن قصّة حبّهما العفيفة، وعن قطيعتهما. هل كان يسعى إلى تبرير موقفه؟ أم أنّه كان يريد أن يترك أثراً لما جمعهما من روابط، وما فرّقهما من أحداثٍ؟ هل كان يتصرّف على طريقة كاتب مذكّراتٍ مهووسٍ بحفظ الشّخصيات التي يلتقيها، وأحداث التّاريخ، وشؤون الحياة؟ غريت حرّرت فرانتس من فيليس. وميلينا خلّصته من «الصّغيرة». فعلتا بنفس الطّريقة: بالأسلحة نفسها التي وضعها بين أيديهنّ: الرّسائل.

بعد فيينا، وبعد هذا الصّدع الأوّل، واصل فرانتس وميلينا التكاتب بالوتيرة نفسها والطّول نفسه. غير أنّ نبرة فرانتس لم تعد كما كانت. إنّ حبّه، ذا الطّابع الاستحواذيّ دائماً، لم يجلب له إلا الألم:

«أنت أكثر من أحبّه يا ميلينا، أنت جزء منّي (حتّى وإن اضطررت إلى أن لا أراك أبداً)، لكنّك [أيضاً] السّكين التي أديرها في جرحي».

وبنبرةٍ حزينة، تكاد تكون مريرة، قال لها:

«ميلينا، إنّ ذكرى أيامنا الأربعة المشرقة، لا ينبغي أن تدفع بك إلى ارتكابِ خطأ. كثيرٌ من لحظاتنا الجميلة ندين بها ليقينك بأنّك سوف تعودين كلّ مساء إلى زوجك. ما عدتُ أصارعه عليك. معركتي معه لم تتمّ إلا فيك أنت نفسك. بدلاً من أن أحرّرك من إرنست، متّنتُ أواصركما».

وأيضاً:

«لو أنّي استطعت إقناعك أثناء تلك الأيّام الأربعة، لما كنتِ الآن في فيينا، وإنّما في براغ.

- صحيح، لقد طلبتَ منّي أن أترك إرنست وألحق بك، لكنّي لم أفعل، لم أستطع! إنّي امرأةٌ أكثر ممّا ينبغي لتواتيني القوّة على الخضوع إلى رهبانيتك وزهدك الأشدّ صرامة. أنا امرأةٌ واقعيةٌ، وأحبُّ الحياةَ حباً جمّاً.

- تعرفين يا ميلينا أنّا لا نستطيع أن ننقذ أحداً إلا بحضوره. لا وسيلة لنا غير ذلك.

- أنت محقٌّ. لو أنّي لحقت بك حين كنت ترجوني ألاّ أتخلّى عنك، لكنتُ أعطيتك البرهانَ على حبّي. ذاك برهانٌ ستفتقده إلى الأبد، وإنّ افتقاده هو ما يغذّي خوفك.

- خوفي هو أفضل ما فيّ، إنّه ما يشكّل ماهيتي، ولربّما هو أيضاً ما تحبّينَه فيّ».

نهاية شهر يوليو/ تمّوز أبدت ميلينا رغبةً في لقاءٍ فوريّ. فصارا إلى نقاشاتٍ مضجرةٍ حول تاريخ السّفر، ومدّته، يومين أو ثلاثة؟ ومواقيت القطارات، قال: «رأسي لم يعد سوى محطّة قطار». اختارا اللقاء في منتصف-الطّريق، عند الحدود النمساوية-التشيكية. ثمّ أيّاماً قبل الانطلاق، مرضت ميلينا، فألغت السّفر. واعترفت لفرانتس بأنّها لم تجد كذبةً معقولةً تتحجّج بها لدى زوجها الذي تخشى عنفه.

ثمّ قرّرت أن يلتقيا يوم الأحد ١٤ أغسطس/ آب، مدّة ستّ ساعاتٍ، بين قطارين: إذا ما انطلقَت من فيينا في السّابعة صباحاً، فسوف تصل إلى غموند في الحادية عشرة. ومنها تنطلق عائدةً نهايةَ الظّهيرة، فتكون في بيتها مساءً. وبالتّالي لن توقظ شكوك زوجها.

لقاءُ غموند كان كارثة؟ لمَ؟ لا أحد من العاشقين حكى ما وقع. خمسَ مرّاتٍ أو ستاً نبّه فرانتس ميلينا:

«ينبغي أن نكتب إلى بعضنا بخصوص ما وقع في غموند، وأن نتحدّث في الأمر».

لكنّه لم يفعل.

ميلينا أيضاً لم تكن أشدّ منه رغبةً في استعادة ما وقع في غموند، أو ما لم يقع فيها. تلك ذكرى لا يملكان الشّجاعة للخوض فيها. وما الفائدة؟

إذا ما استثنينا كونهما قد التقيا ستّ ساعاتٍ، ما الذي يتبقّى من ذاك النّهار؟ بقيت هذه الرّسالةُ الموجزة الغريبة:

«- هل خُنتَني في براغ؟

- لستُ حتّى أفهمُ معنى سؤالك يا ميلينا».

وبقيَ هذا الأمرُ من فرانتس:

«أوقفي تراسلك وماكس. لا أريد أن ينحشر بيننا أحدٌ، أو أن يفرض علينا نفسه. إن كنتِ قلقةً على صحّتي، فأنا المريض. وأنا وحدي أستطيع أن أخبرك عن حالي».

ثمّة إشارات تخبرنا بأنّه في تلك المدينة الحدودية، تكلّم العاشقان (اللذان لم يعودا كذلك) كثيراً وبإسهابٍ، لكنّهما تحدّثا كغريبين.

كتب إليها: «وقعَت، على وجه التّخصيص، خلافاتٌ (أيّ خلافات؟)؛ وخزيٌ، خزي يكاد يكون متعذّر الانمحاء (خزي ممَّ؟ من تعبه الشّديد؟ من عجزه؟ قال مؤكّداً: إنّ الرّغبة وحدها

كانت حقيقيّةً)؛ وأكاذيب (لو أنّي أتيت ألقاك في فيينا، لكنت الآن بقربي، ما تبقّى مجرّد أكاذيب)». كلُّ الأخطاءِ أخطاؤه هو، فهو الذي يقع في مرتبةٍ دنيا قياساً إليها. «مقارنةً بك، أحسّ نفسي قذراً».

لنعُد قليلاً إلى الوراء: ما الذي وقع طيلة الأسابيع الستّة التي تفصل فيينا عن غموند؟ إنّ التّفاصيل التي تزخر بها هذه الفترة، تنطوي ربّما على عناصر للإجابة.

ما إن ترك فرانتس فيينا، خافضَ الرّأس، كالخارج منهزماً من معركة: هزيمةٌ أخرى! أرسلت إليه ميلينا، بطبعها المتسلّط المتطلّب، لائحةَ مشتريات. فكان أن هرع من متجرٍ إلى آخر، باحثاً عن القماش المحيك، والكتب العشرة التي طلبتها منه. ووقف في الصّف كي يحصل على التّرخيص اللازم لكلّ إرسالية من تلك التي يعتزمُ إرسالها إليها، والتي ضمّنها نقوداً.

طيلة يومين طويلين، تحت حرارةٍ ماحقة، ٣٨ درجة مئوية في الظلّ، وقطارات الترامواي مضربة، وهو يتيه بين شواهد المقبرة بحثاً عن قبر يبنيشيك، أخي ميلينا، الذي كان قد مات صبياً في المهد؛ داخ رأسُه من فرط الانحناء على شواهد القبور التي انمحت حروفها المذهّبة؛ وبعد بحثٍ مضنٍ، اكتشف أنّ الرّضيع لم يدفن باسم والده، يِيسِنسكي، وإنّما باسمِ أمّه. لقد أغفلت ميلينا إخبارَه بهذا التّفصيل.

تساءَلَ وهو يضع باقة القرنفل المتعدّدة الألوان على حاشية القبر: لِمَ أرسلته ميلينا لزيارة قبرِ رضيعٍ مات منذ أكثر من عشرين

عاماً؟ هل أرادت معاقبته؟ علامَ؟ هل أرادت أن تقيمَ حداداً على حبّهما، وعلى الطّفل الذي لم يمنحها إيّاهُ، ولن يمنحها إيّاهُ أبداً؟

كلّفته [كذلك] بالتّفاوض مع لوران، المضجر، الثرثار، مدير مجلّة **لاتريبونا** التي تنشر هي فيها مقالاتٍ. ثمّ أن يلتقيَ مرّاتٍ كثيرةً مع صديقتَي طفولتها: أولاهما، وجدها فظيعةً:

قال لميلينا: «عندما أريد أن أتخيّل الجحيم، أفكّر في ستاسّا».

أمّا ثانيتهما، يارميلا، فتشبه شبحاً، تشبه ملاك الموت. وكانت تعيش مأساةً: زوجها، يوزيف راينر، اكتشف أنّها على علاقةٍ (أفلاطونيّة ربّما) مع أحد أصدقائه. فانتحر. خلقَ الخبرُ تهديداً ظلَّ يحلّقُ فوق رأسَي ميلينا وفرانتس: ماذا لو أقدم إرنست على الفعل نفسه؟

مهمّةٌ ثالثةٌ أشقُّ: ميلينا، المريضة المفلسة، تريد أن تتصالح مع والدها، وتقنعه بأن يخصّص لها منحةً منتظمة. لم يكن فرانتس يشعر بنفسه كفؤاً للقاء البروفيسور المُزدري بِيسِنسكي. فضّل التفاوض مع مساعدته، فلاستا، والتي كانت أيضاً عشيقتَه. بعد ذهابٍ وإيّابٍ لا يعدُّ، استطاع كسب القضيّة: تستطيع ميلينا أن تستشفي بسان-كليغن، على ضفّة نهر، مثلما كانت رغبتها.

وحين أبلغها الخبر، شاطَ بها الغضبُ:

«لقد فعلتَ كلّ شيءٍ بحماقةٍ، ولا مبالاةٍ، وفظاعةٍ مؤسفة!».

لقد أمضى ستّة أسابيع يجوب المدينة تحت حرارةٍ شديدة، وفي

صعودِ السلالم اللّولبية التي ما كان يرى لها حداً، وتحمّلِ كمٍّ من الثرثرة، والزيارات، والملاحظات الوقحة من طرف ستاسا ويارميلا، وقضى ظهيراتٍ بأكملها يفاوض أناساً يصدّونَه ويقلقونَه. مستنفَدَ القوى، قضى أماسيَ على أريكته، عاجزاً عن القيام بأدنى حركة، نيرانٌ تضطرمُ في صدره، وجسده غارقٌ في العرق، عرقٌ كان يبدو له أنّه ينزّ به جبينُه، وخدّاهُ، وصدغاهُ، وشواةُ رأسه، وجمجمته بأكملها. عاجزاً عن الحركة، ألقى نظرةً من النّافذة على المنزل المقابل، منزل بطابق واحدٍ، من دون أن يستطيع أن يحيد ببصره عنه.

وذات مساءٍ، زاره ماكس، فأفزعته حالُ الإنهاك التي بلغها صاحبُه، حتّى أنّه كتب إلى ميلينا، في غفلةٍ منه، راجياً منها أن تعتنيَ بصديقه على وجه السّرعة:

«لقد تفاقم مرضه، أما تعلمين؟».

وحينما كان يحلّ الليل حاملاً إليه القليل من الانتعاش، حينما كان يكفّ عن السّعال، كان فرانتس يجلس إلى مكتبه، رغم أوجاع الرأس. انهمك في كتابة تقريرٍ دقيق عن المهام التي أُوكلَ بها، مالئاً تقريره بالدّعابات، والملاحظات اللاذعة آملاً في أن يحصّل علاماتِ امتنانٍ، أو ابتسامة، أو ثناء من عند الأستاذة ميلينا.

الأستاذة التي كسرت مسطرتها على رأسه.

كتب إليها: «كيف للرّوح أن يرتاح من ثقله اللهم إلا بإبداءِ شيءٍ من شرّ؟». اعتذرت له الجاحدةُ في برقيّة. وكان الأوان قد فاتَ. لقد صرعته عبثيّتُها المروّعة. لم يستطع أن يوقف استشراء

سمّ اللّوم الذي ما انفكّت تقصفه به. ما عاد يستطيع قراءة رسائل ميلينا. صار يصلّي أن تختفي الشّابة من النّافذة، ما عادت به القوّة ليُساكنَ إعصاراً.

الاستياء، والنّدم، والكَلل، ونهايةُ وهمٍ، هوذا بلا شكٍ ما كان يختمرُ في غموند.

مشهدٌ من بين ألفِ محتملٍ:

كان كافكا خائفاً جداً من هذا اللقاء، لدرجة أنّه ما نام منذ أيّامٍ عديدة. وحين نزل من القطار، كان قلقه قد بلغ مبلغاً جعل فرائصه ترتعد. تقدّمت ميلينا للقائه، مرتدية الفستان الذي تفضّله، فستانَ الوداع. وإذ رأت الرّجلَ ذا الشّعر المشيب، والمشية البطيئة، والذي يحدّق فيها بعينين يضطرم فيهما الخوفُ، ويريد أن يصيح بها: «ميلينا، بتقدّمك في اتّجاهي، إنّما تسارعين إلى الهاوية»؛ ولم تقدر المرأة الشّابة، التي لم تُجاوز ربيعها الرّابع والعشرين، أن تكبح حركة تراجعٍ؛ إنّ رجل غموند لا يشبه في شيءٍ رجل فيينا، لا يشبه العشيقَ الحنون، المرح، المتيقّظ، الذي كانت تحبّه. إنّ الرّجل الذي يمدّ إليها ذراعيه، رجلٌ مريضٌ جداً. خيبةُ الأمل الهائلة التي أحسّتها تجاه الغريب الواقف إزاءها، بدت واضحةً له.

ستّ ساعاتٍ معاً؛ بدايةً ممدّدين على أرضٍ معشبة، ثمّ حين بدأت السّماء تمطرُ، راقدين كتمثالين على السّرير ذي الملاءات المُريبة بفندق المحطّة الحزين، فندق يقصده التّجار المسافرون.

فرانتس، بعينين مغمضتين، يتشبّث بيد ميلينا كأنّما يخشى

الغرق. [هذه المرّة] لم تكشف كتفها، ولا وضع شفتيه على نهدها العاري. بيدها تداعبُ وجهه كما يُداعبُ طفلٌ محموم. وبين لحظات الصّمت تلك، كان يطرق مجدّداً الموضوعَ نفسه:

- إن لم تستطيعي، إن لم تريدي أن تتركي زوجك، في الوقت الذي تعيش علاقتك فترةً سيّئةً جداً، فليس مردّ ذلك إلى أنّ إرنست مريض، ولا إلى كونك لا تستطيعين الانعتاق منه. وإنّما لأنّك لا تريدين العيش معي. أنا آفتُك؛ بدلاً من أن أبعدك عن زوجك أمعنت في تقريبك منه: إنّها الحقيقة التي تستحوذ عليّ. كلّ ما عدا ذلك ليس إلا أكاذيب. لنضرب صفحاً عن المستقبل، فلن نعيش معاً أبداً، لن نتشارك حتّى المدينة نفسها. لنقصر اهتمامَنا على الحاضر.

صاحت به:

- كُفَّ عن تعذيبي!

- لقد أخبرتك عديدَ المرّات يا ميلينا، ليس يهمّني إلا أن أعذَّبَ أو أعذِّبَ.

- لأيّ سبب؟

- لأنتزع الحقيقة. لأبتزّ الاعتراف.

قبل أن تترك الغرفة، لربّما تأخّرت الشّابة لبعض الوقت في المرحاض. يمزّقها الأسف، والإحساس بالذّنب، إذ تتذكّر رسالة ماكس التي يطلب فيها منها العناية بصديقه؛ لم تُعر تنبيه ماكس

اهتماماً، وظلّت تنهالُ على فرانتس بالتّقريع؛ تقول لنفسها إنّه سيموت قريباً، ما عاد يملك القدرة على الحياة.

إنّ فرانتس هو الرّجل الوحيد في العالم الذي لم يقبل قطّ تسويةً. لا أحد يضاهيه في قوّته المهولة، لا أحد يشابهه في اشتراطه المطلقِ بلوغَ الحقيقة. بلوغ الصّفاء.

حين عادا يسلكان طريق المحطّة، قرّر فرانتس أن يرسل بطاقةً بريدية إلى أوتلا، أخته، صديقته، نجيّته. لمَ أرسل هذه البطاقة التي ستصل بعدَه؟ هل يريد أن يترك دليلاً على لقائه بميلينا؟ متعبٌ هو لدرجة أنّه يقول لنفسه إنّه عاجزٌ. والدّليل لا يزداد إلا ثباتاً: لقد طلب من ميلينا أن تكتب السّطرين اللذين أملاهما عليها. وتحت السّطرين أضافَ: «لم يستطع التغلّب. تحياتي الخالصة». احتفظت أوتلا بهذه البطاقة، ويُرى عليها خطّ ميلينا، لكن ليس توقيعها. [لعلّه] حذُر امرأةٍ متزوّجة.

بعد غموند قصدت سان-كليغن لترتاح. أثناء أسبوعي راحتها، وشهر نوفمبر/ تشرين الثاني الطّويل، ظلّا يطرحان السّؤال نفسَه: لمَ علاقتنا محكومةٌ بالانتهاء؟

ظلّ كافكا يحمّل نفسه الخطأَ.

«لكنّ السبب الفعليّ، قال لها، هو عجزنا عن الخروج من كلّ هذه الرّسائل. ألف رسالةٍ منك، وألف رغبةٍ منّي، لن تغيّرَ في الأمر شيئاً».

مرّةً أخرى يحدّثها عن خوفه، خوف يمتدُّ ليغطيَ كلّ شيء:

خوفٌ من الهائلِ، خوفٌ من الصّغيرِ، خوفٌ من الليل، خوفٌ من انعدام-الليل، خوفٌ تشنّجيٌّ من قولِ كلمةٍ واحدة، خوفٌ من التوغّل في عالمٍ تملؤه الفخاخ، خوفٌ من المستقبل، خوفٌ من كلّ ما يحيا بصفاقةٍ، خوفٌ من أن يُتخلّى عنه، خوفٌ جهنّميٌّ من المعاناة. ثمّ، خاصةً، خوفٌ من ألاّ يكون عند مستوى التّوقّعاتِ، خوفٌ لا يقهرُ من أن يخيّب ظنّ النّساء اللواتي يحبّهن، وهاجسُ أن يكون عاجزاً. حين مارسا الحبّ بفيينا، على العشب، مرّاتٍ عديدة شعر بحلقه يختنق. وحين كان يتلبّسه الخوفُ، كانت ميلينا تنظرُ في عينيه، فينتظران لحظةً، ثمّ يستعيد نفَسَه، فيعود كلّ شيءٍ كما كان، بسيطاً وواضحاً.

إلى ميلينا، وإليها وحدها، حكى تجربتَه الجنسية الأولى التي هي، بحسب كلامه، أصلُ خوفه من الجنس. كان في العشرين من عمره، وكان طالبَ قانون. وذات ظهيرةٍ صيفية قائظة، وبينما يستعدّ لأن يحفظ عن ظهر قلبٍ فصلاً من فصول القانون الرّوماني، أبصر من نافذته البائعةَ الشّابةَ في متجر الحلوى المقابل لبيتهم؛ كانت قد خرجت تستنشق الهواء على الرّصيف. نظرت إليه الصبيّةُ، ونظر إليها. تبادلا الابتسام. وبالإشارات اتّفقا على موعد. وحين حضر في السّاعة الثامنة، كانت هي مشغولة في الحديث مع رجلٍ. وحين ابتعدا، أشارت إلى فرانتس بأن يتبعهما؛ قصد الزّوجان مقهىً، وجلسا فيه وطلبا بيرة. وهو أيضاً طلب بيرة، جالساً بمفرده إلى الطاولة المجاورة. بعد ذلك قاما، وسارا باتّجاه بيت الشّابة، وفي إثرهما فرانتس. كان الأمر بالنّسبة إليه مهيّجاً، مثيراً، وبغيضاً.

انصرف الرّجل. وبعد ذلك بقليل، قصد فرانتس والبائعة فندقاً. ولم يغادراه إلا فجراً. قابلها بعد ذلك بيومين. جسدُه الذي كان يئنُّ منذ شهورٍ طويلةٍ، صارَ مرتاحاً، سعيداً. بعدها بمدّةٍ قصيرةٍ سافر فرانتس. وبعد عودته ما عاد يطيقُ رؤية تلك الفتاة، مع أنّها كانت ودوداً جداً، لم يعد قادراً على أن يقول لها كلمة، ولا كلمة اعتذار، لا شيء.

لماذا؟ يقول إنّ تلك الفتاة قد أقدمت في الفندق، محضَ براءةٍ، على فعلٍ لا يستحقُّ أن يفصّل فيه، وقالت كلمةً قبيحةً لا تستحقُّ بدورها أن تكرَّر. لكنّها أثارته بعنفٍ أهوج.

بعد ذلك، صارت تهزّ جسدَه (يتحدّث عن جسده كأنّما عن شيءٍ موكولٍ به)، بشكلٍ لا يطاقُ وعلى فتراتٍ منتظمة، تلك الرّغبة النّابضة، الرّغبة في شيء قذرٍ مقزّز. لم تبارحه قطّ ذكرى تينك الفاحشتين الصّغيرتين: الفعل الصّغير، والكلمة الصّغيرة. ولزمنٍ طويل ظلّ يعتقد أنّ تلك القذارة وتلك الفظاعة تشكّلان جزءاً لا يتجزّأ من كلّ شيء. من تلك التجربة، بقيت له، إلى الأبد، ذكرى، رائحةٌ كريهة، شيءٌ من الشّيطنة، شيٌّ من الجحيم، حتّى في ألذّ اللّذات.

قال متهكّماً: «إنّ شيئاً تافهاً هو ما حسمَ حياتي الجنسية؛ كذلك شأنُ المعارك الكبرى في التّاريخ؛ إنّ مصير العلاقات الجسدية تحسمُه توافه الأمور»[1].

---

(١) تلعب المؤلّفة هنا على معنيين من معاني كلمة bagatelle، والتي تشير، من بين ما تشير إليه، إلى توافه الأمور وإلى العلاقات الجنسية. إنّ مصيرَ les bagatelles (العلاقات

لم يفصح بميله إلى المواخير إلا ليومياته: «مررتُ بقرب الماخور، كأنّما أمرُّ من أمامِ بيتِ عزيزٍ». أثناء جولاته اليومية ببراغ، كان يختار الأزقّة التي تقف فيها المومس، ذاك أنّ المرور من أمامهنّ يثيره.

ومن حين إلى آخر، يتوقف عند إحداهنّ. شهر يونيو/ حزيران بلغ عددهنّ ستاً. ليس يعرفُ ما هو أمتع وأشدّ براءةً من إشباع تلك الرّغبة، إشباع لا يخلّف في نفسه أيّ ندمٍ. لا يشتهي إلا الفتيات البدينات، النّاضجات شيئاً ما، اللواتي يلبسن ملابس عفَت عنها الموضةُ، ويضعن إكسسواراتٍ رخيصة تضفي عليهنّ مسحةً من ترف. أو الفتيات ذوات المؤخّرات السّمينة جداً. كانت ثمّة واحدةٌ لم يكن أحدٌ سواه يجدُ فيها شيئاً جذّاباً. كانت تعرض نفسها على الرّصيف، مرتدية معطفاً أصفر ضيّقاً جداً. وحين يصادفها في طريقه، يستدير مرّاتٍ عديدة ليتأمّلها. أمس، صادف فتاةً هي بمثابةِ هوّةٍ من القبح. لكنّها أعجبته رغم ذلك.

في باريس تردّد على المواخير رفقة ماكس برود: وقد وصف تنظيمها، والجرس الكهربائيّ الذي تتوفّر عليه. وأسفَ على كون الصالون يعجّ بالفتيات، وأنّهن يحدّقن في المرء، فيصعب الاختيار بينهنّ.

«إنّي عاجزٌ عن فهم كيف وجدتُ نفسي في الشّارع، وعاجزٌ عن فهم كيف حدث الأمر بهذه السّرعة».

الجنسية)، تحدّده les bagatelles (توافه الأمور).

بهذه السّرعة؟

مُذ عرف ميلينا، ما عاد مدفوعاً عبثاً في عالمٍ قذرٍ عبثاً. بفضلها ما عاد يحنُّ إلى القذارة. ما عاد يخاف.

في غموند، والحقُّ يُقال، عاد إليه الخوف فقط لأنّه خطرت بباله فكرة أنّ ميلينا لن تكون له أبداً. لقد أضاعها.

يوم ٢٠ نوفمبر/ تشرين الثاني، وضع حداً لتراسلهما الغراميّ. رضخت ميلينا للأمر. قالت إنّها، في الواقع، لا تحمل إلا رجاءً واحداً: الابتعاد عنه.

حوالي منتصف ديسمبر/ كانون الأوّل، فرَّ. بنصيحةٍ من طبيبه، لجأ إلى ماتلياري، وهو منتجع صحيّ يقع في جبال تاترا، على ارتفاع تسعمائة متر، ويقصده المرضى كما السيّاح الذين يأتون للقنص. ممدِّداً إجازاته، واحدةً بعد أخرى، بقي هناك عشرة أشهر، حتّى يوم ٢٦ أغسطس/ آب ١٩٢١.

إلى ماكس برود، وإلى أوتلا، وإلى أصدقائه، ظلّ يكتب بحيويّة، وغالباً بمزاجٍ مرح! كان يكتب إليهم عن الغرف التي تنقّل بينها حتّى وجد الغرفةَ المناسبة. وكان يصوّرُ بورتريهاتٍ للنّزلاء المحيطين به، نحو ثلاثين نزيلاً، وينقل أحاديثهم. كان يحسن الإصغاء بصدقٍ، لذا ما كان المتحدّثون يجدون حرجاً في الكلامِ أمامَه. وحول المائدة كانت معاداة السّامية موضوعاً أثيراً: كانوا ينهالون بالسّياطِ على الجُبن الأسطوري الذي يتّصف به اليهود (أشكال التّخاذل التي أبدوها كي يعفوا من الحرب). «أمّا الشّيوعيون اليهود، فقد كانوا

(كما كتب إلى ماكس) يُغرَقون في الحساء، ويقطّعونَ مع الشّواء؛ ثمّ يُصار بعد ذلك إلى الضّحك، ويُعتذَر إليَّ».

يفصّلُ القولَ في نظامِه الغذائيّ: (لتراتٍ من الحليب والقشدة، لا لحمَ البتّة، فاللّحم يهيّجُ بواسيرَه). ويشتكي (دائماً وأبداً) من الضّجيج الآتي من المطبخ، والمطعم، والغُرف، والشّرفة المجاورةِ «حيث يُنشدُ شابٌّ ترانيمَ إبراهيميّة، ويده محشورة في فتحة بنطاله».

ولكي يفلت من تلك الجلبة التي تفقده صوابه، إذ أنّ سمعَه، وقد شحذَه القلقُ، صار يلتقطُ كلّ شيءٍ؛ قلنا لكي يفلتَ من كلّ تلك الجلبة لاذ، مثلما كان قد فعل في تساوراو عند أخته أوتلا، إلى مرجٍ جميل، وسط الغابة، جزيرة بين جدولين. وهناك، غارقاً في الصّمت، مثل سمكةٍ في أكواريوم، كان يتساءلُ عمّا إذا كانت أصواتُ جيرانه تحتجُّ عليه لأنّها تغبطُ الفراغ والوحدة اللذين ينعم بهما.

إلى ماكس فقط كان يتحدّث عن حالِ صحّته، عن الدّمامل في أليَته الغائرةِ جداً لدرجة أنّها لا تندمل؛ وعن مغامراته الغرامية، نُزهتين في الغابة مع شابّةٍ، لم يحدث بينهما شيءٌ، فقط نظراتٍ مطوّلة؛ عن العاصفة الثلجية الشّديدة التي تعصفُ منذُ خمسةَ عشرَ يوماً، وفرضت عليه البقاء في سريره؛ الحمّى ترتفع، لا يستطيع أن يقرأ، ولا أن يكتب، ولا أن ينام، ولا أن يسهر، إنّه متضعضع، ولا يكفّ عن السّعال. وما إن صحّ من الأنفلونزا، حتّى ضربته مجدّداً حمّى معوية.

تشبه رسائلُ ماتلياري التمارينَ الأسلوبية التي انغمس فيها بتسوراو، أيّامَ كان يصف معاركه البطولية ضدّ الفئران. إحدى الرّسائل تصف زيارته لأحد جيرانه بالسّكن، تشيكيّ مصابٌ بالتهاب حنجرةٍ سُلِّيّ؛ ذات يوم، سحبَه هذا المريض إلى غرفته، وبصوتٍ غائرٍ كأنّما يتكلّمُ من كهفٍ، شرح له كيف يعمل، بواسطة انعكاس مرايا، على تعريض القروح التي تلهب حنجرته إلى الأشعّة، على الرّغم من أنّه يجازف بأن يصاب بحروقٍ خطيرة. ثمّ إنّه فتح فمه وُسعَه ليري ضيفَه الجروح في حنجرته. شعر كافكا بالإغماء ينقضّ عليه كموجة، ما عاد يسمع أو يرى شيئاً؛ مستنداً إلى الجدران لاذ بالشّرفة، وظلّ هناك في البرد. وإذ استعاد شيئاً من قوّته، غادر الغرفة من دون أن يستأذن حقّاً من مضيفه. بضع كلماتٍ فقط: «ما أجملها من أمسية!»، ليفسّر خروجَه إلى الشّرفة؛ وليبرّر هروبَه، قال إنّه «يشعر بالتّعب».

يقول: إنّ ما رآه في ذلك السّرير «أشدّ رعباً من إعدامٍ، وأشنع من تعذيب؛ إنّ تلك الحياة البائسة، والحمّى، والاختناق، والمرايا، وامتصاص المخدّرات، كلّها جميعاً لا تنشد إلا غايةً واحدةً: تمديد العذاب الذي يفرضه هذا المريض على نفسه عن طيب خاطرٍ؛ وفوق هذه المحرقة التي تستعرُ ببطءٍ، ثمّة أقرباء المريض، وأطبّاؤه، وزوّارُه، الذين يواسون المعذَّبَ ويشجّعونه على تحمّل المزيد من العذاب؛ وما إن يصيروا في غرفهم، حتّى يسارعوا، مرعوبين، إلى غسل أيديهم، مثلما فعلت أنا الآن».

في ماتلياري، ليس ثمّة فقط مرضى يحتضرون. وإنّما يصادف

فرانتس أيضاً شابّاتٍ، صبايا في صحّةٍ جيّدة، خادماتٍ جميلات، والعديد من السيّاح. في شهر فبراير/ شباط، ربطته صداقةٌ فعليّة بأحد النّزلاء، روبيرت كلوبستوك، شابٌّ في الحادية والعشرين من عمره، أوقفَ دراسته في الطّب، كي يتفرّغ لعلاج رئتيه اللتين بالكاد أصابهما المرض. إنّ الشّابَ المنحدر من بودابست، طموحٌ وذكيّ، ومحبٌّ للأدب، طويلُ الجسمِ عريضُه، محمرّ الخدّين، أشقر، سمينٌ جداً (خاصّةً إذا ما قورن بفرانتس الذي بالكاد بدأ يستعيد الكيلوغرامات التي خسرها). كان روبرت يأتي كلّ مساءٍ إلى غرفة فرانتس، ليضع له، بأشدّ العناية، كمادات ماءٍ باردة. يتحدّثان لساعاتٍ. ويزداد اهتمام فرانتس بصديقه الجديد أكثر فأكثر؛ فيطلب من أوتلا أن ترسل إليه من مكتبته كتباً يأخذها.

وإلى ماكس:

– هل تستطيع أن تساعده في مستقبله؟ إنّه يهوديّ، لكنّه ليس صهيونياً. معلّماهُ هما دوستويفسكي والمسيح.

منذ رسالة ٢٠ نوفمبر/ تشرين الثاني، لم تعرف ميلينا عنه شيئاً. ثمّ، ناكثةً العهد الذي قطعته إلى ماكس، كتبت لفرانتس. ردّ عليها بهذه الأسطر: «لا تكتبي إليّ، وتجنّبي اللّقاء بي؛ فقط نفّذي هذا الرّجاء، من دون أن تقولي كلمةً؛ وحده هذا الرّجاء يمكّنني من أن أواصل العيش قليلاً، ما تبقّى لا يعمل إلا على تدميري».

أطاعت ميلينا أمرَه، لكن حوالي منتصف أبريل/ نيسان، وذات مساءٍ ضيقٍ كتبت إليه مرّةً أخرى؛ ترجّته أن يخبرها مرّةً أخرى بأحواله.

علمَ من ماكس أنّها، بعد تفاقم مرضها، تصالحت مع والدها، وقررت أن تعيش عنده. على الفور طلب إلى صديقه:

«أعلمني بموعد وصولها إلى براغ، والمدّة التي تنوي المكوث فيها، فأنا أريد أن أتجنّب لقاءها».

قرارُه لم يصمد. نهاية أغسطس/ آب، التقى ميلينا. وأول أيّام أكتوبر/ تشرين الأوّل، أعطاها دفاتره الثلاثة عشر السّميكة، (هل هي الوحيدة التي قرأت، أو حازت، يومياته قيد حياته؟) نهاية نوفمبر/ تشرين الثاني، استقبلها أربع مرّاتٍ في بيته: ما عاد يبارح سريره؛ كانت زيارتُها على عادتها، حنوناً ومُرضيةً، لكن ضجِرة بعض الشّيء، وفيها شيءٌ من إكراه، كزياراتنا المرضى.

في بهو البيت، كانت تصادف والديه؛ يستقبلانها استقبالاً بارداً، خاصّةً هرمان كافكا، الذي يتذمّر حين تمرّ من أمامه.

وبينما يتأمّل فرانتس الشّابة الجالسة أمامَه، يتذكّر لقاءهما الأوّل في مقهى أركو:

يقول لنفسه: «أنا ذاكرةٌ حيّة، هوذا أحدُ أسبابِ أرقي، دائماً ميلينا، أو ربّما ليس ميلينا، وإنّما نوراً في قلب الظّلمات».

أتكون في قلب تلك الظّلماتِ ذكرى مهانةٍ لم يعترف بها قطّ؟

أليس غريباً، أنّنا في كومة الرّسائل التي أرسلها إليها كافكا (حوالي مائة وخمسين رسالةً)، لا نعثر في أيّ موضعٍ على صدى الإعجاب الذي تكنّه لعملِه؟

في الوقت الذي كان فيه هو يغمر بالمديح الصّاخبِ أدنى مقالٍ تكتبُه.

لأنّها قرأت **الوقّاد**، **والتحوّل**، **وطبيبٌ ريفيّ**، قرّرت ميلينا أن تترجمَ نصوص كافكا؛ تلك النّصوص هي ما قادها كخيط أريانا إلى كافكا وربطها به.

أثناء شهور اشتغالها على ترجمة نصوصه، ظلّت تفتّش في اللغة التشيكية عن المقابل الأمين لكلّ كلمةٍ من كلماته، حريصةً على تأدية إيقاع جملته، ومقاصده الخفيّة. لا أحدَ إذن قرأه بالعناية التي قرأته بها هي.

كانت تمدّه بكلّ ترجمةٍ تقوم بها؛ وعلى الفور يهنّئها ويثني على عملها، ويناديها «الأستاذة ميلينا»: يحلم بأن يكون تلميذاً لها، ويؤكّد لها أنّها تجعل قصصه مقروءةً، «قصصه الرّديئة، الرديئة على نحوٍ مذهل»؛ بالكاد كان يجرؤ على أن يشير في ترجماتها إلى تناقضاتٍ مزعجة.

في بداية تراسلهما، شهر مايو/ أيار، حكى «لعزيزته مدام ميلينا» قصّة أوّلِ نجاحٍ حصدَه فيودور دوستويفسكي: كان الكاتب الرّوسيّ بالكّاد قد أنهى روايته الأولى: **الفقراء**؛ صديقه الذي كان يشاركه الغرفةَ، غريغوروفيتش، وكان هو أيضاً كاتباً، قرأه على الفور؛ مفتوناً بالنصّ، انقضَّ عليه، وهرع يعرضه على أشهر ناقدٍ في البلاد. في الرّابعة صباحاً رنّ جرس باب دوستويفسكي: دخل صديقُه والنّاقدُ الشّهير، نكرسوف؛ كانت تلك المرّة الأولى التي يرى

فيها النّاقدُ فيودور، فقبّله وعانقه، وأسماه «أملَ روسيا». وقضوا معاً ساعتين يتحدّثان بشكلٍ رئيسٍ في الرّواية.

يضيف كافكا أنّ دوستويفسكي، الذي يذكر تلك اللّيلة في مذكّراته بوصفها أجمل ليلة في حياته، قد مال من نافذة غرفته، وتابع الرّجلين يبتعدان في الفجر؛ بحنجرةٍ مختنقةٍ من التأثّر، انخرط في البكاء؛ ولم يكفّ عن ترديد: «ما أروعهما من مخلوقين! ما أطيبهما وما أنبلهما، وقد أتيا ليلاً، بلا انتظارٍ. أه، ما أجملَ هذا وما أنبله!».

ليس هذا كلّ شيء.

فاتح أغسطس/ آب، حلُم فرانتس بميلينا، حلمٌ حزينٌ يرويه بحشدٍ من التّفاصيل: كانا يتجوّلان معاً في أحد أزقّةِ براغ؛ ميلينا بوجهٍ مطليّ بالمساحيق، مساحيق موضوعةٍ بشكلٍ سيء، أبدت تُجاهه برودا، برودا لم يجد له تفسيراً؛ في المقهى التقيا برجلٍ يشبه دوستويفسكي، وكان الرّجل يبدي جانب الودّ والانفتاح والتفهّم كلّما سأله فرانتس سؤالاً. ثمّ يتجاهله ما إن يكفّ عن مساءلته.

لم تُحدث القصّتان أثراً: لقد رفضت ميلينا أن تكون نيكراسوف؛ ولا ريب في أنّه بعدما يئس من الحصول على ثناءٍ، أو أقلّه على تشجيع، اكتفى بعتاب. قال لها:

«وبّخيني بعنفٍ، لأنّك تحسنين كلّ شيء، لكن وبّخيني أفضل من الجميع».

في حين لامَ فيليس بعنفٍ لأنّها لم تقل شيئاً عن مجموعته القصصية

الأولى، لم يجرؤ على أن يسأل ميلينا رأيها مباشرةً. كانا يتحدّثان في الأدب؛ ستيفنسون، الذي لا يعرف عنه كافكا شيئاً، هو المؤلّف المفضّل عند ميلينا، مع تشيكوف. فرانتس أيضاً يحبُّ تشيكوف، أحياناً يحبّه بجنون؛ بالمقابل وجّه نقداً لاذعاً لرواية طالبته ميلينا غير ما مرّةٍ بأن يقرأها على وجه الاستعجال، روايةً كانت تمجّدها كثيراً: **ماري دوناديو**[1].

ظلّ مع ذلك يرمي الصنّارة باتّجاهها: أخبرها عن اللهفة وفيض المشاعر اللذين يستقبل بهما كلّ مقالٍ جديد تكتبه، لا يستطيع تحمّل ألم أن يفلتَ مقالاً من مقالاتها؛ يعلّقُ عليها، ويحفظها مثل قِطع أثرية. يشتري منها العشرات، كما يشتري العشرات من القصص التي ترجمتها له.

أرسل إليها **الرّسالة إلى الأب**؛ وأوّل أيام أكتوبر/ تشرين الأوّل أعطاها **يومياته**؛ كانت الشّخصَ الوحيد الذي عهد إليه بدفاتره الزرقاء السّميكة. ماكس نفسُه لم يطّلع إلا على مقاطع قليلة منها.

بوسعنا أن نُقسمَ على أنّ فرانتس كان ينتظر أن ترميه ميلينا، مفتونةً، ببعض الزّهور. لكنّها، مرّةً أخرى، لم تقل شيئاً. الدّليل؟ يوم ٢٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٢، أي أربعة أشهر فيما بعد، دوّن ملاحظةً تفيدُ بأنّه ينبغي أن يطرح عليها هذا السّؤال:

«هل وجدت في **اليومياتِ** دليلاً جازماً ضدّي؟».

---

(١) الرواية لشارل لوي-فليب (١٩١٤).

لربّما كان يتساءلُ عمّا إذا كانت ميلينا قد تجشّمت عناءَ فتح دفتر من دفاتره؛ أتكون قد حشرتها ونسيتها في ركنٍ من دولابها الهائل؟

هل خلص إلى قرارِ توسّلِ لومٍ، كي يدفعها دفعاً إلى قراءة قلبِه المكشوف؟

يوم ١٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٣، وقد ألمّ به مرضٌ شديد، كتب إليها رسالةً طويلةً جداً، كلّها تهانٍ تكاد تحاذي التملّق: لقد قرأ للتوّ مقالها **الشيطان في البيت**، ولا يجد ما يكفي من الكلمات ليعبّر بها عن إعجابه: «مقالٌ رائعٌ ومؤثّر، حيثُ طابعُ فكرك المبهرُ يصدمُ ويؤثّر».

على النّقيض من ماكس، وأوسكار، وفيليكس، وإرنست الذين، لفرط حماسهم، كانوا يتلوّون من الضّحك وهو يقرأ لهم **التحوّل** أو الفصول الأولى من **المحاكمة**، فإنّ النّساء، أولئك المغرمات به، كنّ يكتشفن في عمله عالماً ليس الإنسانُ فيه إزاء الشّمس إلا ظلاً جديراً بالشّفقة، عالماً عبثياً كلُّ فعلٍ فيه محكومٌ بالفشل، حيثُ البريئون يعترفون بأنّهم مذنبون، وحيثُ رسولُ الإمبراطور نفسُه لا يستطيع أن يوصل رسالته، لأنّه «إذا بلغ أسفل السّلالم، لن يكون قد أحرز أيّ تقدّم، إذ عليه أن يعبر الأبهاء؛ وبعد الأبهاء، القصرَ الثاني المحيط بها، ومجدّداً السّلالم والأبهاء؛ ثمّ قصراً آخر؛ وهكذا على امتداد قرونٍ وقرون». مشلولاتٍ من الرّعبِ، لا تستطيع أولئك النّساءُ معرفةَ أيّ رجلٍ يحببنَ، يصرن عاجزاتٍ عن الفصل بين التخييل والواقع.

ومع ذلك... غبَّ موتِ كافكا، نشرت ميلينا نعياً، لا يمكن للمرء أن يقرأه، ويعيد قراءته، من دون أن يتأثّر كلّ التأثّر. تحليل رائعٌ للرّجلِ وعمله، من بين أدقّ وأرقّ ما كُتب فيه[1].

يوم ٨ مايو/ أيار ١٩٢٢، التقى ميلينا للمرّة الأخيرة. وانتهى لقاؤهما الخاطفُ كجرح لا يلتئم.

يناشد نفسه في يومياته: «لا تحزن، لا تُكره نفسك على شيء، ولكن [أيضاً] لا تحزن على عدم وجود ما يُكرِهك، كُفَّ عن تشمُّمِ إمكاناتِ الإكراهات».

عبثاً كان يواسي نفسَه، إنّ الضّيق يشدّ عليه.

يلاحقه لغزٌ، اللُّغزُ نفسه دائماً: إذا ما كان قد استطاع أن يكون سعيداً في مارينباد، مع فيليس، فهل بوسعه أن يكون سعيداً اليومَ، هنا في براغ، مع ميلينا؟ بعد قطيعتهما المؤلمة بغموند؟

يشكّ في ذلك؛ لا يفصل بينه وميلينا جدار، وإنّما قبرٌ. ومع ذلك تضغط عليه الرّغبةُ الجنسية، تعذّبه ليل نهار.

يقول لنفسه: «كي أُشبعَها، ينبغي أن أتجاوز خوفي، لا شكّ في أنّ عفّتي هي أيضاً كآبتي».

مصدوداً من ميلينا، ملعوناً، مطروداً من عالم الأحياء، يرى نفسه عاجزاً عن الارتباط بأيّ كان، دفَنَ نفسه: لاذ بالصّمت والليل في وِجاره، المكان الوحيد الذي يحسّ فيه بأنّه في مأمنٍ. في

(١) نورد مقطعاً منه في الفصل المعنون بـ «بعد ١٩٢٤». (المؤلّفة)

تسعة شهورٍ، متوسّلاً بقلمه، بنى القلعة، روايته الثالثة والأخيرة[1]، أشدّ رواياته شخصيّة، وأكثرها مجازاً، الرّواية التي ما ننفكّ نتساءل بخصوصها: أهيَ ذكرى خيبةٍ تحلقُّ هناك في الأعلى؟

(١) رواية القلعة (التي لم يكمل كافكا كتابتها)، نشرها كورت فولف بميونيخ سنة ١٩٢٦. طبع منها ألفاً وخمسمائة نسخةٍ، ولم يبع منها الكثير. (المؤلّفة)

VI
دورا

-من ١٣ يوليو/ تمّوز ١٩٢٣ إلى ٣ يونيو/ حزيران ١٩٢٤-

«إن قُدّر لي بلوغ الأربعين، فسوف أتزوّج على الأرجح شابّةً متقدّمةً في العمر، أسنانُها الأمامية بارزة ومكشوفةٌ عنها قليلاً شفتُها العليا».

اليوميات

الصبية والموت

حين كان يتساءل عن هويّته، كان فرانتس يقرُّ بأنّه يهوديّ بين لا-يهودٍ، غير مؤمنٍ بين مؤمنين، ألمانيّ بين التشيكيّين. بالطبع هو يكتب بالألمانية، لكنّه يكتب بها بشعور من يتملّك شيئاً ليس له؛ يقول إنّ قائمتيه الخلفيّتين ما تزالان عالقتين في لغة أجداده.

كان شهر مايو/ أيار، من سنة ١٩١٧، السنة التي شهدت القطيعة النهائية بينه وبين فيليس، هو الشّهر الذي اقترب فيه من اليهوديّة؛ ثلاث سنواتٍ قبل ذلك، كان قد أعلن أنّ لا شيء يجمعه باليهود، فبالكاد ثمّة ما يجمعه بنفسه. والآن، غدا يتابع عن كثب التيارات الفكرية والسياسية التي تحرّك المثقفين اليهود ببراغ. اشترك في المجلة الصهيونية زيلبستفيهر (دفاعاً عن الذات) التي كان يشرف عليها صديقه الفيلسوف فيلتش[1]، وصار يلتهم الأعداد من أولّ

(١) كان أمين مكتبة بجامعة براغ، وهاجر إلى فلسطين حيث صار أمين مكتبة جامعة القدس، وهناك مات سنة ١٩٦٤. (المؤلّفة)

سطرٍ إلى آخر سطر. بسعادة ونهم قرأ [كذلك] المجلدات الثلاثة لتاريخ اليهود الشعبي لمؤلّفه هاينريتش غرايتز.

شرع في تعلم العبرية بمفرده بفضل الدروس الخمسة والأربعين في كرّاس موزيس راث. ثم استعان بمدرّسِين: أوّلهم، غيورغ موردخاي لانغر، وكان يتفاخر بتخلّيه عن تربيته الغربية؛ فيلبس ويعيش كأحد الحاسيديم. ثم الرِّبّيُّ فريديرش تايبرغر، وهو فيلسوف صهيوني، شغوف بالتصوير الفوتوغرافي. وأخيراً شابّةٌ ولدت في القدس، واسمُها بواه بن توفيم.

ثلاثتهم علّموه اللغة الدنيوية التي صاغها يهوديّ من ليتوانيا، إليعزر بن يهوذا، الذي هاجر إلى فلسطين ومنذ نوفمبر/ تشرين الثاني، منذ إعلان بلفور، وهو يجاهد لفرض لغتِه لغةً رسمية، في حين كان ظنُّ تيودور هورتسل أنّهم في أرض الميعاد سوف يتكلّمون الألمانية.

من بين أساتذته الثلاثة كان فرانتس يفضّل بواه، لأنّه يرتاح أكثر في حضور شابّة، لأنّها تعلّمه لغتها الأمّ، ولأنّها أول طائر يأتيه من فلسطين. كانت تعطيه ثلاثة دروس في الأسبوع، بغرفته في بيته. وحين تسمع السيّدة كافكا ابنها يسعل، تركض إليه قلقةً. لكنّ نظرة فرانتس المبتلّة بالدمع تسمّرها عند العتبة. فتنصرف خافضةً رأسها. تحارُ بواه في أمرها، فلا تدري أتكملُ الدرس كما يطالب فرانتس، أم تنسحب تحقيقاً لرغبة أمه.

انخرط في الدراسة بمثابرة عظيمة، لدرجة أنّه ما لبث أن بدأ

في قراءة إحدى روايات برينر، **عقم وفشل**، كتاب صعب لم يرقه، ولم يستطيع أن يقرأ منه أكثر من صفحة واحدةٍ في اليوم. لكنّه يحب بإطلاق كلّ ما تحكيه له بواه عن حياتها بفلسطين، وعن وظيفة مدرّسة الرياضيات التي تمارسها ببراغ، حيث قدِمت تقضي سنةً. إنّ هذه الشّابة قد وُهبت المقدرة على أن تنشر بعضاً من مرحها واطمئنانها الهادئ حيثما حلّت.

على امتداد الشّهور ملأ خمسة دفاتر[1] بتمارين النّحو وجداول المفردات: شمالاً الكلمات الألمانية، ويميناً مقابلها العبريّ. وعلى عشر ورقات متناثرة بداياتُ قصص وحروفٌ عبريةٌ، وخربشات، ورسومات. صار يبدو له الآن مُلحّاً حفظُ هويّةٍ توشك تندثرُ وذاكرةِ شعبٍ[2].

على فترات منتظمة، مثل حلم كثير التردّد، كان يخطّط للهجرة إلى فلسطين. فعلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط، الجافّة المشمسة، سيكون أفضل حالاً. وستكون شروط الحياة نسبياً أرخص؛ فواكهه المفضلة، الكرز، والموز، والفراولة، ستكون كلّ يوم على مائدته. في براغ، ثمن تلك الفواكه باهظ جداً. يقدّر أنّه، هناك، سيستطيع في الغالب الأعمّ التوفير من معاشه.

---

(١) أهدت بواه بن توفيم المكتبةَ الوطنيّةَ بإسرائيل دفتر النّحو الذي تركه لها كافكا. (المؤلّفة)

(٢) لم تنشر دفاتره ولا رسائله العبرية. كانت عادة فرانتس أن يبدأ الكتابة في دفتره من طرفيه، فيلتقي النّص في وسط الدّفتر، (كثيراً ما انتهج ذلك في يومياته). (المؤلّفة)

أكتوبر/ تشرين الأوّل ١٩٢٢، بتشجيع من إلزه برغمان، زوجة أحد زملائه، فكّر جديًّا في الرّحيل. أليس مشروعاً ترك براغ؟ الفرار من الكراهية المعادية للسّامية؟ أليس الطبيعيّ أن تترك مكاناً أنت فيه مكروه إلى هذا الحد؟ كان يقول: إنّ البقاء يعني التحلي ببطولة الصراصير التي ما من شيء يستطيع طردها من الحمّام.

كانت صحيفة فينكوف التشيكية تقدّم لقرّائها يومياً وقائعَ عبر القرون، لا أحد يدري من أين تستقيها. وقائع كلّها تشهد بخسّة اليهود وجبنهم وجشعهم وغدرهم. وذات مساء شاهد فرانتس من نافذته الشرطةَ والدرك ببنادق الحراب، يفرّقون حشداً كان يهاجم متاجرَ يهوديّةً صائحاً: «أيها العرق الأجرب». أحسّ بعار أن يعيش تحت الحماية.

حين كان يمرّ من أمام مبنى البلدية اليهودية حيث يحتشدُ مئات المهاجرين الرّوس والبولنديين منتظرين الحصول على تأشيرة لأمريكا، كان يغبط أولئك الشّباب اللامبالين، الذين هم على وشك عبور المحيط الأطلنطي. يعلم أنّه، مثل موسى، لن يدخل قطّ بلاد كنعان. إنّما هي فقط أمَانٍ كتلك التي قد تداعب خيال رجلٍ مقتنع بأنّه لن يترك سريره أبداً. لكن من يدري! لعلّ من لا شيء يَخْرُج كلّ شيء.

ثمّ لابد للمرء من تربية الأمل.

في انتظار ذلك، اكتفى فرانتس بتعلّم اللغة الموعودة، كتابة الأسلاف. لم يلقّنه والِدُه أي تربية دينية. صحيح أنّه حظي بشعيرة

بار ميتسفا[1]، أقيمت له في بيعة الغجر يوم ١٤ يونيو/ حزيران ١٨٩٦[2]. اليَوْم الذي شهدَ ميلاد ميلينا.

أكتوبر/ تشرين الأوّل ١٩١١، تعرّف في مقهى أركو، أحقر مقاهي براغ، على جيزاك لوفي. وكان الرّجلُ ممثّلاً يسعى، عبر عروضه وقراءاته، إلى إنقاذ اللغة اليديشية من النّسيان. كان كافكا، وقد صار أكبر معجبيه، يريد أن يصفق له جاثياً على ركبتيه في الغبار. كان يساعده بكلّ الطرق الممكنة، ويناضل في سبيل الحصول على دعم له، ويوزّعُ تذاكر عروضه، وخصّه بمحاضرتين، إحداهما في اللغة اليديشية، أحدث اللغات الأوروبية، والثانية في المسرح اليهوديّ.

وضمَّن محاضرتَه الثانية ذكرياتٍ شخصية. قال إنّه كان في سنّ الرابعة عشرة لمّا، خفية عن والديه اللذين كانا يحسبانه في الكنيس عاكفاً على قراءة صحائف التلمود، قصدَ المسرح أوّلَ مرّةٍ كي يشاهد أوبرا الهوغنوت لمايربير. صعقَه العرضُ. إنّ المسرح اليديشي[3]، على حدّ تعبيره، يجمع الدراما والتراجيديا والغناء، والكوميديا، والرقص، كلّها في آنٍ، إنّه الحَيَاةُ نفسها! لم يعد يستطيع الاستغناء عنه. ولا بأس إن بذل في سبيله الخطايا والأكاذيب.

---

(١) كشعيرة التّعميد عند المسيحيّين، لكنّها عند اليهود تخصّ الذكور حصراً ممن بلغوا سنّ الثالثة عشرة، وتشهد على بلوغهم سنّ التكليف.

(٢) الصّورة التي التقطت يومها من طرف *American Photo Studio* بيع فيلمها الأصليّ (مقاس ٤٥ على ٣٦ مم)، بمبلغ ١٥٠٠٠ يورو، في مزادٍ بباريس يوم ١٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٠. (المؤلّفة)

(٣) نشأت الكوميديا الموسيقية الأمريكية على الأرجح من المسرح اليديشي. (المؤلّفة)

كلّفته المحاضرتان ليالي أرقٍ. فهو لا يملك جرأة المواجهة الإلهية التي حُبيَ إيّاها الممثلون، أولئك الذين يقدرون على التعرّي والوقوف ثابتين تحت الأنظار. لكن لا أحد قَبِل أن يحاضر بدلاً منه. إنّ لوفي، ذَا الطبع الساخط والحقود، ليس له من الأصدقاء إلا قليل، وبالكاد يملك ما يعيش به. عروضه لا تجذب إلا جمهوراً قليلاً.

وحين كان هرمان كافكا يصادف هذا الكوميديّ في بيته، كانت تنتابه سورة غضب؛ زامّاً شفتيه، هازاً رأسه بتهكّم، كان يلوم ابنه على صحبة غريبٍ لن يكسب من ورائه أيّ فائدة، مجرّد حشرَة طفيلية تريد أن تجرّه إلى اللغة اليديشية، لغة البائسين المتخلّفين؛ كان يصيح به: لُغتنا نحن هي الألمانية، وثقافتنا هي الثقافة الألمانية. وذهب حدّ منع ابنه من دعوة هذا القذر إلى المائدة، ذاك أنّ حضوره بالنسبة إليه مؤذٍ، ولا يطاق.

– وإن كان هذا البولندي يسمعني من غرفتك، فهذا أفضل. أصدقاؤك كلهم مجموعة من التافهين.

حتّى ماكس برود، ألمع مثقفي براغ وأكثرهم تقديراً، لا يجد عنده اعتباراً. أمس فقط نعت صديق ابنه الحميم باللغة اليديشية بالعصبيّ الأحمق meschug- generritoch! لا شيء يردع هرمان كافكا، لا يراعي أيّ اعتبارٍ. حين يغضبُ تصعدُ لغته الأمّ إلى شفتيه، اللغّة الوحيدة التي كانت تُتكلّمُ في الشتيتل[1] البائس

(١) كلمة يديشية تعني قرية صغيرة يعيش فيها اليهود فقط.

حيثُ ولد. واليوم وقد صار من سكّان براغ البارزين، ويديرُ تجارةً مزدهرة، فإنّ هرمان كافكا [يعتبر نفسه] مواطناً نمساوياً، ولا شيء غير ذلك.

وهذا سببٌ آخرُ يدفع فرانتس إلى تعلّم اللّغة العبرية.

*

* *

أيّامَ يوليو/ تمّوز ١٩٢٣ الأولى، ذهب يرتاح في موريتز، شاطئ بالبلطيق. طلب من أخته الكبرى، إيلي، أن ترافقه؛ لم يكن يحسّ نفسَه قادراً على السّفر بمفرده، ولا العيش بمفرده؛ وليس ذلك فقط في موريتز، وإنّما أنّى كان.

في فندق هاوس غليكاوف، حيث نزلوا، كانت غرفتُه متّصلةً بغرفة إيلي وابنتيها فيليكس وغِرتي.

سعيدٌ برؤية البحر. فهو لم يرَه منذ عشر سنواتٍ. وجدَه في الواقع أجملَ، وأكثر اختلافاً، أكثر حياةً، وأشدَّ شباباً؛ ذاك ما كتبه إلى أصدقائه.

من شُرفته، حيثُ أتت عصافير دوريّ تبني عشّها على الدّرابزين، يرى عبر غابة الصنوبر والباتولا التي تفصله عن البحر، أطفالاً شُقراً بأعينٍ زرقاء، أطفالاً مرحين، معافين يركضون في كلّ جانب. يقطن الأطفال منزلاً من طابقين، هاوس هوتن؛ إنّه أحد تلك المخيّمات التي ينظّمها البيت الشّعبيّ اليهودي ببرلين،

ذاك البيت الذي كانت خطيبته الأولى، فيليس، قد قبلت منذ بضع سنواتٍ أن تقدّم له المساعدة. ما عادت ذكرى فيليس تعذّبه، لقد صارت بعيدةً جداً؛ تزوّجت شهوراً بعد انفصالهما، ولديها الآن ولدان: أختُه أوتلا هي من أخبره بذلك. نصف النّهار ونصف الليل تملأُ منزلَ هاوس هوتن، والغابةَ والشّاطئَ، أغاني هؤلاء الأطفال. تعرّفت إيلي على المنشّطات الشّابات، وكلهّن متطوّعات؛ ومُذّاك صار فيليكس وغِرتي يختلطان بمجموعاتهم.

بداية الظّهيرة، كان فرانتس يلتحق بهم على الشّاطئ ويلعب معهم. كتب أنّ هؤلاء اليتامى الرّوس والبولنديّين الشّديدي القوّة والحماس، والذين يتحدّث معهم بالعبرية، يجعلونه يشعر كأنّما هو على عتبة السّعادة.

إحدى المنشّطات تسمّى تيل روسلر، إنّها مراهقةٌ نشيطةٌ مرحةٌ، شديدة الرّشاقة والنّحول، حتّى أنّ المرء لا يصدّق أنّها في السّادسة عشرة من عمرها. كانت الوحيدة التي تعرف من هو الدّكتور فرانتس كافكا. في مكتبة يوروفيتكس ببرلين، حيث تشتغل بنصف دوام، كانت قد عرضت في الواجهة أحد كتبه، **الوقّاد**. تؤكّدُ أنّ النّقاد البرلينيّين يغمرونه بالمديح، وفي براغ يشغل الدّكتور كافكا مركزاً مهمّاً.

نهايةَ ظهيرةٍ، بينما هو منهمك في اللعب مع أطفال الملجأ، تقدّمت إليه تيل؛ أنصت إليها؛ فانطلقت في سردٍ طويلٍ، سعيدةً بالأسئلة التي كان يطرحها عليها بخصوص الأطفال، وتنظيمِ

المخيّم، وحول نفسها، وحياتها في برلين، والمكتبة. وإنّ هذا الرّجلَ الذي يثير إعجاب الجميع بأناقته، فحتّى حين ينزل البحر يحرص على أن يلبس بعناية بالغة، قلنا إنّ هذا الرّجل يخاطبها بضمير المفرد.

منذ ذاك اليوم صارت تترصّده. ما إن تراه يستقرّ على الرّمل، أو يتّجه، متأبّطاً غطاءه مطوياً، صوبَ كرسيّه المديد أقصى الرّصيف، حتّى تهرع لتجلس عند قدميه؛ ويستكملان حديثهما. ذات يومٍ إذ قالت له: «أتكلّمُ جميعَ اللّغات، ولكن باليديشية»، شعرت بالفخر لأنّه ضحك.

أرادت أن تُهديه هديةً. لكن أيّ هدية؟ قرّرت أن تصنع له مزهريةً، في ورش الفخّار المخصّص للأطفال. ولمّا أخرجت المزهرية من الفرن لوّنتها. سعيدةً بإنجازها، ركضت إلى فندق هاوس غليكاوف، كي تقدّمها إلى الدّكتور كافكا. وكانت قد أعلمته بزيارتها.

واقفةً في البهو، كانت تنتظر أن ينزل من غرفته. رجلٌ أشقرُ الشّعر يعزفُ سوناتةً لإيدفارد جريج. عاملُ الاستقبال يقرأ جريدته. وزوجانِ مسنّان جالسان قريباً من البار، يرتشفان نبيذاً أبيضَ كفاتحِ شهيّة.

سيقول لها الدّكتور كافكا إنّه قد احتفظ ذلك اليوم بذكرى واضحة جداً عنها:

– مائلةً قليلاً، شبه غارقة، كنتِ تستمعين إلى سوناتة جريج، منحنيةً بتواضع أمام الموسيقى.

تقدّم صوبها:

- أنا أيضاً عندي هديةٌ لك.

لفرط تأثّرها صارت تيل خرقاء، وصعب عليها أن تنزع ورق الحرير الذي يغطّي الشّيء الذي قدّمَه لها، فمزّقته.

قال لها:

- الأشياء الرّقيقة ينبغي أن نمسكها برقّة.

كأسٌ من الزّجاج بلون الياقوت، مليئةٌ بالشوكولا، ترتعد بين يدي تيل.

ارتمت بين ذراعيه، ووضعت رأسَها على صدره.

- كيف عرفت؟

كانت المراهقة قد حدّقت في تلك الكأس على واجهة محلّ حلويّاتٍ، حيث كانت تبرقُ واضحةً بجانبِ كعكات البرقوق. وكان الدّكتور كافكا قد صادفَ المراهقة، وصديقتها سابين، مُلصقةً أنفها على الزّجاج. وإذ مرّ من وراء ظهرهما سمع تيل تتنهّد متحسّرةً: أبداً لن أستطيع شراء أعجوبةٍ كهذه.

قال لها: ستكسرين هذه الكأس يومَ زفافك. وأنا سأحتفظ دوماً بمزهريّتك. لن أعطيها أحداً.

ومُذ استلمت تيل هديّتها الرّائعة، صارت تعيش في حالٍ من الوجد، حيثما حلّت تنشد المدائحَ في صديقها العظيم.

يوم الجمعة ١٣ يوليو/ تموز، بموافقة متحمّسةٍ من أعضاء الملجأ، دعت تيل الدكتور كافكا إلى مشاركتهم عشاء الشّبات (السّبت) الذي سيليه عرضٌ.

حين وصل نهاية الظّهيرة أمام البيت ذي الشّكل العجيب، أخطأَ البابَ، ودخل عبر المطبخ الذي كانت تغمره آخر أشعّة الشّمس؛ كانت ثمّة نحلاتٌ تدور في ضوءٍ أصفر ثقيل، ومن حين إلى آخر تصطدم بزجاج النّافذة. لم يرَ إلا رقبةَ شابّةٍ منكفئة على سمكٍ تقشّره. صاح إذ رآها تنزع أحشاء سلمون:

- يدان[1] بهذا الجمال لفعلٍ بهذه الدّموية!

استدارت المنشّطة، وعرفته. تضرّج وجهها بالحمرة. كانت قد التقته غير ما مرّةٍ على الشّاطئ، محاطاً بعائلته.

انحنت وقدّمت نفسها:

- دورا دياماند.

ثمّ أضافت:

- أعرف من تكون، تيل لا تتحدّث إلا عنك، منذ الصّباح والملجأ يغلي.

سألته عن أخبارِ زوجته وأطفاله. فأخذ يضحك:

---

(١) في رواية القلعة، حين يلتقي ك. فريدا وقد نظّفت للتوّ البهائم، يسألها «أبيدين بهذه الرّقة؟»، ثمّ يسأل نفسه «هل قال ذلك محض إطراءٍ، أم أنّه بالفعل فُتن بيدين على هذا القدر من البساطة». (المؤلّفة)

زوجتي؟ أطفالي؟

سوء الفهم ذاك، وما استتبعه من ضحك، قد رسّخ ربّما الانجذاب الذي كان يحسّه كلّ منهما تجاه الآخر.

بعد العشاء أنشدت دورا الأصحاح الثالث والأربعين من سفر إشعياء: «لا تخف، فإنّي معك»، ثمّ شرحته. لم تفارقها عينا الدّكتور كافكا، وقد فتنته معرفتها بالعبرية واليهودية.

غداة ذلك، وفي الأيام التي تلت، عاد إلى الملجأ.

لم تحتج تيل وقتاً طويلاً لتدرك أنّ فرانتس لا يهتمّ إلا بالبولنديّة. على المائدة بجانبها يجلس. وعلى الشّاطئ تراهما ينخرطان في أحاديث لا تنتهي. مُذ أدخلته إلى الملجأ، صار يفضّل عليها امرأةً أخرى، امرأة أخرى تضاريسُ جسدها أبرزُ، وتتكلّم العبريةَ وتقرؤها وتجيد الكتابة بها. كلّ يوم، كانت المراهقة النّحيلة تتابعهما عن بعدٍ. تراهما يتجوّلان على الكثبان التي تملأها أحجار زهرة الصّحراء، أو على الرّصيف وسط هدير الأمواج.

فاجأتهما جالسين في منأى عن الرّيح؛ رأساهما متلاصقان، ينشدان بصوتٍ خفيض نصاً عبرياً، ويتبادلان النظرات من فوق الكتاب.

هل يحسبان نفسيهما فرانتشيسكا وباولو دا ريميني[1]؟

---

(١) عشيقان دخلا تاريخ الأدب والخيال بفضل كوميديا دانتي.

قبل نهاية شهر يوليو/ تمّوز، عادت تيل إلى برلين، ومنها أرسلت إلى صديقها رسالتين.

أجابها[1] في رسالةٍ مطوّلة يوم ٣ أغسطس/ آب. كانت رسالةً لطيفةً ومرحةً يرسلها أخٌ لأخته الصّغيرة. ولكي لا يترك لديها أي لبس، حدّثها عن دورا، «المخلوقة الرّائعة».

إنّ مسار حياة هذه «المخلوقة الرّائعة» يفتنه، مثلما كان قد فتنَه مسارُ الممثل لوفي. وُلدت دورا هي أيضاً في بولندا، وفرّت من بيت والدها في سنّ الثامنة عشرة. فرّت من مدينة بِزدان، ومن كنيسها[2] المتغطرس الذي يعلو فوق المدينة، بل وحتّى فوق القلعة.

متحرّرةً من قوانين الحسديم، التي تُحرّم على المرأة الكثير من الأشياء، وتمنحها القليل فقط من الحقوق، قضت دورا سنة في فروتسواف. انطلقت إلى دراسة الأدب وتعلّم اللّغة الألمانية، وفي الآن نفسه كانت تشتغل في روض أطفال. ثمّ انتقلت إلى برلين، مدينة الأضواء، حيث يعيش مائة وسبعون ألفَ يهوديّ. والكثير منهم يضطلعون بأدوار اجتماعية وثقافية طليعية؛ كانت أهمّ مجموعتين صحفيّتين، أولشتاين وموسه، في ملكية يهود.

---

(١) حين هاجرت تيل إلى فلسطين، حيث صارت كوريغرافية، أخذت معها هذه الرّسالة، بالإضافة إلى الكلمة التي كتبها على كأس الحلوى التي أهداها إليها. (المؤلّفة)

(٢) لمّا دخل الألمانُ المدينة سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩، لاذت أسر بالكنيس، فأضرم فيه الجنود النّارَ، ولم ينجُ من المحرقة أحد. من الكنيس الذي تحوّل رماداً احتُفظ ببضع أحجار ذكرى للمجزرة. (المؤلّفة)

مارست دورا العديد من المهن، واشتغلت متطوّعةً في البيت الشعبيّ. متطوّعةً وشجاعةً (الميزتان اللّتان يفضّلهما كافكا أكثر من أي ميزة أخرى)، إنّها شابّة رائعةٌ (لا تكاد تبلغ العشرين) ذكية، ورقيقة، ومؤمنة، وورعة، ومعافاةُ البدن. وفوق هذا تعتني بالأطفال. بورك هذا اللّقاء!

أثناء محادثاتهما على حدة، كانت تحاول بثّ قوّتها تلك في فرانتس:

- اِفعل ما وددتَ دوماً أن تفعلَه، اترك براغ، واذهب إلى برلين. وفي الرّبيع، معاً، سوف نهاجر إلى فلسطين. سوف نفتح مطعماً في تل-أبيب «تلّ الرّبيع».

أيّامَ أغسطس/ آب الأولى، غادر فرانتس موريتز، ودورا. وفي برلين، رفقة تيل وصديقتين من صديقاتها، حضر يوم ٧ عرضَ مسرحية **اللصوص** لشيلر، والتي لم يرَ فيها شيئاً يذكرُ، اللّهم إلاّ التّعبَ. لم تحمل إجازة موريتز لصحّته أيّ تحسّن. يحسّ نفسه منهكاً. صار وزنه ٥٤ كيلوغراماً ونصف، لم يسبق له قطّ أن كان بهذا النّحول.

أين بوسعه أن يلتمس زيادةً في الوزن، إن لم يكن عند عزيزته أوتلا؟ وكانت أخته قد اكترت منزلَ عطلةٍ بسيليشين، وتقيم فيه وحيدةً مع ابنتها، فيهرا، والرّضيعة التي ولدت منذ زمنٍ قريب، هيلين.

التحق بها حوالي منتصف غشت/ آب. وبقي هناك أكثر من شهر. انتبه إلى أنّها المرّة الأولى التي ينسى فيها عيد ميلادها، لا بل نسيَ حتّى تاريخه المضبوط: ٢٩ أكتوبر أم ٣٠؟

قال لها:

- بالنّسبة إليّ، أنت لا تشيخين، لا أصدّق أنّك بلغت الحادية والثلاثين.

ثمّ أضاف:

- استمتعي بكونك امرأة.

هي الشّخص الوحيد الذي يحدّثه عن دورا ومشاريعهما. وكالعادة تشجّعه أوتلا على التحرّر من قيوده.

شكوكٌ تنقضُّ عليه، قوىً مضادةٌ تصارعه كالشّيطان؛ يلزم فراشه وقد عاودته الحمّى.

قال لأخته:

- إنّ السّماء تمطر في الكوخ.

ما إن استطاع الوقوف حتّى عاد إلى براغ، أنهى أغراضه في يومٍ ونصف يوم، ووضع في إدارته طلبَ تقاعدٍ مبكّر، وحزم حقائبه، وتلك مهمّة معقّدةٌ جداً ما كان ليتمّها لولا عونُ عزيزته «الآنسة» ماري فيرنر، التي كانت مربيّتهم القديمة والأمينة. ضدّ رغبة أبيه، ممّا كلّفه شجاراً آخر، وتحت بصر أمّه القلق، ورغم تحذيرات صهره بيبا المظلمة، استجمع ما بقيَ فيه من قوّة، وانطلق إلى برلين.

أبرقَ إلى دورا: «سوف أصل إلى برلين يوم الأحد ٢٤ سبتمبر/ أيلول. هل بوسعك انتظاري في المحطّة؟».

كم ستدوم مدّة هذا الرّحيل؟ هو نفسه لا يعلم. أربعة أيام أو خمسة؟ ليس أكثر.

*

* *

ركب القطار السّريع الذي ينطلق ليلاً. كان يتلذّذ حلاوة جسارته، ولا يجد لها تشبيهاً إلا حملةَ نابليون على روسيا. في الأربعين من عمره، استطاع أن يفلت من مخالب براغ، وعائلته، والمكتب، والروتين.

ولمّا استقرَّ ببرلين، من أعلمَ بنصره الذي لا يصدّق؟ ميلينا، التي كانت قد وصلته منها رسالةٌ من إيطاليا.

كتب إليها: «شيءٌ عظيمٌ حصل معي، ما أعظمها من أشياء توجد في هذا العالم! أعيش تقريباً في الرّيف، في فيلا صغيرة بحديقة، لم يسبق أن عشتُ في مكانٍ أجمل. أخشى أن أفقده، إنّه أجمل بكثير ممّا أستحقُّ».

أضاف أنّه التقى على شاطئ البلطيق بإحدى المتعاونات في البيت اليهودي، وأنّه لحق بها إلى برلين.

«إنّني أتلقى من العناية والحبّ، أقصى ما تسمح بهما حدود هذا العالم الدنيوي».

أكان متأكّداً من أنّ ميلينا ستستقبل بقلبٍ مطمئنٍّ صورته تلك، صورته سعيداً في أحضان امرأةٍ أخرى؟

إنّ الفيلا ذات الحديقة التي ذكرها لميلينا، دورا هي من وجدها في الحيّ السكنيّ شتايغليتز، بالرّقم ٨ من شارع ميكلشتراس الأنيق.

حين كان يخرج من بيته، في الأماسي الدّافئة، ويسير على امتداد الممرات التي تصطفّ على جنبيها بيوتٌ رائعةٌ، كان دفقٌ من الروائح يأتيه من الحدائق القديمة المورقة؛ يأتيه بعذوبة وقوّةٍ لم يعرف لهما مثلاً؛ لا في شيليسن ولا في مِرانو، ولا في ماريينباد. ما عاد يترك الأرجاء القريبة التي تكتنف فيلاهُ؛ الحديقة النّباتية على بعد ربع ساعةٍ مشياً على الأقدام، وبالكاد أبعد منها غابة غرونفالد.

في تلك الضّاحية الأرستقراطية، يسود هدوءٌ عميقٌ، الأطفال الذين يلتقي بهم حسنو المظهر، والمتسوّلون نادرون، ولا يشكّلون تهديداً.

لكنّ مركز برلين يغلي. الأخبارُ رهيبةٌ، رهيبة: الانتفاضات والإضرابات تتكاثر؛ كلّ يومٍ تُغلق مصانع، وتعلنُ شركاتٌ إفلاسَها، وآلافُ العاطلين يتظاهرون، التّضخّم يزدادُ بوتيرة سريعة، الأسعار ترتفع، ليس يوماً عن يومٍ، وإنّما ساعةً عن ساعة، حتّى أنّها تصيب النّاس بالدّوار.

شهر أغسطس، صارت قيمة الجريدة الواحدة مائة ألف مارك، وفي شهر سبتمبر/ أيلول مائة وأربعين مليوناً؛ كسرةُ الخبز بأربعة ملايين مارك. وعلى امتداد البلاد تندلع أعمال شغبٍ بسبب الجوع؛ ذات مساءٍ وُجدت أربع جثث في أزقة برلين. جماعاتٌ من اليائسين تنهبُ المتاجر والمؤسّسات العامّة. البلاد بأكملها تغرق في البؤس.

والحزب القومي يلقي باللّوم على معاهدة فرساي، على الدّين الهائل الذي فُرض على ألمانيا كي يركّعها إلى الأبد.

معاشُ فرانتس، ألف مارك، ما عاد يكفي على الرّغم من أنّ صرف العملة كان في صالحه. رواتبه الشّهرية كانت تصله متأخّرةً بأسابيع. اضطرّ، خجلانَ، أن يستدين من أبويه وأخواته، خاصّة أخته أوتلا، مبالغ صغيرة. ويطلب منهم أن يرسلوا إليه من بوهيميا، الدّافئة الشّبعانة، سكّراً وزبدة (كان يأكل منها الكثير كي يستعيد وزنه)، وعسلاً، وفطراً هندياً[1]، ومربّى، وشكولاتة. ما عاد معاشه يكفيه لأدنى حاجياته، وبسبب مرضه كان لديه من الحاجيات أكثر ممّا لأحد غيره. حين كان يعوزهم الكحول لإيقاد النّار، كانت دورا تسخّن العشاء على بقايا شموع.

لم يكفّ ماكس عن طرح أسئلةٍ عليه، فكان يرفض الحديث عن دورا. لا ينبغي لأيّ من أصدقائه أن يعرف أنّه يعيش مع دورا، ذاك أنّ سمعةَ شابّةٍ على المحكّ. بالكاد كان يشير في رسائله إلى الآنسة دياموند.

*

* *

كانت بدايةُ الخريف دافئة ومشرقة. وكان فرانتس يمدّ جولاته حتّى يبلغ بها الحديقةَ النّباتية؛ كان يستنشق أريج زهور الزيزفون، ويلفّ حول دفيئات النّباتات الاستوائية، ويتابع تنوّعات ألوان

(١) أو الكفير، مشروب فوّار.

أوراق الشّجر، وفي صمت الممرّات ينصتُ لحفيف الأوراق الميّتة تحت قدميه.

ذات يومٍ جاوز سياج الحديقة، فلمح طفلةً صغيرة تنتحب. دنا منها. كانت وردةً صغيرةً شقراءَ، بشرتُها بيضاء ووجنتاها حمراوان، تشبه الكثير من الزّهور التي كانت تنبت هناك. سألها:

- لمَ تبكين؟

- لقد فقدت دميتي.

- لم تفقديها.

- هل وجدتها؟

- كلاّ، كلاّ، لم أجدها؛ دميتك سافرت.

- كيف عرفت؟

- لقد كتبت إليّ رسالةً.

- أرني الرّسالةَ.

- لقد تركتها في بيتي؛ لكن إن كنت ترغبين، يمكنني أن أحضرها لك غداً في الثالثة. أمامَ هذا المقعد.

- ما اسمك؟

- فرانتس. وأنت؟

- مالو.

وعندما عاد إلى البيت، تساءل ماذا كانت أوتلا لتقول لابنتها

الكبرى، لو شاء القدرُ أن تضيع دميتها، لولوت، التي كانت تضمّها إلى قلبها حتّى حين تغرق في النّوم.

في اليوم التالي، وفي السّاعة المعلومة، التقى فارنتس ومالو أمام المقعد. رفع قبّعته محيّياً، ومدّ إليها مظروفاً مكتوبٌ عليه اسمها، وملصقٌ به طابعٌ بريديّ مستعمل.

هزّت مالو كتفيها قائلةً:

- أنا لا أعرفُ القراءة.

قرأ لها الرّسالة التي ختمتها الدّميةُ بهذه الكلمات: «أبعث إليك بالكثير من القبل، وسوف أكتب إليك كلّ يومٍ».

فكّرت مالو لحظةً قبل أن تسألَه:

- هل ستحضر لي إذن رسالةً أخرى غداً.

وفي الغد، كما في الأيام التي تلته، ظلّ فرانتس يحمل الرّسائل. وحين كان يشرع في القراءة، كان قلب مالو يخفق بعنفٍ: كانت دميتها تذهب إلى المسرح، والسينما، والسّيرك، والأوبرا، وإلى فيينا وباريس، كانت تركب الخيلَ، وترقص، وتغنّي في جوق، كان أمراً مذهلاً.

الآنَ، في الحديقة، ترتفع أغصانُ الأشجارِ السّوداءُ في سماءٍ غائمةٍ ومعتمة. ريحٌ باردةٌ تدور بين الممراتِ وترفع، كسربِ عصافيرَ، أكوامَ أوراقٍ صهباءَ كقِدرِ نحاسٍ. بطاقيةٍ محشورةٍ حتّى الحاجبين، ويدين غائصتين في جيبي معطفها، تتابع مالو تلك

الأوراق بعينٍ شاردة. وفرانتس، على الرّغم من لباسه الصّوف، ومعطفه وإيشاربه الثقيل، يرتجفُ من البرد. كثيراً ما يقطع قراءته، ويبتعد سريعاً، ملصقاً بفمه منديلاً.

تصرخ مالو:

- كفّ عن السّعال. اقرأ لي التتمّة.

تمدّ إليه الحلوى اللزجة التي أخرجتها من فمها. يعود، فيكمل القراءة بصوت أخفت وأكثر غموضاً.

- أنت تقرأ بسرعةٍ اليومَ. أعد القراءة، إنّ الرّسالة جميلة.

الرّسائلُ، كالنّهارات، تقصرُ. مُذ تزوّجت الدّميةُ صارت مشغولةً جداً، وما عادت تجد ما يكفي من الوقت لتكتب. وذات صباحٍ أعلمت صديقتها أنّها ذاهبةٌ إلى التيبت، بعيداً جداً، وفي مكانٍ عالٍ جداً، حتّى أنّه يسمّى «سقف العالم»؛ سوف تعيش في قريةٍ مختفية وسط الغيوم، محاطةٍ بالثلج والجليد، ولا يصعد إليه البتّة أيّ ساعي بريد. «لن أستطيع الكتابة إليك مرّةً أخرى يا عزيزتي مالو، ولكنّني لن أنساك أبداً»، تلكم كانت آخر كلماتها.

سألته مالو:

- أبعيدٌ حقاً «سقفُ العالمِ هذا»؟

ومن دون أن تنتظر من فرانتس جواباً، لفّت فوق رأسها حبلَ القفز، وطارت جذلانة[1].

(١) لم يشر كافكا في أيّ من كتاباته إلى هذا اللّقاء، ولا إلى الرّسائل العشرين التي كتبها

صاحبة البيت، وهي امرأةٌ قصيرةٌ شديدة النّحول، تنتطقُ بحزامٍ مهما بلغت درجة ضيقِ ما تلبسه، انقلبت عليه فجأةً؛ شهرين بعد انتقال دورا وفرانتس إلى الفيلا، طردتهما؛ فالمسكينان لم يكونا إلا أجنبيّين مُعسرين، ضاعفَ التضخّم أجرة بيتهما عشر مرّاتٍ.

وجدا، ليس بعيداً من مسكنها الأوّل، بالرّقم ١٣ في غرونفا-لدشتراسه[1]، عند السيّد سايفرت، شقّةً جميلة. ما لبثا أن تركاها، في الفاتح من فبراير/ شباط، للأسباب نفسها. ذاتَ يومٍ كانت تهبُّ فيه ريحٌ صقيعية، انتقلا مرةً ثالثةً واستقرّا ببرلين-زهلندورف، الرّقم ٢٥ بهيديشتراسه؛ عند السيّدة بوس، أرملة كاتبٍ. كان مبلغ الكراء مهولا: ثلثُ تريليون!

محرومين من كلّ شيءٍ، كانا يعيشانِ في فقرٍ مدقع. ما عادا يذهبان إلى المسرح، ذاك أنّ سعره صار بعيداً جداً عن متناولهما. ولا يشتريان أيّ صحيفة، بما فيها صحيفة الأحد. وخيراً فعلا، فالأخبار كانت كارثيةً لدرجة أنّهما كانا يتجنّبان المرور من أمام مبنى البلدية، حيث تُعلّقُ الصحف اليومية.

مواساةً للطّفلة. لطالما تملّكته الرّغبة في أن يكتب حكاية، خاصة حين كان في ريفا. هل أحسّ، أمام هذه الطّفلة، بالواجب الأخلاقي في أن يواسيها، خاصّةً أنّه كان يملك هذا الإمكان؟ والحكاية، كما يعرف الجميع، لا تخضع لنفس مقاييس النّص الأدبي. إنّ دورا هي من ذكر الحكاية في اليوميات التي بدأت كتابتها في لندن سنة ١٩٥١. (المؤلّفة)

(١) من المساكن الثلاثة التي أقاموا فيها، هذا هو المسكن الوحيد الذي ما يزالُ قائمًا. ثمّة لافتة بين نافذتين تشير إلى أنّ كافكا سكن هنا ثلاثة أشهر. (المؤلفة)

مرّتين أو ثلاثاً في اليوم، يقصد فرانتس المدرسة العليا ليعمّق معرفته باليهودية. إنّها ملاذُ سلامٍ بالنّسبة إليه. عمارةٌ بأكملها، قاعاتُ محاضراتٍ جميلة ودافئة، مكتبةٌ كبيرة، والقليلُ من الطلبة، ومعلّمُ تلمودٍ طيّبٌ، السيّد غوتمان، وكلّ ذلك مجّاناً.

ولكي لا ينفصل عن معاناة النّاس، كان يتجوّل أحياناً في المدينة. وكان يعود منها بوجه مرعوبٍ كأنّما خرج من معركة. أكثر وقته، كان يرتاح ممدّداً في الفرندة، تحت الشّمس، بينما دورا تتابع دروساً في فنّ الدراما والرّقص بالبيت اليهوديّ حيث كلّ شيءٍ مجّاناً.

مساءً، في ضوء الشّموع، يلعبان كطفلين. فرانتس بيديه الرّشيقتين يصنع أخيلةَ ظلٍّ، يخلقُ شخصياتٍ ويخضعها لمآسٍ ولمواقف كوميدية، تنتزعُ الضحكات والدّموع. أحياناً، يلهوان بغطس أيديهما في حوض ماءٍ. ذاك حمّامهما العائليّ. أو، يعمدُ فرانتس إلى صينيّة فيملؤها بالكؤوس والصحّون، ويبقيها متوازنةً على راحة يده، راكضاً بها عبر أرجاء الغرفة، متمرّناً على مهنة النّادل التي سيمارسُها في مطعمهما بتل-أبيب.

وفي الغالب الأعمّ، كي يبقي الصبيّةَ التي يحبّها أسيرةَ سحره، كان يقرأ لها كتّابَه المفضّلين. من بين أعمال غوته كان يفضّل **هرمان ودوروتي**؛ ولكلايست **ماركيزة أو**. هذه القصّة، كأنّما سحرته، قرأها، تلاها، على دورا ستّ مرّاتٍ متتالية.

قالت له متعجّبة:

- لمَ هذا الولع؟ هل بسبب جودة النّصّ أدبياً؟

- نعم.

- هل لأنّ القصّة متفرّدة؟

- نعم، أيضاً.

لربّما كان مفتوناً أكثر بالمؤلّف الذي يشاركه أموراً كثيرة: شغف الكتابة، السّعي إلى الحقيقة، الرّغبة في تكوين أسرة؛ وكلاهما تتالى عليه فسخ الخطوبات، والأمراض، والإخفاقات؛ وكلاهما تحلّى بجرأة حرق الكتابات الحميمية، والمسودات، والنّصوص غير المكتملة.

على ضفاف بحيرة ريفا، كان فرانتس قد حكى لغِرتي نهاية بوشكين المأساوية. واليومَ يكشف لدورا نهاية كلايست. موتٌ رتِّبَ ونُفّذَ كقطعةٍ فنيّة.

كان هاينرتش فون كلايست مغرماً بهونرييت، زوجة لويس فوجل ولها منه طفل. وكانت هونرييت مغرمةً بالشّاعر الشّاب. مدفوعين بسعيٍ مهيبٍ إلى المطلق، ما عاد شيءٌ في هذا العالم يوافق العاشقين، فوقّعا ميثاقَ انتحارٍ. في فانزي سنة ١٨١١، وكان قد بلغ من العمر أربعةً وثلاثين عاماً، قتل كلايست هونرييت برصاصة، ثمّ أدار فوهة المسدّس صوبَ نفسه.

قرأ فرانتس لدورا الرّسالتين اللّتين كتبتهما هونرييت، عشيّة موتها: رسالة إلى زوجها العزيز، والثانية إلى صديقتها الأعزّ: «اعتنِ بطفلي». ثمّ تلا عليها رسالته المفضّلة، رسالة كلايست إلى أولريكه،

أخته العزيزة. بعينين تملؤهما الدّموع، أرخت دورا رأسَها على كتف الرّجل الذي تناديه حبيبي الحنون، فرانتسي العطوف.

يكتب إلى ماكس. إلى أوتلا. إلى فليكس فيلتش، يرسل عناوينه الجديدة، حريصاً أن لا يفوّت أيّ عددٍ من مجلّة *Selbstwehr*. لكنّ رسائله صارت أقلّ، لأنّ ثمن الطّوابع البريدية باهظ.

ثمّ عاد إلى الكتابة.

زاره أصدقاء: ماكس يطلب منه أن يهتمّ بعشيقته سابقاً، إيمي سالفيتر، ويسلّيها ويعقّلها. إنّ هذه الشّابة الجميلة، التي كانت خادمةً وصارت ممثّلة، غائصةٌ في عذابات الحبّ، وتقاسي غياب ماكس؛ إنّها تتمرّد على صوت الواجب الذي يمنعها من الطّلاق، وتطالب ماكس بأن يأتي إلى برلين.

استقبلها فرانتس في بيته، في غياب دورا، ورافقها في جولةٍ، وزارها في بيتها. كثيراً ما كانت إيمي تهاتفُ معلنةً عن زيارتها، ثمّ ما تلبث أن تلغيها في آخر لحظة، أو تتّصل لتُعلِم بأنّها ستأتي في الثانية وليس في الثانية عشرة. تحدّد موعداً لزيارة أخرى، لكنّها تصاب بنزلة بردٍ فلا تأتي، وهكذا دواليك. إنّها متوتّرة، والاضطرابات البرلينية تقلقها جداً، لدرجة أنّها تنقل مخاوفها إلى فرانتس، فيضطرُّ إلى مصارعة هذه المخاوف طيلة اللّيل.

وذات يوم، دقّت بابه شابّتانِ، فاتنتان. كانت تيل روسلر، ترافقها رسّامةٌ برلينية شابّة. تسمّرت تيل في العتبة عندما لمحت دورا بملابس النّوم.

واستطاعت بواه بن توفيم، التي قضت ظهيرةً ببيتهما، أن تقف على تطوّر تلميذها في دراسة العبرية.

ويومَ ٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني، أتت أوتلا. تركت ابنتيها فيهرا وهيلين، ليومين في رعاية زوجها. تريد أن ترى بعينيها كيف تسير أمور أخيها، والتعرّف على دورا، عن قربٍ، بعدما تعرّفت عليها من كلماتٍ عبر الهاتف أو الرّسائل.

كانت تجرّ خلفها حقيبة رتّبت فيها الملابس التي طلبها منها أخوها، لائحةٌ طويلة! فإذ كان يحسب نفسه لن يغادر براغ إلا أيّاماً، لم يحمل معه ملابس الشّتاء. أخرجت من الحقيبة ثلاثة قمصانٍ غير منشّاةٍ، ثلاثة جوارب عادية، وجوربٌ رابعٌ دافئ، وبذلته السّوداء، ومعطفه الأزرق العتيق، وزوجي سراويل طويلة، وملاءةً خفيفة، وغطاء وسادة، ومنشفة، وقفّازين، وقميصَي نوم، وروبَه وخفّه، والقفّازين قصيري الأصابع، والطّاقية، ثمّ ثلاثة أحزمة. وإلى ذلك كلّه أضافت أوتلا ورق رسائل، وأقلاماً، ومجلاّت، وصابوناً. وأهدت إلى دورا شراشف ومفرش مائدة من الكتّان المطرّز. وبشكلٍ يدعو للعجب، كادت دورا أن تنهارَ باكيةً. إنّ نظيرَ تلك الأثوابِ يعدُّ في برلين رفاهاً ليس بوسعها حتّى أن تتخيّلَه.

حين همّت أخته بالمغادرة، وضع فرانتس في متاعها دميةً إلى ابنتها فيهرا. احتياطاً، في حال ما إذا قرّرت لولوت أن تُسافر، إنّ الدّمى متقلّبة المزاج!

ذكر لماكس زيارة أخته أوتلا: أضاف: «كلّ ما رأته عندنا

وافقها». وكان مخطئاً. ما إن عادت إلى بيتها حتّى أعلمتهم بأنّها قد بعثت إليهم بإرسالية وزنُها خمسة عشر كيلوغراماً. وطلبت من أمّها أن تفعل المثل.

دهش فرانتس:

- خمسة عشر كيلوغراماً، يبدو لي كثيراً. ما الذي يمكن أن تحتويه الإرسالية؟ لا أريد أن أعيش عالةً عليك.

ثمّ أتى ماكس بعد زيارة أوتلا بقليل، كان يقتله الفضول للقاء الآنسة الغامضة دياموند، التي لم يرد صديقه أن يخبره أيّ شيءٍ بخصوصها. أثار إعجابه الحبُّ الذي تبديه الشّابة لفرانتس. وجد أنّهما كائنان متناغمان على أكمل وجه. لم يسبق له قطّ أن رأى كافكا أكثر ثقةً بنفسه.

وزارهما الدكتور إرنست فايس، الذي كان على عهده نشطاً، وعصبياً (عصبيّة الرّجل المرح والسّاخط). حرص على أن يشكر فرانتس مباشرةً؛ ذاك أنّ النّاشر كارل سيليغ كان يرغب في أن ينشر شيئاً من نصوص كافكا، فأخبره فرانتس أنّ ليس لديه ما ينشره؛ لكنّه بالمقابل أرسل إليه ثلاثة نصوص لفايس، بعد أن غمره بالمديح، وصاحبها بلائحة كتب «المؤلّف الصّعب -على حدّ تعبيره-، لكن الموهوب جداً».

كافكا يحبّ إرنست كثيراً. ينظر إليه، واقفاً أمامه، ويقول في نفسه: «إنّ هذا الرّجل لا يتمتّع بصحّة جيّدة، بصحّة جيّدة جداً، إلا لقوّة إرادته. لو أنّه أراد أن يمرض كأيّ كان، لمرِض».

ثمّ ظهر فرانتس فريفل بدايةَ ظهيرةٍ، حاملاً مخطوطته تحت ذراعه. قصيرٌ، ريّانُ الجسم، أشقر، أزرق العينين، تبدو عليه أماراتُ العبقرية الموعود بها في الأفق. دورا هي من فتح له، سعيدةً بلقائه. غلّق كافكا وفيرفل على نفسيها باب المكتب. بعد برهةٍ طويلةٍ جداً، خرج فيرفل دامع العينين؛ ولاذَ بكلمة وداع. ولم يكن كافكا مصدوماً أقلّ منه. خرج يغمغم:

- أنّى للمرء أن يكتب بهذا القدر من السّوء، بهذا القدر من السّوء...

كان فيرفيل ينتظر أن يغمره المديح، لكنّه لم يلقَ إلا صمتاً رهيباً.

حين يتعلّق الأمر بالحكم على نصّ، فإنّ كافكا يلفي نفسه عاجزاً عن الكذب مهما كانت الكذبة بريئة.

بداية يناير/ كانون الثاني، نزل المحرار إلى ١٥ درجةً. مرض فرانتس. حرارة مرتفعة، رجفة، نوبات سعالٍ منهِكة ليلاً ونهاراً؛ كلّها عكّرت مزاجه.

قرّر أن يطلب طبيباً، رغم جزعه من رسوم الطّبيب التي تحلّق فوق سريره أرقاماً من نارٍ.

ثمّ ما لبثت أن انضافت إلى لائحة العلل اضطراباتٌ هضمية. ما عاد يفارق سريره. حين زاره ماكس في المرّة الثانية، أرعبه التدهور السّريع الذي طال صحّة صديقه، والبؤس الذي صار يعيش فيه. فلمّا عادَ إلى براغ، أخطرَ بالأمر خال فرانتس الدكتور سيغفريد لوفي،

وهو طبيب ريفيّ يمارس في ترايش، بمورافيا؛ عازبٌ مرتبطٌ أشدّ الارتباط بابن أخته (قضى فرانتس عطلاً كثيرة عندَه). فكان أن هرع الخال إلى ابن اخته يوم ٢٩ فبراير/ شباط وحاول إقناعه بأن يترك برلين على وجه الاستعجال.

- إن بقيت هنا، سيّئَ التّدفئة، سيّئَ التغذية، فلن تعبُرَ الشّتاءَ.

يوم ١٤ مارس/ آذار ١٩٢٤، ماكس ببرلين. أتى ليحضر العرض الأوّل لأوبرا بِنوفا، لمؤلّفها ياناشيك، والتي ترجمَ كُتيّبَها ماكس بنفسه. ثلاثة أيّام بعد ذلك، كان هو من اصطحب كافكا إلى براغ. رفض فرانتس رفضاً قاطعاً أن ترافقه دورا، كان يريد أن يجنّبها، بأيّ طريقةٍ، سخريةَ والده واحتقارَه ووقاحتَه.

في المحطّة تشبّثت به الصبيّة، بوجهها المهزوم، وألحّت عليه:

- لا أريد أن أتركك.

- ستلحقين بي بعد أيّامٍ، ما إن يجد لي خالي سريراً في المشفى.

قبّلها مرّاتٍ ومرّات:

- لم أكن متشبّثاً قطّ بالحياة، تشبّثي بها الآن. معك.

*

* *

اجتاز عتبة شقّة والديه. حاله أشبه بمجرم قبض عليه مجدّداً، ويساقُ إلى زنزانةٍ لن يخرج منها حياً. خيّل إليه أنّه قد سمع سجّانه يغمغم من وراء ظهره:

- عودة الابن الضّال! يا له من انتصار! مفلس، وليست لديه حتّى القوّة ليبلغ سريره! البيريزينا[1]! ألم أقل لك إنّك تركض صوب هلاكك! مرّة أخرى لم ينصت السيّد ولدي إلا لنفسه، وهاكم النّتيجة! وأنا من يتحمّل الخسائر.

حتّى أمّه التي أتت، على استحياءٍ، تضع أمامه شربة دجاج وكريمة الفطر الهندي مع مركّز التوت، ما عاد يريد أن يراها. كان يحتقر انحناء ظهرها تحت نير العبودية. وحدها ماري فيرنر، «الآنسة» المحافظة، الطيّبة والصّموت، هدّأت قليلاً من النّار التي تستعر في قلبه.

وكأنّما يتحدّى والديه، طلب من ماكس، بنبرةٍ جافّة ومتسلّطةٍ، نبرةٍ لم يسبق أن كانت له، أن يزوره كلّ يوم. وكلّما زاره ماكس، كان يعيد عليه دائماً الأمر نفسَه:

- عُد غداً في السّاعة نفسها.

حبيسَ غرفته، عيناه مغمضتان، تارةً يستعيد هزيمته، وحيناً تمرّ من أمام عينيه صور دورا العديدة، وحركاتها، وكلمات حبّها، كان يستمدّ القوّة من صورها. أمواجٌ من الحنين لا تنفكّ تعيده إلى برلين، إلى الشّهور الستّة التي كان فيها حُرّاً. بعيداً عن وصاية والديه.

للمرّة الأولى في حياته، عاش مع امرأةٍ يوماً عن يومٍ، كان يفتح عينيه فتكون دورا بجانبه، وكان يغمض عينيه ودورا بجانبه، كانا

---

(١) من معركة بيريزينا، التي جمعت الفرنسيين بقيادة نابليون بالرّوس. من حينها صارت الكلمة عند الفرنسيّين إشارة للخسارات الكارثية!

يعيشان في المنزل نفسه، يجلسان إلى المائدة نفسها متساندين، ينامان في السّرير نفسه، ملتصقين، لم يعرف قطّ سعادة مماثلة، كان يهمس في أذنها: أنا بين ذراعَي ملاك.

حين كان يكتب، «عاضاً بأسنانه على المكتب، مثلما يعضّ كلبٌ على عظمته»، مثلما يقول مبرزاً أنيابَه ليضحكها؛ قلنا حتّى حين كان يكتب، كانت دورا تنام على أريكتها أمامه، لأنّه كان يحتاج حضورها. في حين لم يسبق له أن خطّ سطراً واحداً أمام أوتلا أو فيليس أو ميلينا أو ماكس.

أسرّت له دورا:

- إنّك تصير إنساناً آخر حين تكون منهمكاً في الكتابة.

أحياناً كانت تخشى النظر إلى وجهه الشدّيد التوتّر؛ إنّ ملامحك تقسو، نظرتك تصير شديدةً، وعنيفةً وموجعة، لا أعرف كيف أعبّر عن الأمر... يبدو كأنّك تطارد أشباحاً... وفي يدك سكّينٌ، أو سلاحٌ؟

قرأ لها مقاطع من الجُحر، ذات ليلةٍ كتب فيها فصلاً دفعةً واحدة:

«أعيش آمناً، مختبئاً أقصى جحري، ومع ذلك في مكانٍ ما، أيّ مكانٍ، يحفر العدوُّ نفقاً سيوصله إليّ. لا أريد أن أقول إنّ شمّه أقوى من شمّي، لكن ثمّة لصوصٌ نهّابون يحفرون بلا هوادة... وأعدائي كُثر! لا أريد أن أجازف، بينما أنا منهمك في

الحفر بقوّةِ اليأس، بأن أحسّ فجأةً أسنان من يلاحقني وهي تنغرزُ في فخذي».

رفع رأسَه، كانت دورا تتأمّله بتركيز.

- ليس لك أيّ عدوّ، ولا أحد يريد بك شرّاً، يا حبيبي.

قهقه قائلاً:

- يا حبيبتي، يا بُنيّتي، إن هي إلا كلماتٌ. لا تقولي إنّك تأخذين هذه الخربشات على محمل الجدّ!

معاً، أحرقا في قدرهما النرويجيّة[1] صفحاتٍ وصفحات، ربّما ثلاثمائة، أو ربّما خمسمائة؟ ومرّاتٍ كثيرة أوقفت دورا الفعل:

- إنّ هذه المخطوطات قد كلّفتك ليالِيَ كثيرةً وجهداً كبيراً، لمَ تلقِ بها إلى النّار؟

يتذكّر أنّه في تلك اللّحظة تحديداً فكّر في كلايست:

- إنّ رؤية اللّهب يلتهم مخطوطاتي يريحني. كلّما أحرقت منها، تخلّصتُ من شياطيني، أفلتُّ من بين أصابعها. لقد طلبت من عزيزي ماكس، بحزمٍ شديد، تعرفين أنّي أحسن ذلك، أليس كذلك؟ قلتُ، طلبتُ منه أن يحرق، دونما تمييزٍ، كلّ يومياتي ودفاتري ومخطوطاتي، وكلّ رسائلي، وأعلم أنّه سيحترمُ وصيّتي.

---

(١) قدر كبيرة تتكوّن من طبقتين بينهما نظام عزلٍ، ويعتمدها اليهود في طبخ عدد من أكلاتهم.

في اليوم الثالث بعد عودته إلى براغ، ظهرت عليه أعراضٌ مقلقة: تؤلمه حنجرته آلاماً فظيعةً. وتأتيه بين الفينة والأخرى التهاباتٌ لا تُطاقُ. تغيّر صوتُه، صار خفيضاً مبحوحاً. يقول في نفسه: بهذه السّرعة!

فاكهيّة، فواكهٌ، عصير فواكه، ماء، عصير فواكه، ماء، عصير فواكه، فواكه، ماء، عصير فواكه، فواكه، فاكهية، ماء، شراب ليمون، سيدر[1]، فواكه، ماء. لا يستطيع أن يبلع غير ذلك. وبكميّاتٍ قليلة.

وصف له خاله الدكتور سيغفريد لوفي، فحوصاً طويلةً ومؤلمة، فحوصاً زرعت الموت في روحه. لا يستطيع أن يحصل على معلومةٍ دقيقة. ما إن يتعلّق الأمر بالتهاب الحنجرة السليّ، حتّى يتبنّى الأطباء طريقة حديثٍ، خجولة، مترددّة، جامدة. «إنّه مجرّد تورّم، انتفاخ، لا شيء خطير، لا يمكننا الجزم بعد بأيّ شيء»، ذلكم ما كان الأطباء يردّدونه على مسامعه، في الوقت الذي تصير فيه أوجاعه عنيفةً جداً، ووزنه، مع ملابسه الشّتوية، لا يتعدّى تسعةً وأربعين كيلوغراماً.

صباحاً ومساءً، يسعلُ طيلة ساعاتٍ. يملأ مَبْصقتَه في وقتٍ وجيز.

قال لروبرت كلوبستوك[2] الذي دخل غرفته:

---

(١) شرابُ تفّاح، يحضرّ من تخمير عصير التّفاح، وفيه الكحولي وغير الكحولي.

(٢) هاجر إلى الولايات المتّحدة، وفيها صار أستاذ طبٍّ لامعاً، مختصاً في أمراض الرّئة. ومات في نيويورك سنة ١٩٧٢. (المؤلّفة)

- إنّه إنجازٌ يستحقُّ نوبل، أليس كذلك؟

وكان قد تعرّف على طالب الطّب روبرت في مصحّ متلياري، منذ سنتين؛ ومذّاك لم تتوّقف الرّسائل بينهما. أحياناً يزعجه روبرت حدّ الغضب؛ إنّ هذا الشّاب، الذي عاد إلى الدّراسة، دائمُ التذمّر، متأهبٌ دوماً للشّكوى، وذو طبع منهزمٍ. لكن الحقّ أنّه يعيش في بؤسٍ.

كان فرانتس يرسل إليه النّقودَ، وقد حصل له على المجانية في المطعم الجامعيّ، ووجد له عملاً كمناوبٍ. وأوصى به عند ماكس، وأوتلا، وأصدقائه، ويقلق حين لا تصله أخباره، ينصحه كلّما استطاع ذلك، لكن كما كتب: «النّصائح الجيّدة معلّقةٌ بين النّجوم، ولذلك العالمُ حالكٌ».

وقد حرص روبرت، الذي يحبّ الأدب قدر حبّه الطبّ، على أن يترجم إلى المجرية (لغته الأمّ) روايةً لماكس برود وعدداً من قصص كافكا الذي قبِل أن يراجع عمله. إنّه ولدٌ محبوب!

بصوت قائدٍ جنرالٍ أجابه روبرت: الإنجاز الوحيد الذي يستحقّ نوبل، هو أن تقاوم وتُشفى. تستطيع ذلك!

- لقد نسيتَ بأنّني جنديٌّ سيئٌ، لا أحدَ قبل بي. مرّتان؛ مرّة في يونيو/ حزيران ١٩١٥، وثانيةٌ في يونيو/ حزيران ١٩١٦، حاولت الالتحاق بالجيش، وفي المرّتين معاً قرّرت لجنة الفحص أنّني غير لائقٍ.

تحدّثا عن متلياري، ونزلائه. تذكّر كافكا جاره في الغرفة، مريضٌ

كان يلعبُ بالمرايا وأشعّة الشّمس، مثلما يلعبُ منتحرٌ بالرّوليت الرّوسية. صورةُ الرّجل المعذّب، وفمه مفتوحٌ وسعَه، وقروحه، والرّائحة الكريهة التي تفوح منها، كلّ ذلك جعله يشعر بالغثيان.

يتساءلُ:

- هل سأخضع للتّعذيب نفسه؟ إنّه أمرٌ أشبه بالكتابة وقدّميَّ في نعلين، «التعذيب بالغ الأهميّة بالنّسبة إليّ، لا يشغلني شيءٌ سوى أن أعّذَّبَ وأُعذِّبَ»، ليس كأن تكون القدمان في المحرقة، تلحسُها النّيرانُ.

- أليس غريباً يا روبرت أنّ إله العذاب في الأديان القديمة لم يكن هو الإله الرّئيسَ؟

في اللّحظة التي همّ بها صديقُه بالانصراف، أمسك بيده:

- هل تذكر الوعد الذي قطعته لي في المصحّ؟ أريدك أن تعيده على مسمعي الآن.

*

* *

قضى ثلاثة أسابيع حبيسَ غرفته.

مرتمياً في أريكته، كان يرى مذهولاً عبر النّافذة المشرعة، بنّائِي أسقفٍ صعدوا أعلى قمّة جرس الكنيسة الرّوسية، يشتغلون ويغنّون في المطر والرّيح: «ما عساهم يكونون اللهم إلا عمالقةً من عصر ما قبل التّاريخ؟».

لم يعد يعترض على الذّهاب إلى المشفى، مادام، كما قال لخاله:

- لا أستطيع أن أعترض على الحمّى! لقد صارت ٣٨ درجة خبزَ يومي.

كان مرتاحاً لترك منزل والديه وبراغ. صرّح لصديقةٍ شابّة: «إنّ مسقط الرّأسِ، دوما ما يكون مكاناً غير مضيافٍ، إنّه فضاءٌ للذّكريات، للحنين المرضيّ، للصّغائر، للمهانة، للغواية، ولتبديد الجهدِ سدىً». في المشفى تستطيع دورا أن تلحق به، ومعاً ستكون أمورهما أيسر.

قال لنفسه:

- على الطّريق، يكون العالمُ ملكاً لي. Very well!

*

* *

وصلت دورا بعده بساعاتٍ إلى فاينر فالد، وهو مشفى جامعيٌّ ذو موقعٍ رائع، وفخمٌ وبارز.

سارت متقدّمةً في الحجرة المشتركة بين الأسرّة المصفوفة جنباً إلى جنبٍ، مرضى بسحناتٍ شاحبة، وخدود ضامرة، يسعلون ويبصقون في كورالٍ جنائزيّ. كانت تبحث عن فرانتْسِها؛ ولم تكن تسمعه، إذ انقلب صوته إلى مجرّد وشوشةٍ. لمحته، وظنّت أنّ الأرض تميد بها. وجهٌ مهزول، عينان تتلظّيان بالحمّى، يدانِ ناحلتان غمرتهُما بالقبل كي تخفي ضيقها.

لم تكفّ عن ترديد:

- لن أتركك أبداً، يا حبيبي، لن أتركك أبداً.

سمعته يوشوش:

- أنا من سيتركك.

على الرّغم من تدخّلات وإلحاح فرانتس فيرفل، وماكس، رفض البروفسور هايك منح كافكا غرفةً منفردة:

- بالنّسبة إليّ هو ليس إلا مريضَ السّرير رقم ١٨.

ضدَّ الحمّى وصفَ له بيراميدون سائلاً، ثلاث مرّاتٍ في اليوم؛ وضدَّ السّعال، الدومبون، عديم الفعالية، والأتروبين. كان يُعطى حلوى مبنّجة، وبزيت مع المنتول تُرشُّ حنجرته التي تورّمت حتّى ما عاد يقدر أن يبلع شيئاً، كان يحسُّ كأنّما حشرت في حلقه شظايا زجاجٍ. ما عاد يستطيع أن يأكل.

سأل الممرّضة مشيراً إلى حنجرته:

- كيف يمكن أن يكون شكلها من الدّاخل؟

أجابته بصراحة:

- مثل قِدْرٍ ساحرةٍ.

وعلى الرّغم من اتّباع العلاج، لم تنخفض درجة الحرارة تحت ٣٨,٦ درجة. أكّد البروفسور هاييك التشخيص: سلُّ الحنجرة واللّهاة.

قال مؤكّداً إنّ الرّئتين قد بلغتا حالاً، ستجعله قريباً مضطراً إلى عدم الاحتفاظ بمريضٍ لا يستطيع أيّ أخصائيٍّ علاجَه.

ثمّ ختم وهو يولي المريض ظهرَه:

- السّبيل الوحيدة لتخفيف الآلام هي المورفين والبانتوبون.

كان العلاجُ باهظاً جداً لدرجة أنّ فرانتس طلب من ماكس، لأوّل مرّةٍ، أن يعرض على ناشرٍ فوراً (وسطّر على كلمة فوراً بخطّين) نشرَ آخر قصصه.

كتب إليه يقول:

- ينبغي أن تمدّ إليّ يوزيفينة[1] يد العون، ما من طريقةٍ غير هذه.

وبدون علمٍ من فرانتس، أضافت دورا أسطراً إلى البطاقة البريدية: «لقد شخّص البروفيسور هاييك حالة فرانتس بالخطيرة جداً، سوف نذهب إلى مشفى الدّكتور هوفمان بكييرلنغ، قرب فيينا».

عشيّة تركه المصحّ، كان ثمّة رجلٌ يحتضر على بعد خطواتٍ من سريره. وكان الأطباء قد تركوه يتجوّل الأيام التي سبقت ذلك، بالتهابٍ رئويّ وحرارةٍ تبلغ ٤١ درجة. كان فرانتس يسمعه ينازع. كانت حشرجةً عاليةً، لدرجة أنّه اضطرّ في لحظةٍ ما إلى أن يدفن أذنيه تحت الوسادة، حتى اختنق.

---

(١) يوزيفينة المغنيّة، أو شعب الفئران، إحدى قصصه الأخيرة، التي كتبها في برلين. (المؤلّفة)

كان ثمّة خوريّ، مع معاونيه، عند رأس المريض، ممسكاً بكفّه يتلو عليه صلواته، ويحدّثه بصوتٍ خفيضٍ مهدّئ. وحين غاب عن الوعي، منحوهُ بركة الزّيت الأخيرة[1]، ولم يتركوه وحيداً، في حين أنّ الأطبّاء كانوا قد خلدوا، منذ زمنٍ، إلى أسرّتهم وناموا.

في اليوم التالي بثَّ فرانتس همَّه إلى ماكس: «بكيتُ اليومَ مرّاتٍ كثيرة بلا سببٍ، لقد ماتَ جاري الليلة الماضية».

*

* *

لكي يهدّئَ من خوفه، كان يقفل عينيه، ويترك الصور تتتالى أمامه. منظرٌ طبيعيّ تنهمرُ عليه الأمطارُ. طريقٌ قفرٌ. وفي البعيد، سيّارةٌ. تقتربُ السيّارةُ ببطء. أضواؤُها تخرِقُ فُرش الضّباب. إنّها سيارةٌ مكشوفة. السّائق يرتدي معطفاً مقاوماً للمطر وقبّعةً واقيةً للوجه. متشبّثاً بالمقود كان يجوس الطّريق بواسطة نظاراتٍ طيّارٍ. خلفه صبيّةٌ شعثاء ومبلّلة، مضطجعة عرْضَ السيّارةِ، ذراعاها متقاطعتان في شكل صليب، وإحدى يديها متشبّثةٌ بالباب، والثانية بمقعد السّائق. ملامح وجهها غير واضحة. تميل السيارة في مسارها كي تتفادى أرنباً ألقى بنفسه في طريق الأضواء. يتزحزح جسد الصبيّة جهة الشّمال. ثمّ يظهر خطيبها. متلفّعاً بالأغطية كما

(١) من طقوس المسيحية الرّومانية، يمنح على إثرها المريض الذي يعاني آلاماً قاسية بركةَ المسيح، عبر زيتٍ مقدّس يدهنه به الرّاهب.

تُلفَّعُ المومياء بالشّرائط، يضطجع على المقعد. إنّه مريض، ومرضه لا شفاء يرجى له، ذاكَ ما تشي به سحنته.

إنّه فيلم رومانسيّ!

يفتح عينيه.

يقول لنفسه:

- إنّ الواقع شيءٌ مختلفٌ تماماً. الواقع مشهدٌ كوميديّ. ركبة دورا تخرق معدتي، قدماي يسبحان في مستنقع ماء، ومبصقتي -ممّا يقتلُ من الضّحك!- قد أُفرغت في عنقي.

في بداية الصّباح، من يومنا هذا، يوم ٢٠ أبريل/ نيسان، تركا مصحّ البروفيسور هاييك. وضعوا تحت تصرّفهم سيّارةً مكشوفةً، إذ كان مستحيلاً إيجادُ غيرها.

الجوُّ عاصفٌ. وما كادوا ينطلقون، حتّى انهمرت عليهم زخّاتٌ من الصّقيع، مصحوبةً برياحٍ ورعد؛ ضجيجٌ هادرٌ يتتالى بين فترات هدوءٍ وجيزة. مستلقياً في مقاعد السيّارة الخلفية، لربّما كان كافكا يفكّر في بيتهوفن وماهلر اللذين توفيَ كلّ منهما في ساعة انطلاقِ عاصفةٍ؛ عاصفةٍ لا شكّ أنّها مماثلة لهذه.

طيلة الرّحلة كانت دورا تقف محاولةً الحفاظ على توازنها، مائلةً عليه. وكان هو يحتجّ عليها:

- اجلسي، ستطيّرُكِ الرّيح.

- لا تتكلّم، يا حبيبي، لا شيء يستطيع انتزاعي منك.

في إحدى فترات الصّحو، سمعت فرانتس يوشوش:

- إنّ إطارات العجلات تصرُّ على الإسفلت مثل صرير الكشّافِ في السنيماتوغراف. وكان شغوفاً بالسينيماتوغراف. في برلين، حكى لدورا أفلامه الفضّلة، مشهداً مشهداً، بعضها بحواراتها: فيلم **لولوت**، أبكاه، و**حادثة دوك**، وجده حزيناً جداً، أمّا أفلام **الحارس الشّهم**، **والدركيّ المنحرف**، **وأخيراً وحدي**[1]، فقد أمتعته كثيراً، وفيلم **عبيد الذّهب**، ينبغي حفظه من أوّله إلى آخره.

ومع ذلك، قلّما كان يتردّد على السنيماتوغراف في براغ، رغم جولاته المسائية اليومية.

كانت دورا قد سألته: لماذا؟

- إنّني أتماهى مع الشّخصيات، حين يتألّم أحدها أو يموت على الشّاشة، فإنّي أرى نفسي أنا من يتألّمُ أو يموت. بعض الصور تلاحقني حدّ الهوس، ليالي أرقي تتضاعفُ.

كان يفضّلُ الأفلام الوثائقية. يتذكّر منها آخر اثنين كان قد رآهما ظهيرةَ يوم أحدٍ **بالليدو-بيو**. أحدهما كان يروّجُ لما يفعله أوّل الواصلين إلى فلسطين، الصحاري المُحوَّلة مروجاً، ويصوّر قرىً أنيقةً، ومدارسَ ورياضَ أطفالٍ نموذجية.

---

(١) ترجمات عناوين الأفلام تقريبية نظراً للفارق بين عناوينها الفرنسية وعناوينها في اللغات الأصل.

الفيلم الوثائقيّ الثاني أثار عاصفةً من التّصفيق. على ملعب كارلسباد، يستعرضُ الريّاضيون اليّهود؛ مذهلون، عظامُ الجسم، عريضو الأكتاف، نحيلو الخصور، برّاقو العضلات. كان أنصافُ الآلهة أولئك يتدرّبون على الرّكض، والقفز، والقفز بالزانة، وحصان المقابض، والحَلَق، وكأنّما آباؤهم وأجداهم مارسوا الرّياضة طيلة حياتهم. وكأنّما اليوتوبيا الصهيونية والاعتراف بالجسد كانا دوماً مترابطين.

لقد خلّف فيه الفيلم أثراً دائماً، لكنّ أثرَه لم يمتدَّ إلى لياليه.

أسرّ إلى دورا بهوسٍ آخر لديه: في طريق عودته مساءً، في براغ، بالترامواي، كان يميل بنفسه خارجاً ما أمكن من المقصورة، مجازفاً بالسّقوط الوشيك، وفي تحليقه ذاك كان ينخرطُ في قراءة ملصقات كلّ فيلم يصادفه على الطّريق، كان يفصّل صورتَه. كان هوساً لا يشبع.

وحين يعود إلى المنزل كان، في الحمّام، يخترع أمام أخواته مشاهدَ أفلامٍ فكاهية. كنّ يضحكن ويتوسّلن إليه أن يكمل.

كانت جملةٌ واحدةٌ تكفيه كي يتخيّل قصّة طويلة. مثلاً؟

فُتح البابُ قليلاً. وبرز مسدسٌ تحمله يدٌ ممدودة.

أو أيضاً؟

- طفلان، وحدهما في المنزل، يدخلان في صندوق كبير، وينغلق عليهما.

- كانت ظهيرةَ يومِ أحد؛ رأت أنّا عبر زجاج النّافذة صاحبةَ المنزل تكفكف تنانيرها.

قالت دورا:

- لست أفهم: لم تكن تُفلت أيّ ملصق، كنت تجعل منها لعبةً. وبالمقابل الأفلامُ كنت تتجنّبُها، هل كنت تخشاها؟

قال ضاحكاً:

- إنّكَ تهزّين رأسَك على طريقة رِبِّيٍّ من الحاسيديم!

*

* *

دخل إلى مشفى كيرلينغ مسنوداً إلى ذراع دورا. وبفضل توصيات العديد من الشّخصيات، حصل على غرفةٍ جميلة بالطّابق الثاني، واجهتُها جنوباً، وتُطلُّ على حديقة.

استمرّ الطّقسّ السيّئ، جوٌّ غائمٌ، وأمطار، وريحٌ باردة، لكنّ الهواء رائعٌ، حتّى أنّ المرء ليخال أنّه يتنفّسُ العافية؛ الوجباتُ طيّبةٌ، ويُسمح لدورا بأن تطبخ ما شاءت. والقاعدة هنا، نفسها القاعدة هناك في مشفى الدّكتور هاييك: تقضي النّهار بأكمله مع فرانتس، ولا تتركه إلا حين يحلّ الليل. تقيمُ في مزرعة قريبة.

عرفاناً، أرسل إليه إرنست فيرفل كتابه الأخير، **فيردي، رواية الأوبرا**، ووروداً جميلةً. وأرسلت إليه أوتلا باقة فاوانيا، زهوره المفضّلة. وحملت إليه دورا غصن لَيْلكٍ بالكاد تفتّح. انتشى فرانتس

بأريجها جميعاً، إنّه الرّبيع يقتحمُ غرفته. إنّه في حالٍ من الضّعف، لكنّه في أيدٍ أمينة. بدأ العلاجُ يعطي أُكله. مرّةً أو مرّتين في اليوم تُحقن حنجرته بالكحول، وهو أمرٌ مؤلمٌ على نحوٍ فظيع. لحظةَ الحقن يَطلب من دورا أن تغادر الغرفة، يرفض أن يُشهدها على عذابه. ولساعاتٍ يرتاحُ. يصير قادراً على البلع مجدّداً.

يومان بعد وصولهما، دخل عليهما الغرفةَ روبرت كلوبستوك.

وكان قد أبلغ فرانتس بنيّته في زيارته بمشفى الدكتور هاييك. أعيت فرانتس محاولُ ثنيه عن قراره. وقد وبّخه فرانتس على فعله: «لا تقدم على فعلٍ ضدّ إرادتي يا روبرت، لا تأتي بغتةً إلى فيينا، تعرف رهابي من الأفعال ضدَّ إرادتي، ومع ذلك تكرّرها كلّ مرّة!».

من برلين، ومن براغ، ومن فاينر فالد، ظلَّ فرانتس يرسل إليه تقاريره الطبيّةَ وتفاصيل العلاجات التي يخضع لها. كان روبرت يعرف أين يوجد بالضّبط المريض الذي قرّر لأجله أن يترك مؤقّتاً دروس الطبّ. وها هو ذا يقتربُ منه طويلاً كبُرجٍ -أمِن الممكن أن يكون قد ازداد طولاً؟- بخدّين موّردين، وشعرٍ غير مسرّح، وابتسامةٍ عريضة. ابتسامة انمحت حين لاحظ ما طال صديقه من تغيّر منذ زيارته الأخيرة إلى براغ. منذ كم؟ أسابيع معدودة؟

وجه ضامر وذراعان مهزولتان، وتحت الملاءة جسمٌ بلا سُمك، وعينان... عينان غارقتان في محجريهما، ملأهما الألمُ ظلماتٍ.

تمتم روبرت:

- أنت... شئت أم أبيت، سأبقى.

غمغم فرانتس:

- إنّك مجنون، مجنونٌ تماماً. أنا لست بيسمارك. هو بإمكانه أن يكون له طبيبٌ شخصيٌّ، أما أنا فلا!

سعيدٌ هو. إنّ حضور هذا الفتى الكبير، بوزرته البيضاء كأنّها درعٌ، والطّاقة التي ينشرها، كلّ ذلك يزيده اطمئناناً. إنّه طبيبٌ جيّد، ويُسعِد المرءَ أن يكون بين يديه. ثمّ إنّه سيريح دورا قليلاً، سيجبرها على الخروج. ومساءً يستطيع أن يسلّيها بعض الشّيء، فهمُومها كثرت.

سمّى الثلاثة أنفسهم «العائلة الصّغيرة». وكان روبرت ودورا يجتهدان في سبيل تمكين فرانتس من بعض الملذّات الصّغيرة: في كلّ وجبة كانا يسقيانه كأساً من نبيذ توكاي، أو نبيذاً من عند أحد الخبيرين بالنّبيذ، أو قدح بيرة؛ وثمارَ فراولةٍ وكرزٍ، يشمّها المريض كثيراً قبل أن يأكلها.

وتعمد دورا إلى إضافة بيضة أو مرق لحمٍ إلى ما يُقدّم إليه من هريسة، ولا تكفّ عن ترديد أنّه لم يأكل. على منضدة سريره تصطفّ علب الفاكهية، وعصائر الفواكه، وقناني النّبيذ.

ولا يعدم لحظاتِ مرح.

طلب فرانتس من عزيزه ماكس الطيّب أن يرسل إليه كتباً ومجلاّت. كتب إليه: «إنّ الحال الطبيعيّة لعينيّ هي أن تكونا مقفلتين، لكن تقليب الكتب والمجلاّت يجعلني سعيداً».

في سنّي شبابه كان يشرب كاتالوغات منشورات ألبير لانغن حتّى آخر قطرةٍ في آخر سطر، ثمّ يعيد السيّرة على بدء بلا توقّف، كانت قراءةً لا تنضب. شرهه إلى الكتب لم يكن سعياً إلى امتلاكها أو قراءتها. وإنّما كان يريد أن يراها، أن يتحسّسها، أن يقتنع بوجودها. كان يستطيع أن يظلّ مسمّراً بالسّاعات أمام واجهة مكتبات تاوبليس، وتاوسيش & تاوسيش. ما كان يشبع من ذلك.

وصل ماكس إلى كيرلينغ يوم الاثنين ١٢ مايو/ أيار، بعد رحلة استغرقت أربعاً وعشرين ساعةً، وتغييرين، أحدهما بفيينا، والآخر بكلوسترنويبرغ.

يومها أنهكت حُقن الكحول كافكا حتّى أغميَ عليه. ثمّ تلا ذلك ارتفاعٌ حادٌّ في درجة الحرارة، وسلسلة لا تنقطع من السّعال. كان ينتظر زيارة ماكس بكثير من الابتهاج، لكن حين أتاه لم يجد القوّة ليرسم على وجهه ابتسامةً، ولا ليمدّ إليه يده. وشوش كلماتٍ بالكاد تُسمع:

– حنجرتي ينشرها منشاران.

بوجه ممتقع، بالكاد استطاع ماكس النّظر إلى صاحبه. لقد سافر من براغ يلفّه جوُّ الموت. دفعته دورا وروبرت إلى البهو، محاولين مواساته مع أنّهما هما نفسهما يحتاجان إلى المواساة.

أياماً بعد ذلك، [تحديداً] يوم ٢٠ مايو/ أيار، شكر فرانتس صديقه على الكتاب الذي أرسله إليه، واعتذر إليه عن إفساد زيارته.

«وداعاً، شكراً على كلّ شيء. تحياتي إلى فيليكس وأوسكار».

تلكم كانت الكلمات الأخيرة، من رسالته الأخيرة، إلى ماكس.

*

* *

حين يغرق في النّوم تحت تأثير البانتوبون، تعذّبه الأحلامُ، الأحلامُ نفسها دائماً. في صدر المشهد والدُه، ليس والده بما هو الرّجل الحاليّ الذي قهرته السّنون، وإنّما والده الرّجل العملاق في ريعانِ شبابه. وبجانبه، ابنُه، في الخامسة من عمره أو السّادسة، ولدٌ سقيمٌ، كومةُ عظامٍ نحيلة، يتأتئ في حضوره.

أيقظَ الطّفلَ كابوسٌ، أخذ يصرخ. هرعت أمُّه إليه. يشكو إليها: «عطشان». أتته بكأسِ ماءٍ من المطبخ، وقبّلته: «عُد إلى النّوم، يا بنيّ». ثمّ عادت إلى فراش زوجها. الطّفل جفاهُ النّومُ. ربّما رغبةً في أن يثير ضيق والديه، أو ربّما ليبدّدَ ضيقه هو، عاد ينتحبُ: «مازلتُ عطشانَ». أمّه لا تأتي. معانداً، ينتحبُ بصوتٍ أعلى.

فجأةً، صاحَ. أبوه، بهيئته الوحشيّة، في قميص النّوم الأبيض الذي يرفرف حواليه؛ أبوه الذي يحاذي رأسه الحائط، ينتصبُ أمامَه: «أيّها الطّفل القذر». يرفع الأبُ ذراعه. يصيح الطّفلُ: «لا تضربني». تقبض عليه يدٌ من جلدِ رقبته، وتجرّهُ حتّى البافلاتش، الشّرفة الدّاخلية، وتفتح البابَ-النّافذة. الطفل يشهقُ بالبكاء، يهزُّ محموماً ذراعيه وقدميه. يصرخ الأب: «أيّها الحقير، إن لم تكفّ عن البكاء فسوف أسحقك».

ثمّ أقفل النّافذة.

بقي الطّفلُ وحيداً على الشّرفة، تُرعبه الباحةُ تحته سوداءَ كالبئر. ينتظر، مرتجفاً، أن تأتيَ أمّه لتخلّصه.

لكنّها لا تأتي.

والآنَ، سنّهُ أكبر بقليل، تسع سنواتٍ، عشرٌ، وهو في المسبح البلديّ. قرّر والده أن يعلّمه السّباحة. هما ذانِ محبوسانِ في مقصورةٍ ضيّقةٍ ومظلمة، العملاقُ يملأُ الفضاءَ، له جذعُ محاربٍ وذراعاهُ وفخذاهُ؛ الإبطان ينزّان رائحةً نفّاذة، رائحةً قويّة ينقلع لها قلبُ الطّفل.

عاريين يتقدّمان تحت الشّمس وفوق الألواح التي تتكسّر؛ أحدهما بجذعٍ مفتولٍ، ورأسٍ مرفوعٍ، وقدمينِ منفرجتين؛ والآخرُ بهيكلٍ صغيرٍ مرتجفٍ، عيناه بالكاد تصلان مستوى مؤخّرةٍ ثقيلة، شديدة ومنتفخة، تنتشر فيها شبكةٌ متعرّجةٌ من العروق المتورّمة، عروقٌ زرقاء شفّافةٌ، يرى الطّفلُ الدّمَ فيها ينبض. خصيتان هائلتان، ملساوين ككرتين من عاجٍ، تضربان هذه الفخذ وتلك.

أيادٍ عملاقة تمدُّ إليه نقانقَ وكأسَ بيرة هائلةً. صوتٌ مزلزلٌ يأمره أن يأكل كلّ شيء، وأن يشربَ حتّى الرّغوة.

من أحلامه تلك، يخرجُ منهكاً، يملأ العرقُ جسمه.

قال لدورا متسائلاً: هل سيلاحقني أبي حتّى القبر؟

*

* *

مذُ أتى إلى هذا المشفى، ما عاد يكتب من الرّسائل إلا القليلَ، ما عاد يملك لا الحريّة ولا القوّة لذلك. نهاية أبريل كتب أسطراً مرحةً إلى والديه:

«علاجي قوامهُ عملياتُ تلفيفٍ جميلٍ، واستنشاقٌ». وبموافقةٍ منهما، أخذ حريّة التّكاسل في التّراسل. فوّض لدورا وروبرت أمر إعلامهما بأخباره، والردّ على مكالمات العزيزة والجميلة أوتلا، وإيلي، وفالي، وماكس، والأصدقاء.

ما انفكّ روبرت يمتدح لهم الحبّ الرّائع الذي لا يحدُّ، حبَّ دورا لفرانتس. يقول: «إنّها نبعُ عطاءٍ لا ينضب». وحين تشكره أوتلا على بقائه بجانب أخيها، يجيبها بألمانيته الرّكيكة: «إنّه شرفٌ حقٌّ! حين ينظر إلينا بعينيه البرّاقتين المفعمتين بالحياة، يكون أنا مرحاً، سعيداً؛ عطيّة من الربّ هذان الاثنان المتّلائمانِ جداً!».

من بين الأخوات الثلاث وحدها أوتلا استطاعت القدوم إلى كيرلينغ. ولم تبقَ فيها إلا يوماً واحداً. أحضرت لأخيها اللحاف الأحمر الذي طلبه. قضى اليومَ بأكمله على الفرندة، في الهواء المنعش.

كانت يولي وهرمان كافكا يكتبان أو يتّصلان تقريباً كلّ يوم. وحين أفصحا لابنهما عن نيّتهما في المجيء لزيارته، وجد فرانتس ما يكفي من القوّة لكي يجيبهما في الحين، لفرط ما كان يتوجّسُ من زيارتهما.

كتب إليهما رسالةً طويلة وحسنة. ذكر في البداية حجم الفرح الذي كان ليشعر به لو قدّر لهم أن يجتمعوا هانئين، في بلد جميل، وفي

أيديهم أقداح البيرة، مثلما كان يحدث أيّام كان يصطحبه والدهُ إلى مدرسة السّباحة المدنية. ثم بيّن لهم أنّه في الوقت الرّاهن لا فائدة من زيارته، ملحاً في القول: «ليس فيَّ ما يسرُّ النّظر». صحيحٌ أنّه بدأ يخرج من وهنه بفضل دورا وروبرت اللذين يمدّان له عوناً لا يوصف. وأضاف «لكنّ سُلَّ الحنجرة أنهكني، وإلى أمراضي انضافت نزلةٌ معوية. وما عدت أتكلّمُ إلا همساً. ثمّة إذن أسبابٌ كثيرةٌ تمنع قدومكما».

وختاماً، طمأنهما: «لقد وقف البروفسور على تحسّنٍ كبيرٍ، كلّ شيءٍ يسير على ما يرام. روبرت لا يتركني لحظةً، يصبُّ كامل قواه في الاهتمام بي، بدلاً من أن يهتمّ بامتحاناته».

لكن، ماذا لو أنّ هذا التحذير لم يكن كافياً؟ ماذا لو قرّرت أمّه تجشّم السّفر وحدها، كما أوحت إليه؟ ستنهارُ حين ترى حالَ ولدها، وسيكون موقفاً رهيباً بالنّسبة إليه وإليها.

ناشد روبرت يولي كافكا: «سيّدتي، سيدّتي العزيزة، أنتم يقدر يحدثُ اضطراباً قاتلاً لابنكم».

*

* *

– هل وصلت رسالةٌ من بيدجين (بولندا)؟

يطرح فرانتس السّؤالَ نفسَه كلّ صباحٍ. يقلقه الصّمتُ الذي يعقبُ سؤالَه. تحاول دورا تهدئته:

- أنت لا تعرف والدي. إنّه رجلٌ لا يلين، لم يسبق له قطّ أن تهاون في أمور الشّريعة. أنت لم تقدّم نفسك إليه كمؤمنٍ، وإنّما كثائبٍ. ولا تنسَ أنّي فررتُ من منزلنا. ما عاد يعترف بابنته.

- لكنّك ابنته. وأنا عبّرتُ له عن صادق رغبتي في أن أتّخذَ أسلافاً، وعروساً، وذريّةً.

- لقد علّمني بعل شيم توف[1] أنّ كلّ إنسانٍ إلا ويرتبط بالله ارتباطاً مباشراً. كلّ مساءٍ، وكلّ صباحٍ أردّد هذه الصلاّة: «تبارك اسمك إلى الأبد، يا إلهنا وإله العالم، ولتمنحنا يدك المقدّسة كلّ شيء».

وصل الرّدّ من بيدجين. على عادته كلّما اضطرّ إلى اتّخاذ قرارٍ حاسمٍ، استفتى السيّدُ هيرشل ديامانت الربيَّ الذي يبجّلُه، موردخاي ألتر. قرأ رجُل الدّين رسالةَ الدّكتور كافكا، ولم يزد على كلمة واحدة: «لا».

بوجه منقبضٍ مدّ فرانتس الرّسالة إلى دورا:

- المزيدُ من الغرق. إنّها هزيمتي الأخيرة.

- حبيبي فرانتس، أنا أصلاً زوجتك، جسداً وروحاً. لا يمكن أن نرتبط أكثر ممّا نحن مرتبطان الآن. لا أحتاج مباركةً من أبي. أنت زوجي أمام الله.

---

(١) الخاهام يسروئيل بن إليعزير، ربيٌّ يهودي صوفي.

لم تُخبر دورا فرانتس شيئاً عن الضّغط الذي يمارسه عليها كلّ من الدّكتور هوفمان، وزوجته، وطاقم المستشفى. يضايقونها كلّ يومٍ:

- ينبغي أن تتزوّجا. ينبغي أن تلتزما بقواعد الأخلاق والحشمةِ العامّة. مشفانا لا يمكن أن يتسامح مع تصرّفكما المخجل!

صباحاً، وفرانتس في أسوأ حالٍ، استدعاها الدكتور هوفمان إلى مكتبه. قدّم لها الربيّ الذي أتى به من فيينا، وأراها عقود الزّواج، جاهزةً، ومدّ إليها التاليت[1]. صاحت دورا من الغضب. بعينين دامعتين، غادرت المكتب مغلقة الباب خلفها بعنف.

تَعلمُ هي أنّ فرانتس يريد أن يتزوّجها، كي يقبلها والداه، خاصةً أبوه، كزوجة ابن[2]، ويدعمانها.

قالت لروبرت:

- إنّهم يحبّونني أصلاً، أنا على يقينٍ من ذلك، ألم تسمعهما في الهاتف؟ كانا عاجزين عن شكري وعن التّعبير لي عن امتنانهما.

*

* *

يوم ٢٦ مايو/ أيار، كتب آخر رسائله. إلى والديه العزيزين. رسالة من ستّة أسطر. يصلح سوءَ فهمٍ: «إنّ رغبتي في أن أشرب

(١) شال الصّلاة اليهوديّ.

(٢) بفضل ماكس برود حصلت دورا على حقوق كافكا بالألمانية، كأنّها زوجته رسمياً.

ماءً في كؤوس كبيرة، وأن آكل فواكه، لا تقلّ عن رغبتي في شرب البيرة؛ لكنّي الآن لا أتقدّم إلا بطيئاً».

حتّى وفاته ظلّ يظنُّ أنّه في كلّ ما انخرط فيه: تعلُّم البيانو، والكمان، واللغة الإيطالية، والإنجليزية، والعبرية، والدّراسات الجرمانية، ومعاداة الصهيونية، والصهيونية، والنّجارة، والبستنة، والأدب، ومحاولات الزّواج، ما كان يتقدّمُ إلا بطيئاً. كان أستاذه السّيد بيك محقّاً حين نبّهَ والده: «اتركه في القسم الخامس، إنّ الإفراط في العجلة يؤدّى ثمنُه غالياً. وهو طفلٌ بطيء».

يقول لنفسه، لم أكمل كتابةَ أيّ من رواياتي، والكثير من قصصي تركتها في منتصف كلمةٍ.

لا أخلِّفُ إلا شظايا.

لم أحسن تدبير أيّ من مشاريعي.

خطرت بباله «Billig»[1]، السلسلة المختصّة في دلائل السّفر التي كان قد تصوّرها هو وماكس ذات يوم من أيام سياحتهما في مونتمارتر بجيوبٍ خاوية. دليلُ سفرٍ من شأنه أن يعوّض دليل Baedeker المملّ، ويعطيَ السيّاحَ ما يحتاجونَه حقاً من معلوماتٍ: عناوين الحانات الجيّدة، والفنادق، ومحلاّت الحلوى، والمتاجر، والمتاحف. أوّل عناوين سلسلتهما: Billig Paris، «باريس بأبخس ثمن»، و«سويسرا بأبخس ثمن».

---

(١) تعني في الألمانية «رخيص».

يتذكّر كيف طلب من ماكس بغلظةٍ أن يلقي إلى النّسيانِ بـ «صامويل وجونثان»، الرواية التي كانا قد بدءا كتابتها معاً، وكان ماكس متمسّكاً بها جداً.

لا أكملُ شيئاً، لا أكملُ حتّى عباراتي التي...

*

* *

صار تقريباً بلا صوتٍ. نصحه الأطبّاء بأن يكفّ مؤقّتاً عن الحديث. صار يتواصل مع دورا وروبرت كتابةً. في البداية اتّخذ من الأمر لعبةً، فلم يكن يكتب إلا جزءاً ممّا يريد قولَه، وعليهما هما أن يخمّنا تتمّة الكلام. يوافقُ بهزّةٍ من رأسه إن كانت إجابتهما صحيحة، وينفي بإشارةٍ من يده إن كانت خاطئة.

ينشغل بالزهور التي ملأت غرفتَه:

يكتب لروبرت[1]:

«أُنظُر إلى الليلك، أشدّ نضارةً من الصّباح».

«أرني زهرة الأنقولية؛ إنّ لونها أغمق من أن توضع مع غيرها».

«الزّعرور البريّ مختفٍ أكثر ممّا ينبغي، متوارٍ في الظّل».

«الليلك رائعٌ أليس كذلك؟ إنّه يشربُ وهو يموت، يواصل السُّكر».

---

(١) احتفظ روبرت بورقات كافكا هذه؛ والموجّهة لروبرت منها هي تلك التي يخاطب فيها بضمير الجمع. ولم ينشر النّاشرون إلا جزءاً منها. (المؤلّفة)

«هل عندك وقت؟ إذن، اسقِ فضلاً الفاوانيا، إنّها بالغة الهشاشة».

«دخل الغرفةَ طائرٌ. لهذا نحبُّ اليعاسيب».

وأوراقٌ أخرى عديدة تخصّ الطّعامَ والشّراب:

«اِسأل عمّا إذا كانت ثمّة مياهٌ معدنية جيّدة، اِسأل بدافع الفضول لا أكثر».

«لا يوجد محتضرٌ يشرب».

«لِمَ لم أجرّب البيرة في المستشفى؟».

وحين كان يحسُّ نفسه بخير، كان يذكر أسفارَه إلى إيطاليا، البندقية، ريفا، البلطيق. وغالباً ما يصاحب أسطُره القليلة تلك برسومٍ أو بطاقاتٍ.

ثمّ كتاباتٌ أخرى تخصّ والديه ودورا وروبرت:

«والدي سعيد برسائلي المستعجلة، لكنّها تغضبه في الآن نفسه».

«لو أنّ إنساناً مقدّرٌ عليه الموت، استطاع أن يبقى حياً، فسأبقى حياً».

«ضعي يدك على جبيني لتمنحيني القوّةَ».

«ثمّة دوماً إمكاناتٌ على أهبةِ أن تُزهر».

«عيد ميلاد ماكس يوم ٢٧ مايو/ أيار، لا تنسَي ذلك».

«كم من الوقت سأستطيع تحمّلَ أن تتحمّليني؟».

«أين الرّبيعُ الأبديُّ؟ فكّرتُ في كلّ المعجزات الممكنة، لكنّ الوهمَ لم يدُم».

آخرُ وُريقاته كتبها والطّبيبُ يغادرُ غرفتَه:

«هكذا تغادرُ النّجدةُ، من دون أن تكون قد أنجدَتكَ».

*

* *

آلامُ حنجرته لا تُطاقُ. ما عادت حقن الكحول تجدي نفعاً. وحدهما المورفين والبانتوبون يريحانه. فترات راحةٍ ما انفكت تزداد قِصراً. رفض روبرت رفع الجرعةِ مخافة ألاّ يتحمّل القلبُ.

*

* *

اليومَ، كفَّ عن تناول الطّعام والشّراب. يفضّل أن يموت جوعاً وعطشاً، عطشاً يصيبُه بالجنون، على أن يشرب قطرةَ ماءٍ تجعله يقاسي عذاباً أفظعَ من العطش.

دورا ترطّبُ شفتيه باستمرارٍ، وتجعله يستنشق أريج الفواكه التي يفضّلها: فراولة، قطعة أناناس. تردّد بصوتٍ خفيضٍ، كابتهالٍ، كصلاةٍ: «حبيبي الحنون»، «عزيزي العطوف».

*

* *

صعدت إلى غرفة روبرت.

صاحت فيه:

- كيف لك أن ترتاح، بينما يموتُ جوعاً وعطشاً منذ يومين؟

ضربته بقبضتيها على صدره:

- افعل شيئاً، أتوسّلُ إليك، لا تتخلَّ عنه، أنت طبيبٌ، فافعل شيئاً...

هوت على كتف روبرت، انهارت أعصابها، أخذت تنتحب بهدوء، ثمّ بصوتٍ أعلى فأعلى، وكأنّما تطلق العنان لأمواجٍ من الغضب، من العجزِ عن الفهم:

- أين الإله العادل؟ أين الإله الرّحيم؟

عاجزاً عن الكلام لفرط تأثّره -وماذا عساه يقول؟- ضمّها روبرت بذراعيه، وأخذ يداعب شعرها إلى أن استنفدت قواها فهدأت. مدّ إليها كأس ماءٍ أذابَ فيها منوّماً:

- ارتاحي قليلاً هنا. سأنزل عندَه.

*

* *

رغم المورفين لم يذُق طعاماً منذ ثلاثة أيّام. شرب القليل من الماء. وإذّاك وصلته بروفة **فنّان صَوم**[1]، مجموعةٌ قصصية تضمُّ ثلاث قصص أخرى، **عذابٌ أوّلُ**، **وامرأةٌ صغيرة**، **ويوزيفينة المغنيّة**.

(١) تنشُر غالباً بعنوانٍ آخر، فنّانُ جوع. (المؤلّفة)

كان ينتظرها بفارغ الصّبر:

- الآن فقط أرسلوها!

وبدأ على الفور قراءة النّصوص، حاملاً قلمَ رصاصٍ. شديدَ التّركيز، كان يتقدّمُ في القراءة ولا يبدو عليه عدم الرّضا. أنهى ملزمةً. انتقل إلى الثّانية. روبرت يراقبه بطرفٍ خفيّ، متظاهراً بقراءة وصفةٍ طبيّة. رأى القلم والبروفة يسقطانِ أرضاً. نهض ليلمّهما، لكنّه توقّف.

كافكا يبكي.

ما عاد قادراً على متابعة التّصحيح. ما عاد قادراً على قراءة هذه الحكاية، التي كتبها منذ سنتين: شابٌّ محبوسٌ في قفصٍ يصومُ أمام أعين جمهور متحمّسٍ وغفير، لكنّه يتضاءل يوماً عن يوم. الفنانُ مجبرٌ على الصّوم، لا يستطيع أن يفعل غير ذلك، صامَ أربعين يوماً متتالية، ومات من دون أن يهتمّ لأمره أحد. وفي النّهاية أتى كنّاسٌ ينظّفُ القفص من هذه الحشرة التي التصقت بالفراشِ. وفي مكانِه وُضع فهدٌ فتيٌّ رائعٌ، كان يُطعَمُ بانتظامٍ. الجماهير تكتظُّ حول القفص، وما عادت تريد أن تتركه.

اليوم الأخير: ٣ يونيو/حزيران ١٩٢٤

ضجيجٌ؟ صمت؟ شيءٌ ما أيقظها. منحنيةً عليه تنصت إلى تنفّسه. أليس النَّفس أقصرَ ممّا ينبغي؟ غير منتظم؟ لم تجرؤ على إيقاد النّور. ذاك أنّ نومه خفيف جداً. لقد نام حوالي منتصف اللّيل، مسترخياً، هادئاً. وعلى الرّغم من نصائح روبرت وإلحاحه «اذهبي لتنامي، يجب عليك ذلك، لن تتحمّلي». إلا أنّها قضت ليلة أخرى في هذه الغرفة. مسمّرة جانب سريرِ هيكلٍ عظميّ. اليدان المسجّاتان على اللّحاف الأحمر صارتا بدقّةِ مسمارين، وفي وجه المومياء تبرز العظامُ.

تخشى أن يأخذها النعاس. خرجت إلى الفرندة التي يظل بابها مفتوحاً على الدوام. الليل دافئ. من الحدائق المحيطة تصعد روائح. وأحيانا تصلُها هبّةُ ريحٍ مشبعة بأريج الحقول. لكثرة ما تأملت الريف الممتدّ أمامها، صار بوسعها أن تحدس في الظلام حزمة أشجار الأرزية هنا، وهناك المنازلَ وبرج الكنيسة، ثمّ الطريق الرّملية. وإذ تيقظّت حواسها، عادت تجلس عند حافة السّرير.

حوالي الرابعة صباحاً صفيرٌ حادّ مزّقها، أرعبها. أسرعت إلى الهاتف. هرع إليها روبرت. أيقظ على الفور الطبيب المناوب.

منذ سنتين، في يوم ضجر، دوّن كافكا في يومياته: «لا يمكن أن ننكر أنّ ثمّة ضرباً من السعادة في مقدرة المرء على أن يكتب باطمئنان: إنّ الاختناق شيء فظيع لدرجة لا تتصوّر».

وإنّ تلك الفظاعة التي لا تُتصوّر: الاختناق، هي ما يفعلُ الآنَ فعلَه. ما عاد الهواء يدخل إلى الرّئتين، رغم استرواح الصدر. ممدّدا على سريره، يلقي عنه بعنفٍ ملاءاته، فمُه مفتوح وُسعَه، لكن لا صيحة تخرج منه، لا صوت، العينان زائغتان، منتفختان، كافكا يتوسّل نفحةَ هواءٍ، باسطاً ذراعيه الهزيلتين تجاه الطبيب. دورا، ضاغطةً بيديها على فمها، تئن كأنّما تعصر بطنها أوجاعٌ. تقدّمت، ثم هوت عند طرف السرير مغشياً عليها.

قبيل منتصف النهار، رجاها روبرت أن تذهب من فورها لتبعث برسالة مستعجلةٍ إلى والدَي فرانتس. رفضت بوهنٍ:

-لا أريد أن أتركه.

ألحّ عليها روبرت. متعبةً من النّقاش، متعبةً من انتظار معجزة، رضخت لأمره. ارتاحت. ما عادت تتحمّل أن تشهد عاجزةً هذا العذاب، ما عادت تتحمّل رؤية هذا الجسد المهزول المرعب، الذي لم يبقَ فيه شيء حيّ، سوى عينيه. عينان تتوسّلان إليها أن تضع حداً لعذاباتهما.

وحده روبرت كلوبستوك كان الشاهد على تلك الفظاعة التي

لا يمكن تصوّرُها: الاختناق. رأى صديقه، بحركة مباغتة، يطلب من الممرضة أن تخرج من غرفته؛ رآه ينتزع استرواحه الصدريّ، ويضرب به الحائط، بقوّةٍ أذهلته.

رآه يختنق، ورأى حنجرته تتمطّى مقدّمةً نفسها قرباناً. سمع صديقه يلهث، سمعه يقول له:

- ألم تكن قد وعدتني. أنت تعذّبني، لطالما عذّبتني، لطالما عذبتني، وما تزال مثابراً في تعذيبي. ومع ذلك سأموت.

أحسّ روبرت بقدميه تخوران. قال في نفسه: عمري خمس وعشرون سنة، وأنا طبيبٌ، كيف لي أن أقتل الرّجلَ الذي أقدّره أكثر من أي إنسانٍ آخر في هذا العالم؟ الرّجلَ الذي أحبه مثل أبٍ، مثل معلّمٍ أعطاني الكثير، وعلّمني الكثير؟ لكن، أنّى لي أيضاً أن أمدَّ في عذابِ احتضاره؟

أعدَّ حُقنةً.

- مزيداً، مزيداً، ألا ترى أنّ جرعاتك لم تعد تجدي نفعاً.

لم يُجب روبرت، اكتفى بالبكاء صامتاً.

وفجأةً سمع فرانتس يصرخ:

- اقتُلني، وإلاّ فإنّك قاتلٌ!

الآن صار يهذي. ينادي أختَه:

- إيلي لا تقتربي منّي كثيراً، أجل، هكذا جيد.

لم يفارقه روبرت بنظره، رأى الوجهَ يسترخي، والجسدَ يهدأ، رآهُ ينزلقُ في صمتِ الظّلماتِ.

عادت دورا من البريد، حاملةً زهوراً. انحنت على وجه خطيبها وقبّلت خدّه.

- فرانتسي العزيز، هلّا استنشقتَ هذه الزّهور، بعطرها العذب؟

خالت أنّها سمعته يتنفّس. خالت أنّها رأته يفتح عينه اليسرى. ضمّت إليها برفقٍ الرّجلَ الذي أحبّته كثيراً.

ما عادت تسمع قلبَه ينبض.

فرانتس كافكا قد تمكّن من الهرب.

دُفنَ فرانتس كافكا ببراغ، في مقبرة شتراشنيتز اليهودية، يوم ١١ يونيو/ حزيران ١٩٢٤، في الرّابعة عصراً. كان الجوّ بارداً يومها، وتلبّدت السّماء حين بلغَ المدفنَ موكبٌ من نحو مائة شخصٍ، النّساءُ يرتدين حجُباً سوداءَ، والرّجالُ قبّعاتٍ طويلة. وبينما يتلو الربّيّون صلاةَ الكاديش، أطلقت دورا صيحةً، أفلتت من ذراع ماكس الذي كان يسندها، وسقطت مغشياً عليها.

هرمان كافكا يحتقر مثل هذه المظاهر. أشاح بوجهه عن دورا الممدّدة على الأرض، وتقدّم نحو القبر؛ كان البادئ إلى رمي حفنةٍ خفيفةٍ من التراب المختلط بالحجارة على تابوت ابنه. وجاهدَ كي لا ينظر في عيني ابنته أوتلا التي كانت جامدةً صامتةً، وعيناها فارغتان كعيني شبح.

حكى ماكس برود أنّه، في طريق عودته، إذ كان ماراً من أمام مبنى البلدية، رأى السّاعة متوقّفةً: عقاربها كانت تشير إلى الرّابعة بالضّبط.

ثمانية أيّام بعد ذلك، أي يوم ١٩ يونيو/ حزيران ١٩٢٤، وفي حفلٍ دينيّ أقيم في الحادية عشرة صباحاً بمسرحٍ صغير، وحضره ما يفوق خمسمائة شخصٍ، ألقى ماكس وعددٌ من الكتاب شهاداتٍ وخطباً.

وقرأ الممثّل هانس هلموت كوخ، نصّين لكافكا: نصّ **حلم** الذي يبدأ هكذا:

«كان جوزيف ك. يحلم. كان نهاراً جميلاً؛ فخرج يتنزّه. لكن ما إن خطا بضع خطواتٍ حتى وجد نفسَه في المقبرة».

ثمّ نصّ **مخطوط قديم**، الذي ينتهي بهذه الكلمات:

«لنا نحنُ، العمّالَ والفلاحّين، عُهدَ بالسّلامِ والوطن؛ لكنّنا لسنا كفؤاً لمثل هذا الواجب؛ ثمّ إنّنا لم ندَّعِ يوماً أنّنا كذلك. إنّه مجرّد سوء فهمٍ، ونؤكّد ذلك».

بعد ١٩٢٤

هرمان ويولي كافكا

توفي هرمان كافكا سنة ١٩٣١؛ وتوفيت زوجته يولي سنة ١٩٣٤. يرقدان معاً قرب قبر ولدهما فرانتس. وعلى الشّاهدة البسيطة التي تعلو مدفنهم مكتوبةٌ أسماءُ ثلاثتهم، وآياتٌ بالعبرية.

إيلي، وفالي، وأوتلا

إيلي، وزوجها كارل هرمان، وأطفالهم الثلاثة فليكس وغِرتي وهان؛ وفالي، وزوجها يوزيف بولاك وابنتها لوته، جميعهم رُحّلوا إلى لودز، ببولندا، حيث أبيدوا جميعاً سنةَ ١٩٤٤، مع كلّ أفراد الغيتو.

أمّا أوتلا، فقد أقنعت زوجها، جوزيف دافيد، المحسوب من الآريين، بأن يطلّقها حتّى تتمكّن من إنقاذ ابنتيها فيرا وهيلين دافيدوفا. مدّةً يسيرةً بعد ذلك قُيّدت أوتلا في لوائح اليهود؛ وسنة ١٩٤٢ أوقفت وأرسلت إلى مخيّم تيريزينشتات، قريباً من براغ؛ وفي

السّنة التالية تطوّعت لمرافقة موكبٍ من ١٢٦٠ يتيمٍ، ظنّتهم مرحّلين إلى الدّانمارك؛ لكن لما وصلوا إلى أوشفيتز يوم ٧ أكتوبر/ شباط، أعدموا جميعاً في غرف الغاز في اليوم نفسه. اسمُ أوتلا كافكا هو الاسم السّادس في لائحة من أعدموا يومها.

لافتةٌ موضوعةٌ أسفل مدفن العائلة، تخلّدُ ذكرى إيلي وفالي وأوتلا اللّواتي كنّ جميعاً من ضحايا الوحشيّة النّازية.

من بين أبناء وبنات أخوات كافكا السّبعة، لم ينجُ إلا ثلاثةٌ: فيهرا وهيلين وماريان.

ماريان، الابنة البكر لفالي، التي تزوّجت جورج شتاينر، كانت قد فرّت إلى لندن؛ بصدفةٍ عجيبةٍ، التقت سنة ١٩٤٨ بدورا في وكالة عقارية بلندن، فعرفتها. وحين وقفت على حال دورا المالية البائسة، منحتها حقوق خالها الأدبية باللغة الإنجليزية.

فيليس باور

سنة ١٩٣١، جلس على مقاعد الرايشتاخ (مجلس النّواب الألماني) مائةٌ وسبعة نوّابٍ من الحزب النّازيّ. فلجأت فيليس إلى سويسرا، مع زوجها وطفليها؛ جمعت في حقيبتها مئات الرّسائل التي كان قد أرسلها إليها كافكا، بل وحتّى برقياته؛ لم يضع من الرّسائل إلا قليل. عددها كثيرٌ، لدرجة أنّها تملأ لوحدها حقيبةَ سفر. هل كانت في جونيف، تقرأ بعضها حين يجتاحها الحنين؟ أم تُراها كانت تقول إنّ الماضي قد مضى، فلنكفّ عن استحضاره؟

سنة ١٩٣٦ بدت وضعيّة اليهود في أوروبا منذرةً بالأسوأ، فهاجرت إلى الولايات المتّحدة؛ لكنّها قبل رحيلها اكترت خزنةَ أماناتٍ، وحرزت فيها الرّسائلَ. لقد كانت بحسّ الأعمال الذي تملكه تعرف أنّها تملك كنزاً؛ فهي لم تنسَ أنّ ماكس برود يحفظ كقطعٍ أثريّة أدنى أسطرِ بخطّ فرانتس؛ وإلى رسائلها ضمّت تلك التي كانت قد عهدت بها إليها صديقتُها غريت بلوخ، أثناء مرورها بجنيف.

ظلّت الرّسائل ترقد في خزنتها ما يناهز عشرين عاماً. وسنة ١٩٥٥ «تنازلت» (كما تقول المعلومات التاريخية) عنها فيليس إلى منشورات Schocken Books بنيويورك؛ ولم تنشر إلا سنة ١٩٦٧، أي بعد موتها بسبع سنواتٍ، وموتِ كافكا بثلاثٍ وأربعين سنةً. مثل جميع اليهود الألمان كانت فيليس تعرف النّاشر سالمون شوكن، وهو ثرّيٌ محسنٌ كان قد أسّس في برلين منشورات Schocken Verlag. ولمّا اضطرّ هتلر سنة ١٩٣٣ الكتّابَ اليهودَ إلى ألاّ ينشروا إلا عند ناشرين يهود، اتّصل ماكس برود فوراً بسالمون شوكن: كي يشتري من النّاشرين الآريّين حقوقَ كتب كافكا التي ما عاد بإمكانهم الانتفاع من بيعها، باع ماكس لشوكن الحقوق الدّولية لأعمال كافكا المنشورة كلّها. وكذلك أعماله التي ستنشر بعد وفاته. وذاك هو السّبب الذي ما كان يسمح لفيليس بأن تخاطب أيّ ناشر آخرَ غير شوكن.

كلمة في حقّ هذا الشّخص العجيب: بعد ملاحقته من طرف هتلر، هاجر سالمون شوكن في البداية إلى فلسطين، حيث أسّس دار

نشر جديدة واشترى صحيفة هارتز؛ وحين قرر سنة ١٩٤٠ الانتقال إلى بلد بمستوى طموحه، الولايات المتّحدة، عهد بدار النّشر شوكن هاوس إلى ابنه غوستاف؛ وأسس فور وصوله إلى نيويورك شوكن بوكس. ومن كان أوّل المتعاملين معه؟ حنّة آرنت[1]. مهاجرةٌ ألمانية.

وبعدما تمّ شراء منشورات شوكن بوكس سنة ١٩٨٠ من طرف منشورات راندوم هاوس، صارت جزءاً من Bertelsmann، وهي مجموعةٌ ألمانية!

يعود الفضل قطعاً إلى إريش هيلير ويورغن بورن، في السّهر على نشر رسائل فيليس وغريت التي كانت بحوزتها. ونستطيع أن نتخيّلَ المشهدَ: امرأةٌ مسنّة، لكن ما تزال متيقّظةً، تقصد ذينك الرّجلين، وتعرض أمام عيونهما المذهولة، والمتوهّجة، وغير المصدّقة، اعترافات مؤلّف **التحوّل** وأسراره الأشدَّ حميميةً. بوسعنا أن نحدس الأحاسيس التي عبرتهما، ولياليهما المحمومة التي قضياها في ترتيب الرّسائل، وفكّ حروفها. يوماً بعد آخر كانا يشهدان نزولَ فرانتس إلى الجحيم، وعذاباته وشغفَه المفترسَ. أن تكتب لتنتزع حقّك في الحياة.

سنة ١٩٥٥، كان كافكا قد تُرجم تقريباً إلى كلّ اللّغات وصار يحتفى بعمله في كلّ مكانٍ. فحسبَ الرّجلانِ مدى الفائدة التي يمكن أن تُجنى من تلك اللّقية. هل اتّصلا بهاكس برود الذي كان، في تل أبيب، ما يزال يحتفظ بمخطوطات صديقه ورسائله؟

---

(١) حين سأل صحفيٌّ حنّة آرنت، في سنواتها الأخيرة، عن أيّ كتاب كانت لتحمله معها إلى جزيرةٍ خالية أجابته: «جواز سفري الأمريكي». (المؤلّفة)

أين الرّسائل التي كتبتها فيليس إلى فرانتس منذ نحو قرنٍ من الزّمن؟ هل أحرقت؟ هل أحرقها فرانتس مثلما يوحي في رسالةٍ إلى صديقه روبرت كلوبستوك؟ هل ما يزال بعضٌ منها في إسرائيل، ضمن ملفّات ماكس برود؟

غريت بلوخ

لم تتحلَ بحكمة فيليس ولا أصابت حظَّها. مُخالفةً رأيَ أصدقائها، لجأت إلى إيطاليا، حيث أوقفت ورُحّلت بلا شك. كانت قد عهدت إلى محامٍ في فلورنسا بالقسم الثاني من رسائل كافكا إليها. ونهاية الحرب، أعطاها المحامي إلى ماكس برود الذي بعث بها إلى منشورات شوكن بنيويورك. ونُشرت آنذاك الرّسائل كلّها، أي نحو سبعين رسالةً. ضاعت بالمقابل كلّ رسائلها هي إلى فرانتس. تلك الرّسائل التي كان قد رفض إعادتَها إليها.

يولي ووريزيك

من الرّسائل التي بعث بها كافكا إلى يولي، والتي عددها قليلٌ بلا شك، لم تصلنا أيّ واحدة. ولا نعرف أيّ شيءٍ عن السّنوات التي تلت فسخ خطبتهما، ولا شيءَ عن موتها بمصحٍّ نفسيّ.

ميلينا يسينيسكا

سنة ١٩٢٤، أي سنة وفاة فرانتس كافكا، تطلّقت ميلينا وارتبطت بكونت نمساويّ شيوعي؛ وسنة ١٩٢٧ تزوّجت معمارياً موهوباً،

يارومير كريتسار، ومنه أنجبت طفلةً، هونتزا. وأثناء فترة حملها أصيبت بإنتان الدّم، فلجأت بسبب الآلام الفظيعة إلى المورفين، وعجزت عن التّخلّص من إدمانه.

سنة ١٩٣٦، بعدما انفصلت عن زوجها، كرّست حياتها للسياسة. كانت شيوعيةً، لكنّها طُردت من الحزب لأنّها جرؤت على التّنديد بمذابح ستالين. وحين غزا هيتلر تشكوسلوفاكيا، كانت الآرية ميلينا تتجوّل في شوارع براغ حاملة شارة النّجمة الصّفراء. أ كانت تلك النّجمة المخيطةُ إلى ياقتها هي رابطتها بكافكا، وقد صارت أخيراً تصرّح بها على الملأ؟

انخرطت في المقاومة، وأوقفت من طرف الغستابو سنة ١٩٤٠ وأُرسلت إلى رافنسبروك، وفيها توفيت يوم ١٧ مايو/ آيار سنة ١٩٤٤. وفي ذلك المخيم حكت قصّة حياتها وغرامياتها لمارغريت بوبر-نيومان التي حين أطلق سراحها، كتبت بيوغرافيا المرأة الحرّة المتألّقة التي كانت معجبةً بها أيّما إعجابٍ، **ميلينا**. الاسم الذي صار مرتبطاً باسمِ كافكا إلى الأبد.

كانت **الرّسائل إلى ميلينا** أوّل ما نُشر من الرّسائل، حتّى قبل أن تُنشر **الرسائل إلى فيليس**. كانت ميلينا قد عهدت بها إلى النّاشر ويلي هاس، زوج صديقتها الحميمة يارميلا. ونُشرت أوّل مرّة سنة ١٩٥٢، نشرةً ناقصة، ثمّ صوِّبَت سنة ١٩٨١؛ ثمّ ظهرت النّسخة النّهائية سنة ١٩٨٣. عندما توفي كافكا نشرت ميلينا في صحيفة *Národni listy* ببراغ، مقالاً ناعياً:

«أوّل أمس، ٣ يونيو/ حزيران ١٩٢٤، غادرنا بمشفى كيرلينغ، قرب فيينا، الدكتور كافكا. كاتبٌ ألماني كان يعيش ببراغ. قليلون من كانوا يعرفونَه هنا، لأنّه كان يسير في طريقه وحيداً، جافلاً من العالم. لقد منحه مرضُه حساسيةً تتاخمُ الإعجازَ، ورهافةً فكريةً لا تقبل المساومة، حتّى إن بلغت به أشدَّ النّتائج رعباً. كان خجولاً، قلقاً، رقيقاً وطيّباً، لكنّ الكتب التي كان يكتبها، وهي الأهمّ في كلّ الكتابة الأدبية الألمانية الحديثة، كانت قاسيةً ومؤلمة. كان يرى العالمَ مأهولاً بشياطين لا مرئيّة تدمّر الإنسان الأعزلَ أمامَها. كان نيّراً أكثر ممّا ينبغي، وحكيماً أكثر ممّا يجب لكي يستطيع العيش، وأضعف من أن يصارِعَ، كان من أولئك الذين يعرفون من البداية أنّهم عاجزون، فيخضعون، خضوعاً يملأ المنتصرَ عاراً. كُتبه المليئة بالسخرية القاسية، تصف رعبَ ألاّ نفهمَ، رعبَ الخطأ البريء. لقد كان فناناً ما يزال قادراً على أن يسمع هناك حيثُ الصّمُّ يحسبونَ أنفسهم في مأمنٍ».

دورا ديامانت أو ديمانت

حياتها تعكس اضطرابات زمنها التّاريخية، لا بل أكثر من ذلك، تعكس محن الشيوعيين واليهود الشيوعيين، ضحايا الاضطهاد الهتلري والستاليني.

بعد مقام قصير في بولندا، عادت دورا إلى برلين حيث تابعت دروساً في الفنّ الدرامي. سنة ١٩٢٩، التحقت بالحزب الشيوعي، والتقت رجلَ اقتصادٍ ماركسياً، لوتز لاسك، فتزوّجته سنة ١٩٣٢؛

وبعد ولادة ابنتهما، ماريان، بفترة قصيرة، أوقف الغستابو لاسك. فرَّ ولجأ إلى موسكو مع دورا وماريان. ثمّ حبسه ستالين في الغولاغ السيبيري الذي سيعود منه، عشرين سنةً بعد ذلك، مكسوراً وشبه أعمى، ولكن ماركسياً دائماً! يدين بالحريّة إلى مثابرة أمّه الرّائعة، التي حرصت طيلة عشرين عاماً على الكتابة إلى كلّ الهيئات الشيوعية السوفييتية، وإلى رئيس ألمانيا الشرقية.

بعد أن فُرِّق بينها وبين زوجها، الذي لن تراه بعد ذلك، أقامت دورا في سيفاستوبال ويالطة. وفي سنة ١٩٣٨، تمكنت مع ابنتها من العبور إلى سويسرا، ثمّ إلى لاهاي، ومنها إلى إنجلترا: وباعتبارها «أجنبيةً عدواً»، سجنت في جزيرة مان. وبعد أن أطلق سراحها سنة ١٩٤٢، عاشت في لندن، حيث مارست عدداً من المهن (خيّاطة، طبّاخة، ناقدة مسرحية). سنة ١٩٥٠، تلقت دعوةً من المجلس البلدي لتل أبيب، فذهبت إلى إسرائيل، حيث قضت أربعة أشهر بفضل حقوق كافكا الإنجليزية. التقت ماكس برود مجدّداً؛ ومرّة أخرى ندمت لأنّها لم تعطِه، كما طلب وألحّ في الطّلب، مخطوطات ورسائل كافكا التي كانت بحوزتها. كانت قد عاندت في الرّفض، مصرّةً على أن تحقّق الوعد الذي قطعته لخطيبها، وتحرق كتاباته.

في إسرائيل اكتشفت أنّ المهاجرين الجدد، النّاجين من الجحيم، كانوا يقرؤون كافكا على نحوٍ مختلفٍ تماماً عن ذاك الذي كان يقرؤه به الأوروبيّون: من متنه كانوا يستمدّون السّلوى، متنه الذي كانوا يفهمونه مباشرةً ودونما تحفّظٍ.

في طريق عودتها، توقّفت في باريس، حيث التقت بجان-لوي بارو: أدّت على خشبة مسرح مارينيي **المُحاكمة**، التي أعدّها للمسرح أندريه جيد. وتعرّفت كذلك على مارت روبير التي كانت تسعى إلى ترجمة **يوميات** كافكا إلى الفرنسية. وربطت المرأتين صداقةٌ حميمة: مرّاتٍ كثيرةً كانت مارت روبير تذهب عند دورا في لندن، كي تنصت إليها تتحدّثُ عن كافكا.

فريسةً للذكريات التي تسكنُها، قرّرت دورا أن تكتبها. وقد نُشرت **تدوينات دورا ديمانت عن كافكا** من طرف منشورات إفيدانس سنة ١٩٥٢.

كانت مارت روبير من بين الأشخاص القلائل الذين حضروا دفنَ دورا، يوم ١٥ أغسطس/ آب، بعدما ماتت في فقرٍ مدقعٍ. واليوم على شاهدة قبرها يمكن للمرء أن يقرأَ عبارةً لروبرت كلوبستوك:

«Who knows Dora,

knows what love means»

«من عرف دورا، عرف وجهَ الحبّ».

رسائل فرانتس الخمس والثلاثون، «كنزُها»، والعشرون كرّاساً، وعددٌ كبيرٌ من الأوراق، كلها نزعها منها الغستابو، بعد أن فتّش شقّتها. لم تُشفَ دورا أبداً من النّدم على عدم إعطائها ماكس.

وإلى اليوم، على الرّغم من عمليات بحثٍ كثيرة، لم يُعثر على شيءٍ من تلك النّصوص.

أمّا ممّا كتبته دورا، فلدينا رسائلُها إلى ماكس برود، وإلى مارت روبير. لكن لا رسالةَ ممّا كانت قد أرسلته إلى فرانتس.

ماكس برود

ترك براغ يوم ١٤ مارس/ آذار ١٩٣٩، صحبة زوجته، إلزه. انطلق قطارُه خمس دقائق قبل أن تغلق الفيالقُ النازية الحدود التشيكية. لاعتناقه الفكر الصّهيونيّ منذ شبابه، تخلّى عن منصب أستاذ كرسي الذي عرضته عليه جامعةٌ أمريكية، بتوسّط من توماس مان. هاجر إلى فلسطين، وحمل في حقائبه المخطوطات، والرّسائل، وكرّاسات التدوين، والدّفاتر الزرقاء، والرّسوم، والخربشات التي وُجدت في مكتب فرانتس، والتي جمّعها في بيته بطلبٍ من هرمان ويولي كافكا.

ولمّا استقرّ الكاتبُ الغزير الإنتاج (٨٣ عملاً) في تل أبيب صار المستشار الأدبيّ لمسرح حبيما (كان قد تأسّس في موسكو سنة ١٩١٨ بهدف الحفاظ على اللغة والثقافة الإبراهيميّتين).

حتّى وفاته، يوم ٢٠ ديسمبر/ كانون الأوّل ١٩٦٨، كرّس ماكس جهوده لترتيب صداعٍ فعليٍّ، الفصول والنّصوص والملاحظات التي كان كافكا يدوّنها كما اتّفق، بادئا الكتابة على الدّفتر من طرفيه معاً.

لماكس ندين بنشر **المحاكمة** ١٩٢٥، **والقلعة** ١٩٢٦، **وأمريكا** ١٩٢٧. التي أعيد نشرها جميعها لاحقاً من طرف منشورات شوكن، سنوات الثلاثين. وفي سنة ١٩٣٧ نشر برود بيوغرافيا صديقه: **فرانتس**

كافكا، كتابه الوحيد الذي قاوم الزّمن: كان مكتوباً عليه أن يظلّ يدورُ كقمرٍ تابعٍ حول الرّجل الذي «فتح الطّريق»، وجعل مصيريهما مرتبطين إلى الأبد.

سنة ١٩٤٨ (وكان كافكا قد تُرجم إلى العبرية)، حصل ماكس على جائزة بياليك، إحدى أرفع الجوائز الأدبية بإسرائيل.

ثمّ ها لطخةٌ في اللّوحة، تنذرُ بعواصفَ: طلب ماكس من شوكن أن يعيد إليه مخطوطات روايات فرانتس الثلاث المنشورة بعد موته؛ رفض النّاشر، ولكي يحميها من الاضطرابات التي تهزّ الشّرق الأوسط، وضعها في خزنةٍ بسويسرا. فنشب شجارٌ بين الرّجلين.

ثمّ شهدت سنة ١٩٦٠ صعود شخصية جديدة إلى خشبة المشهد: بارون إنجليزيّ وُلد بعيداً جداً من براغ وتل أبيب، في قرية صغيرة بالهند تسمّى راجكوت. إنّه السير مالكوم باسلي الذي عُيّنَ أستاذاً للأدب الألماني بجامعة أوكسفورد. حين باشر دراسة كافكا الذي كان يحبّه، على حدّ تعبيره، حُبَّ أخٍ أصغر، أخبرَهُ أحدُ طلبته، واسمه ميكاييل شتاينر، أنّه حفيد أخت كافكا، وأنّ أمّه ماريان تعيش في لندن. حيث تربطها صداقةٌ بإدوين وويلا ميوَر، مترجمَي خاله إلى الإنجليزية. على أنّ السير باسلي مقتنع بأنّ التعديلات التي أجراها برود على متن كافكا قد أفسدته. سنة ١٩٦١، استطاع أن يحصل، بموافقةٍ من ورثة كافكا، ماريان وفيهرا وهيلين، على الإذن لينقل في حقيبة سيارته ثلثَي المخطوطات الموضوعة في سويسرا (ومنها دفاتر اليوميات الثلاثة عشر)؛ كانت تجربةً صادمةً،

لدرجة أنّ السير باسلي أحسّ طيلة مسار الرّحلة بشعر رأسه يقف من الرّعب. وضع كنزه بمكتبة بودلي في جامعة أكسفورد، حيث ما تزال المخطوطات إلى اليوم في أمانٍ. وبمساعدةٍ من مختصّين بارزين (منهم يورغن بورن) أعاد باسلي ترميم النّصوصِ الأصل، واستعادة ترقيمِها المميّز. وإلى اليوم ما تزال الطّبعة الإنجليزية من **اليوميات** أكمل من الطّبعة الألمانية.

لنعد إلى ماكس برود، الذي أخذت صورته تهتزّ، بقدر ما غدت تنهال عليه الانتقادات التي ما انفكّ صوتها يرتفع أكثر فأكثر: لم ينفّذ وصيّة صديقه الذي طلب منه حرق أعماله، وأجرى على الكتابات حذفاً، وغيّر ترتيب الفصول، وحرّر بقلمه بعض الأجزاء؛ الانتقادات تتراكمُ.

عهد ماكس، الذي لم يرزق بأطفال، إلى إستير هوف، سكرتيرته وعشيقته، بالمخطوطات التي كانت في حوزته، خاصّة منها مخطوط **المحاكمة**؛ الذي باعته إستر إلى الأرشيف الأدبيّ الألمانيّ بماربـاخ[1]، أثناء المزاد الذي نظّمه Sotheby's، بسعر ١,٩ مليون دولار؛ وكانت قد باعت من قبل، في مزادٍ مغلقٍ بألمانيا، اثنين وعشرين رسالةً وعشر بطاقاتٍ بريدية كان قد بعث بها كافكا إلى برود.

وحين توفيت سنة ٢٠٠٧، عن سنّ تناهز سنةً بعد المائة، أوصت بـ«أملاكها» إلى بِنتَيها إيفا وروت.

---

(١) نُشرت نسخةٌ مطابقة لهذا المخطوط سنة ١٩٩٨ من طرف منشورات Stroemfeld Verlag.

عارضت إسرائيل الوصية، ورفعت دعوى قضائية ضدّ الوريثتين.

وإذّاك بدأت آخرُ محاكمات كافكا.

وشأنها شأن محاكمة جوزيف ك. حشدت هذه المحاكمةُ عشرات المحامين.

ما تزال إيفا، المرأة السّبعينية، تسكن تل أبيب في شقّة أمّها المتواضعة، بالرّقم ٢٣ شارع اسبينوزا. وما إن انطلقت القضيّة حتّى صارت محاصرة ليلاً ونهاراً من فيالق الصحفيّين الذين شدّوا الرّحال من كلّ مكانٍ. في شقّتها المؤلّفة من غرفتين معتمتين، تتراكمُ أطنانٌ من الملّفات من الأرض إلى السّقف، وعشرات القطط تموء وتجول حول مخطوطات كافكا، وكأنّما تشتمُّ أنّ الرّجلَ الذي حَبّرَ تلك الصّفحات كان يشمئزّ من عيونها الباردة ومخالبها الحارقة؛ إنّ تلك الحيوانات تنشرُ حتّى آخر الشّارع رائحةً وبائيةً ما انفكّت تثير الشكاوى وتستدعي تدخلّ الشّرطة.

لم تفتح إيفا لأيٍّ من الصّحفيّين الذين رنّوا جرس بابها. أحد أولئك الصّحفيّين، إيليف باتومان، في مقال **بنيويورك تايمز** يوليو/ تمّوز ٢٠١٠، قارنها بالخفير الواقف أمام باب القانون (الفصل التّاسع من **المحاكمة**)، الخفير الذي لا يسمح لأحدٍ بالدّخول، على امتدادِ الأيّامِ والشّهور والسّنين.

ومثلهما مثل ك. خسرت إيفا وروت القضيّة: صارت «أوراق» كافكا الرّاقدة بزيوريخ وتل أبيب ملكاً لإسرائيل. وفي سنة ٢٠١٠

فُتحت الصناديق المقفلة. فماذا وجدوا فيها؟ لم يُرفع اللّغز بعدُ، لأنّ إيفا وروت، على الرّغم من سنّهما المتقدّمة، استأنفتا. فعُلّقَ الحكم. وسيظلّ معلّقاً حتّى النّطق بحكمٍ نهائي. وأيّ عجبٍ في ذلك؟

إرنست فايس

طبيبٌ جرّاحٌ وكاتبٌ موهوبٌ، هاجر إلى فرنسا في بدايات سنة ١٩٣٣؛ وفي اليوم الذي دخل فيه هتلر باريس، أطلق على نفسه رصاصةً في الرّأس.

فرانتس فيرفل

صار الزّوج الرّابع لألما ماهلر (التي بعد وفاة زوجها الموسيقي الشّهير، غوستاف ماهلر، تزوّجت أسكار كوكوشكا، وبعدَه فالتر غروبيوس). مؤلّفاً ناجحاً، غادر فيرفل باريس المحتلّةَ، رفقة عددٍ من الفنّانين والكتاب، ونجح في الوصول إلى الولايات المتّحدة، حيث استقرّ بكاليفوريا. حاز شهرةً واسعةً بفضل عمله **نشيد برناديت**، ثمّ **ياكوبوفسكي والكولونيل** (الذي حُوّلَ إلى فيلم سينمائيّ)؛ توفيَ (قُبيل استسلام ألمانيا) يوم ٢٥ أغسطس/ آب ١٩٤٥، عن سنّ ناهزت السّادسة والخمسين؛ شيّع جنازتَه أصدقاءُ ألما، أوتّو كليمبرر، وإيغور سترافينسكي، وأوتّو بريمنغر، وبرونو فالتر، وأبناء توماس مان، بينما ظلّت ألما معتكفةً في بيتها.

تذييل
٢٠١٤

أذكر أنّني، أثناء السّنة الأولى التي قضيتها بهيليرود، وهي مدينةٌ دنمركية صغيرة، لا تبعدُ كثيراً عن كوبنهاغن، كنت أسكن منزلاً كبيراً على ضفّة بحيرةٍ ينعكس في مائها قصر فريديريكسبورغ، بسقفِه النُّحاس وأبراجه العديدة. من الصّباح إلى المساء لم أكن أسمع إلا قرصَ الفونوغراف الوحيد الذي كان معي، **السيمفونية الرّابعة** لغوستاف ماهلر، من دون أن أملّ منه. لست صاحبةَ أذن موسيقيّة، لكن إلى اليوم ما أزال -وبعد سنين طويلة- أتعرّف على موسيقى ماهلر من أوّل وحدةِ قياسٍ. يلزمني أن أصاحب عملاً فنياً مدّةً طويلة، قبل أن أتشبّع به.

أنصتُ إلى كافكا منذ أمدٍ بعيدٍ، ما عدتُ أستطيع تحديده. قرأت **الرّسالة إلى الوالد** وأهديتُها مرّاتٍ عديدة. ومرّاتٍ كثيرةً ذهبت أصغي إليها في المسرح. حين كان كافكا، الذي حَلُم بأن يكون ممثلاً، يقرأُ نصوصَه، كان يحْتَرُّ حدَّ الرّجفة، فيثيرُ حماسةَ أصدقائه، ماكس وفليكس وأوسكار.

إنّ كافكا هو الكاتب الذي نال النّصيب الأكبر من الكتابة حوله على امتداد خريطة العالم. وما تزال الكتابات فيه تتناسلُ، حتّى أنّ الأدب الذي يتخذُ موضوعاً له كافكا صار بدوره موضوعاً للدّراسات، وهي ظاهرةٌ لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأدب. لقد انتقلنا من السؤال: «أيّ معنى في كتابات كافكا؟» إلى السّؤال: «أيّ معنى في الكتابات حول كتابات كافكا؟»

الغريب أنّ القراء يلتهمون كلّ ما يُكتب في أدب كافكا، لكن لا يقرؤون نصوصه أو قلّما يفعلون. **القلعة** تصيبنا بالقلق، **والمحاكمة** تجعلنا نسترجع ذكرياتٍ سيّئة، **والتحوّل** الذي كان يُضحك أصدقاءَه ينتزع منّا الدّموعَ.

لمَ أضفتُ إلى الكتب حول كافكا كتاباً آخر؟ وكيف أتتني الفكرة؟

في كتابه **كافكا**، يحكي بيترو تشيطاتي في ثلاثة أسطرٍ حكايةً طريفة عن كافكا، لم أكن أعرفها، ولا أشار إليها فرانتس في أيٍّ من أعماله: في إحدى حدائق برلين، سنةً قبل وفاته، التقى الكاتبُ بفتاةٍ صغيرةٍ تبكي، كانت قد فقدت دميتها. لأيّامٍ طويلةٍ ظللتُ أفكّرُ في هذا اللّقاء، وفي الرّسائل التي تناهز العشرين، والتي كتبها الرّجل المريض تسليةً للطفلة. أنفقت وقتاً طويلاً في كتابة حكاية، **كافكا والدّمية**. ثمّ تساءلتُ من تكون دورا هذه التي نقلت لنا الحكايةَ؟ لم أكن آنئذ أعرف من النّساء اللواتي عشقهنّ فرانتس إلا واحدةً، ميلينا.

ذات يومٍ توصّلت بأعمال كافكا الكاملة، نشرة لابلياد، في أربعة مجلّداتٍ، مرفقةٍ بعدّةٍ نقديّة معتبرة. قرأت، وأعدت قراءةَ، خاصةً **اليوميات، والرّسائل إلى فيليس، والرّسائل إلى ميلينا، والرّسائل إلى أصدقائه وعائلته، وقصصه وشذراته**؛ استمتعت بمقارنة النّصوص التي كُتبت في اليوم نفسه، إلى فيليس وأوتلا وماكس، متلذّذةً بتغيّر نبرته كلّ مرّةٍ: شاكٍ حين يوجّه الكلامَ إلى خطيبته الأولى، وحنوناً مرحاً تجاه أخته؛ وحازماً، دقيقاً، ساخراً، لطيفاً، حين يَسأل صديقَه خدمةً. وحين يتوجّه بالحديث إلى أشخاصٍ عديدين، «لياليه المأهولة بالفئران» على سبيل المثال، فإنّه ينطلق إلى ممارساتٍ أسلوبية، ويُقحمُ تنويعاتٍ في السّرد والإيقاع؛ وإنّنا لَنستشعر المتعةَ الحسيّةَ البالغة التي كان يشعر بها هو يحاول تثبيت تلك اللحظاتِ من الحياة، وتلك الصور على شريط الذّاكرة. نشعر به جسدياً.

إنّ **المراسلات**، التي هي أغنى من **يومياته** وأشدّ منها انتظاماً، تَعرض أمامنا حياةَ فرانتس (أجل أسمّيه باسمه الشخصيّ) اليوميةَ؛ السّاعاتُ والأيامُ والسّنوات تجري؛ نهرٌ يسير على مهلٍ، يرسم في طريقه تعرّجاتٍ، يمتدّ، يتيه، يجفُّ، ثمّ فجأةً يشتدُّ ويمضي متسارعاً حتّى يبلغ مقامَ السكيرزو[1].

هنا الشّارعُ الذي يسير فيه بخطى حثيثة، وعلى رأسه قبّعته؛ وهناك حديقة شوتك حيث كان يأتي ليقرأ كلايست أو ستريندبرغ

---

(١) الكلمة في أصلها الإيطالي تعني «الدّعابة»، وفي الموسيقى الكلاسيكية تشير إلى إيقاع زمني سريع جداً.

في ظلّ شجرةٍ عتيقة، وها أستاذهُ للّغة العبرية يتقدّم للقائه، حاملاً مكبّر صُورٍ (آنلارغر) يرزح تحت ثقله، وحين يحلّ المساء، يدفع فرانتس باب المسرح البيديشي، ويكون في مقدّمة المصّفقين لصديقه لوفي؛ بنظرةٍ يجوبُ الصّالة، يدوّنُ بضعة أسطُرٍ في دفتر صغير: «كتفان يريدان الخروج من فستانٍ بلا فتحة عنق»، «وجهٌ رُشَّ بالرّماد».

الآن، في مكتبه بشركة التأمينات، حيث لديه الكثير من العمل، يشتكي، بحسّ أشبه بفكاهة شارلو: «من كلّ أولئك الصّبايا اللواتي، في مصنع البورسلين، لا يكففن عن الارتماء في السّلالم حاملاتٍ في أذرعهنّ جبالاً من الأواني».

رأيته ذات مساءٍ يبكي في السيّنما؛ يلتقي أصدقاءه في مقهى أركو؛ يتعشّى، متجهّم الوجه، على مائدة والديه؛ يمشّطُ شعره طويلاً، يومَ أحدٍ مضجِر. تبعته في أسفاره كلّها. أَسقُف باريسَ وبعض أحيائها، لا أراها كما هي اليومَ، وإنّما كما وصفها في تدوينات أسفاره.

ليست لدينا أيّ من الرّسائل التي أرسلتها فيليس، ويولي، وميلينا، ودورا، إلى الرّجل الذي أحبّهنّ ولاحقهنّ، كما لم تُحبَّ أو تُلاحقَ من النّساء إلا قليلٌ. لم يصلنا من تلك الرّسائل سطرٌ، اللهمّ إلا الرّسائل الثماني التي أرسلتها ميلينا إلى ماكس برود. بيد أنّ فرانتس يلتقط بكثافةٍ بالغةٍ صورهنّ، وعذوبتهنّ، وانزعاجهنّ، وتشرُّطهنّ، وحاجتهنّ وخوفهنّ، بحيث يقتحمن الفيلم الذي تجري أحداثه أمام أعيننا، ويصرنَ نجماته؛ نتابع اندفاعهنّ وتقهقرهنّ، نحسدهنّ

على الشّغف الذي يخلقنه، ونلومهنّ ونعاتبهنّ، ما الذي كنتُ لأفعل لو كنت أنا مكانهنَّ في مواجهة رجلٍ يُجنُّ إن حُرمَ الكتابةَ؟

لفرط ما أنصتُّ إلى مراسلاته، إلى تخطيط قلبٍ يوشك أن يتحطّمَ، بدا لي أنّ المرأة التي أحبّها أكثر من سواها، أو أفضل من سواها، ليست ميلينا ولا دورا. إنّما هي أخته الصّغرى، أوتلا. أليس عندها، بتساوراو، التمسَ الملجأ حين بدأه السلُّ؛ هناك حيث قضى ثمانية أشهر كانت أهنأ شهور حياته؟ أليس إليها كتب: «لم أشعر بنفسي قطّ أفضل حالاً من اللحظات التي أقضيها وحيداً معك».

سألني أحد مترجميَّ: «كيف اشتغلت على الكتاب؟».

بدأت بكتابة مسرحية. وحين انتهيت وجدتني أدور في دائرة. اخترت الطريق الخطأ. أعدت كلّ شيء من البداية: القراءةَ والكتابةَ. مشتغلة على الموضوع نفسه: الغراميات المتفرّدة لشخصية فريدة. منذ المساء الذي التقى فيه فيليس أوّل مرّة، وحتّى يومه الأخير، وحبّه الأخير، دورا.

من دون أن أنتبه للأمر، حاولتُ أن أحيي الشخصيات، أن أجعلها تتحاور، مبتعدة قدر الإمكان عن البيوغرافيا بمعناها التقليدي. كنت أريد أن أرى فرانتس، أن أسمعه، كما رأيته وسمعته في رسائله، مستنفَراً، قلقاً، متيقّظاً، كريماً، لا يطاق، غيوراً، متطلّباً، أرِقاً، مذنباً لإحساسه بالذنب. وسعيداً أن يكون محض أدبٍ.

لم أكتب بيوغرافيا على الطريقة الكلاسيكية، ونسيت أن أسأل نفسي أي جنسٍ أدبيّ كتبت فيه؟

كتبت لحظاتِ حياةٍ، ربّما؟ لقطاتٍ فورية؟ بالكاد أضيفت لها رتوش؟

أنهيت هذا الكتاب منذ أكثر من سنتين، لكنّني ما أزال أخالط أسرة كافكا، إنّها تشبه أسرتي كثيراً؛ لم نكن نسكن براغ، التي لم يُقيّض لي بعدُ أن أزورَها، لكنّنا كنّا نسكن مدينة صغيرةً في تونس؛ أمّي كانت هرمان كافكا في نسخةٍ أسوأ، وأبي كان يولي في نسخةٍ أقلّ جودة، لم يلقنّي إلاّ خوفَه من زوجته. نحن أيضاً لم نكن نذهب إلى الكنيس إلا عشيّة احتفال الكيبور، وشقّتنا الضيّقة المزدحمة، كانت لا تقلّ ضجّة عن شقّة آل كافكا.

أنا أيضاً كنت أذهب تقريباً كلّ يوم إلى المسبح، وكان يحدث لي أن أستعذب المرضَ. فإن أضفتُ إلى كلّ ما تقدّمَ أنّ اسمي خيّاط[1]، سوف تفهمون لمَ لم أتوسّل بأيّ كتابٍ من آلاف الكتب التي اتّخذَت لها موضوعاً فرانتس كافكا. إنّي أبعد ما أكون عن فكّ شفرة أعماله. أعماله التي ستظلّ ملغّزةً لقرونٍ وقرون.

*

* *

مايو/ أيار ٢٠١٢، زرت بِكين للمرّة الرّابعة، وأخيراً صعدت إلى معْلَمَة سور الصّين العظيم. كانَ الفندق، حيث قضيت ليلتي،

(١) تشير الكاتبة إلى اسمها الحقيقي، اسم الولادة: جاكلين خياط-بونان، قبل زواجها من كلود راوول-دوفال، أمّا المدينة التونسية الصّغيرة التي وُلدت فيها فهي صفاقس.

The Great Wall، رائعاً، يطلُّ على سلسلة جبالٍ مذهلة، تكسوها غاباتٌ منيعة. كان السّور يمتدُّ على آلاف الكيلومترات، نازلاً وصاعداً منحدراتٍ مدوِّخة، ثمّ يمضي ملتوياً كأفعى في السّحابِ. وفي الأفق لا أثر لبشر.

تسلّقت جرفاً قاسياً تملؤه الحصى، كي ألمس بقدمي ويدي بناءً بشرياً عبقرياً وعصياً على الفهم؛ ماشيةً، كنت أحاولُ أن أتذكّر قصّةَ كافكا عن **بناء سور الصّين**. وحين عدت إلى فندقي راجعتُ حاسوبي؛ إحدى الرّسائل الإلكترونية، رسالة طويلة وبالفرنسية، كانت من طرف شخصٍ يسمّى بيتر مارك، أستاذ بجامعة ويسليان، غير بعيدٍ من نيويورك. يقول في رسالته إنّ زوجته، وهي فرنسية وأستاذة أدبٍ بباريس، قد أرسلت إليه كتابي. لكن أهمّ ما قاله لي هو أنّ صديق والده الحميم، هنري ماراس، وهو محلّلٌ نفسيّ ذو ثقافةٍ رفيعةٍ، هو... ابنُ فيليس باور! وإلى اليوم ما زلت أحسّ التأثّر الذي أصابني يومها. لم يبدو قطُّ كافكا أقربَ وأشدَّ حضوراً. نصحني بيتر مارك بأن أعجّل بلقاء هُنري لأنّ صحّته تتدهورُ بسرعةٍ.

في الأيام التّالية، أخبرني أنّ هنري ماراس قد ساعد فيليس في بيع المئات من الرّسائل التي كانت في حوزتها، لكنّه احتفظ ببعض المظاريف وكذلك بكلّ الكتب التي كان كافكا قد أهداها موقّعةً إلى أمّه. بوسعي إذن أن أراها، وأمسكها بيدي.

لم أكن أرغب إلا في شيءٍ واحدٍ، أن ألتقيَ ابن فيليس، أن أسمع هذا المحلّلَ النّفسيَ يتحدّث عن أمّه والذكريات التي حفظتها عن

خطيبها الشّهير. وبينما أخطّط لرحلةٍ إلى نيويورك، كتب إليّ بيتر (وقد أصبحنا أصدقاء)، يُعْلِمني، بتأثّر بالغ، أنّ هنري ماراس قد مات. كان في الحادية والتّسعين من عمره.

إن أنا أحصيتُ عدد النّاس الذين وضعهم رجُل براغ في طريقي، فسأقول إنّ الكتب تشبه عجين حجارة سور الصّين. إنّها تخترق الفضاء، وتسدّ الثغرات، وتقيم تقاطعاتٍ، وتتحدّى الخيالَ. وتحمينا من البرابرة.

حاشية
إلى ناشرتي والمتعاونين معها

هل تعرفون هذه الرّسالة التي أرسلها كافكا إلى ناشره، إرنست روفوهلت، يوم ٧ سبتمبر/ أيلول ١٩١٢؟

«أقبل عن طيب خاطر بالشّروط التي تريد أن تعرضها عليّ؛ وأفضّلُ منها الشّروط التي تضيّقُ هامش مجازفاتك».

أو رسالته بتاريخ ٢٥ سبتمبر/ أيلول ١٩١٢؟

«بما أنّ العقد لا يعيّنُ تاريخ النّشر -لا أعير غير ذلك أيّ اهتمام- فأطلب منك فضلاً أن تعلمني متى ما نُشر الكتاب».

وأخيراً، هل سبق لكم أن وجّهتم إلى أحد مؤلّفيكم لوماً أو مديحاً كذاك الذي وجّهه إلى كافكا ناشره كورت فولف؟

«لا أحد من المؤلّفين الذين نتعامل معهم يوجّه لنا من الأسئلة والطّلبات أقّل مما توجّهه أنت، ولا أحد يبدي قدْر ما تبديه من لا مبالاةٍ تُجاه مصير نصوصك. لكن لا شيء يستطيع أن يزعزع شغفي وتعلّقي القويّ بعملك».

حاشية ثانية
رسالة من المترجم إلى المؤلّفة

سيدّتي،

أكتب إليك، وأنا أستمع إلى **السيمفونية الرابعة** لماهلر، بعد أن فرغت من مراجعة ترجمتي كتابك كافكا الخاطب الأبدي.

أعرف أنّ، في عالم يمشي على قدميه، كان على هذه الرسالة أن تحمل تاريخ ٢٩ مارس، أي تاريخ اليوم الذي استلمت فيه، عبر النّاشر، رسالتك التي ترحبين فيها باشتغالي على ترجمة كتابك، وتقترحين مشكورة المساعدة، والإجابة عن أسئلتي، طيلة مراحل إنجازها.

هل تعني الرسالة المتأخرة أنّي لم أحتج مساعدة أو أطرح أسئلة طيلة اشتغالي على النص؟

العكس هو الصحيح: لم يتطلّب منّي عمل قطّ هذا القدر من الاشتغال والتركيز النفسي، ولا ملأ نفسي هذا الكمّ من الشّكوك والريبة.

إلا أنّ لي عذراً بثلاثة أوجه على الأقل في عدم الكتابة إليك:

أوّل الوجوه أنّي لم أكن يوماً ممّن يجيدون فنّ التراسل؛ خاصة كتابة الرسالة الأولى؛ وبعد ترجمة كتابك والوقوف على الطابع الشيطاني للرّسائل -كما يقول دُلوز وغواتراي-، كونها لا تنتهي، زاد عجزي عن بداية السلسلة...

والوجه الثاني: إنّ تدشين سلسلة من الرسائل ينطوي على خطر تدشين سلسة موازية: سلسة أسئلة. وكالرسائل نزيف الأسئلة لا يتوقّف...

الوجه الثالث: إنّ طبيعة العمل نفسها تتطلّب الإنصات إلى تكوينه. لقد أردت أن أتتبع نفس الطريق التي اتّبعتها المؤلفة في جمع متنٍ لا يقدّم نفسه إلا كمِزَقٍ متناثرة، وأن أعود كلّ مرّة إلى النصوص التي عادت إليها، وأحاول الخروج من المآزق التي زرعتها في طريق المترجم أثناء محاولتها هي نفسها الخروج من المآزق التي وضعها فيها كافكا من قبل.

لا شكّ أنك تعرفين قصّة كافكا الجميلة «أمام بوابة القانون»، قصّة الرّجل الذي بعد سنين انتظار أمام بوابة القانون يقول له البواب «هذا الباب لم يصنع إلا لك».

مترجمُ هذا هذا الكتاب أيضاً يعتقد أنّه لم يكتب إلا له، وكان عليه أن يقف طويلاً أمام الباب قبل أن يكتشف أنّ الدخول يعني التوقيع على عقد أوّلُ شروطه عدم إمكان الخروج أبداً، لأنّ بعد

الباب أبواب، وبعد الأبواب ردهات، وبعد الردهات قصور أخرى... ومع ذلك ليس لنا إلا أن ندخل..

ليس لنا إلا أن نترجم!

الرّباط ٢٦/ ٠٩/ ٢٠١٩

محمّد آيت حنّا

كتابٌ رائع. رواية تستمدّ قوّتها الخفية من التزامها الدائم بهذا الشرط: أن تنمحي المؤلفة فاسحةً المجال لكلمات كافكا، ومانحةً القارئ صورةً مباشرةً عن الكاتب. إن كتاب جاكلين راوول-دوفال قد نجح في تحقيق معجزة التناسخ.

صحيفة لموند الفرنسية

بعد فيليس، وجولي، وميلينا، ودورا، يمكن القول إن جاكلين راوول-دوفال هي "الخطيبة" الرسمية الخامسة لرجل براغ. لم تصلها أي رسالةٍ منه، لكنّها أرسلت له إحدى أجمل الرسائل التي وصلته. لحسن حظه .. ولحسن حظنا.

صحيفة لوكانار أونشيني الفرنسية

تقدّم جاكلين راوول-دوفال في شكل روايةٍ هذه الدراسة حول غراميات كافكا المستحيلة، دراسة بالمعنى الموسيقي لكلمة دراسة: واضحة، صافية، مبنية بشكلٍ مثالي، من دون أي حشو أو تفاصيل زائدة.

صحيفة جورنال دو ديمانش الفرنسية

جاكلين راوول دوفال

كافكا
الخاطب الأبدي

9 789921 723434

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com